المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع والتسعين

١ مارس سنة ١٩٣٩ — ١٠ محرم سنة ١٣٥٨

الاستهداف

لحالات سرطنية عربية

حقائق جديدة تفسّر كثيراً مما كان غامضاً في شؤون الصحة والمرض

في اليوم الرابع من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ كان احد العلماء الاميركيين المقيمين في فرنسا جالساً في مقهى باريس وامامهُ طبق يحتوي على طعام مصنوع من حيوان مائي يدعى الكركند أو السرطان البحري Lobster . كان ذلك العالم في السابعة والاربعين من عمرهِ وكان يستطيب هذا الطعام فأكثر تلك الليلة من اكلهِ . فلما تنفس الصباح استيقظ الرجل وقد تورمت اصابعهُ حتى غدت ضعف حجمها العادي ، ولم يقتصر الورم على الاصابع بل شمل الشفتين والخدين والعينين كذلك

ومنذ ذلك اليوم تبيَّن الرجل انهُ لا يستطيع ان يأكل السرطان البحري او المحار او الاريان (القريدس في بيروت والجمبري في مصر) او اي نوعٍ آخر من السمك بغير ان يصاب هذه الاصابة العنيفة في جلدهِ . ثم تبيَّن بعد ذلك ان هناك اطعمة اخرى تؤثر فيهِ هذا التأثير منها اللحم والبيض حتى الخبز . فقضى بعد ذلك تسعة اشهر وهو لا يأكل الاَّ الخضراوات . ثم ارتدَّ الى اكل البيض فاستطاعهُ بغير ان يتورَّم ، فبدأ يأكل قطعة صغيرة من زلال بيضة مسلوقة ثم زادها رويداً رويداً حتى ثبت لهُ ان جسمهُ أصبح قابلاً لهذا الطعام وصحب ذلك قبول جسمهِ

للحم . وخلاصة الآن — على مايروي جورج غراي الكاتب العلمي في مجلة هاربرز الاميركية وهنا ملخص هذا الفصل — يشتمل على البيض واللحم

***

وفي شهر يونيو كان هذا العالم يتناول طعام الافطار وكان على مائدته قليل من مربّى الشليك strawberries فاكلهُ فعقب ذلك تأثر جلده تأثراً عنيفاً على نحو ما تمّ لهُ عندما أكل السمك قبلاً ، وتفنى بضعة اشهر وهو ممتنع عن الشليك خضراً او مربياً . ثم عاد الى تناوله فلم يصب بضرر ، وانقضت ستة اشهر وكان يأكلهُ على جاري عادته ، فاكاد يفعل حتى اصيب بالحُماق (وهو شبه الجدري يتلفظ به الجسم ويعرف عادة باسم الشري hives) فتنبّه ذهنه العلميُّ الى حالته الشاذة وكيف يصاب احياناً ولا يصاب احياناً اخرى ، فجعل يدوّن في دفتر خاص متى يصاب ومتى لا يصاب ، فتبيّن لهُ ان ثمار الشليك التي كانت تؤذيه كان يأكلها في الصيف . فاذا أكلها في الشتاء لم يصبهُ ضررٌ ما من أكلها ، فكأن هناك عاملاً متقلباً في درجة احساس الجسم بها بين الفصلين

ومع ذلك لايزال استهداف هذا العالم للتأثر بالسمك كاملاً حتى كتابة هذه السطور لم ينقص ولم يتقلب منذ ذلك اليوم في سنة ١٩٣٢ . ومن الغريب ان اقل اثارة من اي نوع من السمك يثير جسمهُ فيتورّم . وقد روى لي انهُ كان في جنيف وذهب الى مطعم فطلب البيض مقلوًّا بشكل خاص فجاءهُ الخادم وعلى الطبق مع البيض قطعتان من اللبِن (الانشوفي) فقال للخادم أعِد الطبق واصنع لي طبقاً جديداً من البيض واحذر ان يمسهُ اللبِن فاني لا أستطيع ان آكل السمك. ان مجرد لمسهُ يؤذيني . وعاد الخادم بعد قليل فأكلَ الرجل واستطاب ما أكل ولكنهُ عاد في الصباح التالي ونادى الخادم وقال لهُ « تعال وانظر ما فعلت » . ومدَّ يدهُ فاذا اصابعهُ متورمة ورفع قدمه فاذا كعبهُ متورم كذلك . ثم قال : عندما طلبت امس ان تصنع لي طبقاً جديداً من البيض لم اكن واهماً ولا متعنتاً ولكنك رفعت اللبِن عن الطبق ، وعدت اليَّ به زاعماً انهُ طبق جديد . فاعترف الخادم السويسري بما فعل واعتذر

وكان مع صاحبنا في اليوم التالي صديق طبيب فأعرب عن شكه في صحة القول عندما رويت لهُ الرواية . فعرض صاحبنا ان يقيم الدليل . وبعد ايام اجتمعا وكانا الاثنان على خير ما يرام فأكل صاحبنا قطعة من سمك التونة بحجم حبّة الحمص ، وفي اليوم التالي عرض اصابعهُ على صديقه الطبيب فاذا هي متورمة تكاد تخانة الاصبع تفوق التخانة الطبيعية ثلاثة اضعاف . فالحالة حيّاً ليست حالة سوء هضم عادية . وذلك بأن المادة المثيرة لهذه الحالة مادة معيَّنة ، وجسم الرجل شديد الاحساس بفعلها والتأثير واضح معيَّن . فيجب ان توضع هذه الحالة في طبقة على حدة مفصولة

عن طبقة الحالات الناشئة عن الاطعمة التي لا تؤاتي بعض آكليها كما لا يؤاتي الفلفل الاخضر كاتب هذه السطور

وقد يقال ان صاحبنا العالم الاميركي عرف انهُ اكل قطعة التونة فأثر وهمه في اعصابه فأحدث هذا التأثير في جلده . ويردُّ على هذا القول بوقوع التأثير من غير ان يدري الآكل انهُ يتناول مادة تؤثر فيه . ويروى في هذا الصدد ان اميراً هنديًّا قصد الى معهد باستور في باريس لزيارته ، وكان مشهوراً عنهُ انهُ يستهدف لحالة مرضية لشدة تأثره بفرو الارنب ، ولكن احد الساعدين في المعهد لم يصدّق ، فأخفى في احدى الحجر فرو ارنب فما كاد الامير يدخل تلك الحجرة حتى اصيب . ويروى ايضاً عن جرّاح اميركي مشهور انهُ يصاب بحماق شديد اذا دخل طعامه يسيرٌ من زيت بذر الكتان ، ولذلك كان يصطحب طاهيهُ كلما اضطرَّ ان يغيب عن بيته اياماً . وكان مرَّة في فلوريدا فاستيقظ في الليل وهو يحس بتنفطات الحلق تؤلمهُ ، فراجع كلَّ ما اكل في اليوم السابق . فاستوثق من ان جميع العناصر التي دخلت في غذائه كانت مما لا أخذ عليه ، الا قليلاً من الرطب اشتراه من دكان ، فذهب اليه وسأل صاحبهُ هل يجوز ان يكون البلح قد لوّث بزيت بزر الكتان فأجابهُ انهُ يمسح البلح كل صباح بزيت بزر الكتان لأن الناس تريد البلح لامعاً

ويؤيد القول بأن هذا الفعل فسيولوجي ، ليس من خلق الوهم ، حدوثه في الاطفال . فقد روي عن طفل كان يستهدف لحالة مرضية اذا دخل البيض في طعامه ، فكانت امهُ تشرف بنفسها على ما يأكل حتى لا يتصل البيض بطريقة من الطرق بطعام الطفل . ودعيت السيدة وابنها الى عشاء عيد الميلاد عند صديقة في الجيرة ، وكانت هذه السيدة تعلم شذوذ الطفل من هذا القبيل فأكدت لوالدته ان البيض لم يدخل الخبز ولا الكعك ولا حشوة الديك ، ولكنها نسيت ان خادمتها كانت قد استعملت قليلاً من زلال البيض في صنع البطاطس «البوريه» فما كاد الطفل يأكلها حتى اصيب اصابة عنيفة ، فثقل تنفسه ثم اغمي عليه وظل كذلك بضع ساعات[1]

***

اين نضع هذا النوع من الاصابات بين اصابات الجسم المتنوعة وكيف نعلّلها ؟ فمن الواضح ان حالة الجسم عامل اساسيٌّ في ذلك . ان المادة الواحدة تكون في حالة معينة غذاء وفي حالة اخرى كالسمّ . ولا يصح لنا ان نقول انها سمٌّ لأن التأثر بها فرديٌّ خاصٌّ . حالة ان السمّ — كركب البانور — يحدث نفس التأثير في جميع متناوليه

فتأثير زلال البيض ليس تأثيراً سميًّا . لان السواد من الناس يتناولونهُ فيهضمونهُ ويمثلونهُ .

(١) راجع مقتطف يناير سنة ١٩٣٨ صفحة ٦٦ — ٦٩ فيها أمثلة كثيرة متنوعة لهذا النوع من الاصابات وشتى البواعث عليها ومنها ما عرفناه في أصدقائنا وأقاربنا

ولكن تأثير زلال البيض لا يكون طبيعيًّا في جميع الناس على الاطلاق . فقد يكون الوليد سويًّا من حيث تأثره بزلال البيض — أي بهضمهُ وبمثلهُ — ولكنهُ بعد قليل او كثير ، قد يتغير تأثره به ، فيصبح زلال البيض وكأنهُ سمٌّ ، فلا يكاد يدخل الجسم ، حتى يسرع البيض كأنهُ سمٌّ آخذ في الانتشار في انسجة الجسم . ويثقل التنفس ، ويصاب جهاز التنفس بما يشبه الربو ، وقد تحدث الوفاة في الاصابات الشديدة . هذا التأثير يختلف باختلاف الناس . ففي المعرضين لهُ يبدو التأثير في ثقل التنفس وفي غيرهم في العطاس وما يعرف بحمى التبن وفي آخرين في القيء ، ومنهم من يصاب بالاسهال او بغيره من اضطرابات الجهاز الهضمي ، او بالحماق

والاستهداف للاصابة بحالة مرضية من قبيل الحالات التي تقدَّم ذكرها ، نوع واحد من الاستهداف . فمن الناس من لا يتأثر بالمواد الغذائية ولكنهُ يستهدف للتأثر بحبيبات التفاح الباني والزوابع وغيرها من دقائق الاشياء التي تسبح في الهواء . ومعظم الذين يصابون بحمى التبن يرتدون باصابتهم الى تفاح بات معين يدعى Raymond (عشبة الحرقة : شرف) اما في اوربا حيث لا توجد هذه العشبة الا في مناطق محصورة ضيقة ، فالسبب يردُّ الى تفاح اعشاب اخرى . ولكن طائفة غير يسيرة من حوادث حمى التبن لم تنشأ من حبيبات التفاح . فثمة رجل مثلاً يغمس ذراعه في حوض من زيت الزيتون فلا يؤثر ذلك فيهِ تأثيراً مستريباً ، لكنهُ اذا سار في مصنع يكرر فيهِ هذا الزيت واستنشق ابخرته اصيب بعطاس عنيف وسال الدمع من عينيه والمخاط في أنفه وتعرض وتفط جسمه تفطاً شديداً . وقد عرف عن سيدة لا تتأثر بحبوب التفاح ولكنها شديدة التأثر بالحرير ، فوجود ثوب من الحرير في غرفة ما يملأ جوه بدقائق غبار الحرير فلا تكاد المرأة تدخلها حتى تصاب اصابة شديدة بمثل هذه الاعراض

وهناك فريق من الناس لا يتأثر بالمواد التي تؤكل او دقائق المواد التي تدخل جهاز التنفس بل يتأثر بما يمس الجلد من حبيبات التفاح وأوراق النبات والزيوت وغيرها من المواد العضوية وغير العضوية كاليود والبروفوكايين والمواد المتفجرة والباكليت . وقد روي ان فتاة في ولاية فرجينيا اصيبت بلطعة اكزيما في حلقها حيث كانت تقلد عقداً من اللآلئ اهداه اليها خطيبها . فأثبت البحث انها شديدة التأثر بالنكل لا باللآلئ ، ففحص العقد فظهر انهُ خليط

ومن الناس من يتأثر هذا النوع من التأثر بمجرد لمس شيء بارد ، فاذا لمس احدهم قطعة من الجمد ، اصيب بورم في مكان اللمس . وفي السجلات الطبية بيانات اصابات كثيرة بين المستحمين والمستحمات اصيبوا اصابات شديدة على اثر تعرضهم للبرد الشديد . وبعض الذين اصيبوا باعتقال في عضلات الخاذهم في اثناء السباحة فعجزوا عجزاً تقذهم الحراس فتبين انهم شديدو الاستهداف للتأثر بالبرد

وهناك فريق من الناس شديد التأثر بالمفاقير . وغيرهم بالاحياء الدقيقة كالبكتيريا والفطر وغيرهم بالحقن التي تقتضيها ضروب مختلفة من العلاج

***

يرتدُّ منشأ البحث في هذه الخلة الفسيولوجية الغريبة الى سنة ١٨٩٩ . ففي تلك السنة كان الباحثان الفسيولوجيان الفرنسيان شارل ريشيه Richet وهربكور Hericourt ضيفين على امير موناكو ، في رحلة الى الشرق الادنى . فخطر لريشيه في اثناء اجتيازهم المحيط الهندي ، ان يقوم بتجربة معيَّنة . ذلك بان المجلات التي تعنى بعلوم الاحياء كانت حافلة في العقد الاخير من القرن التاسع عشر بوصف التجارب الخاصة بموضوع المناعة وكانت التجربة النمط في هذا الموضوع ان يؤخذ قليل من سم افعى ويحقن في جسم حيوان بعد حلِّه وتخفيفه فتحدث بذلك مناعة في جسم الحمامة ضدَّ لدغ الافعى . وعلى هذا الاساس كان أحدُ الباحثين قد اكتشف مصل المضاد للدفتيريا . فخطر لريشيه ان يجري تجربة بسائل مهيج للجلد يستخرج من حيوان بحري يعرف باسم «البارجة البرتوغالية » . فتبين البحث مشتركاً مع هربكور . وبعد عودتهما الى فرنسا استأنف ريشيه البحث مشتركاً مع بورتيه Portier ولكنهُ غيَّر المادة التي جرَّب تجاربهُ بها اذ بدَّلها بخلاصة مستخرجة من شقائق البحر . فتبين انهُ اذا حقنت هذه المادة في الكلب لم يتأثر جسمهُ بها تأثراً ظاهراً . ولكنهُ اذا اعاد حقن الكلب بها بعد ايام اصيب باصابة شديدة . ومن الكلاب التي اجرى عليها تجاربهُ مامات . وكان غيره قد لاحظ الملاحظة نفسها ولكن تفسيرها ظلَّ مغلقاً الى ان قام ريشيه ببحثه هذا

وفي سنة ١٩٠٢ نشر ريشيه ومعاونوهُ نتائج بحثهم . وقد بدوا في رسالتهم حقيقتين تستوقفان النظر . الاولى : اذا دخلت مادة غريبة جسماً ما لم تحدث ضرراً ولكن اذا اعيد حقن الجسم بها ظهرت اعراض التسمم وحدث الموت احياناً . والثانية : يجب انقضاء فترة ايام بين الحقنة الاولى والثانية

وكان رأيهم ان تحوُّلاً يطرأ على الجسم في خلال هذه الفترة ، فتفقد الانسجة وسيلة معيَّنة من وسائل الدفاع عن نفسها فيصبح الجسم هدفاً لتأثير هذه المادة الغريبة . ولذلك اطلقوا على هذه الحالة لفظ «اناقيلكسيس » Anaphylaxis ومعناهُ الحرفي « بغير حماية »

وكان رأي ريشيه واعوانه ان سبب الاصابة ينجم عن المادة السامة نفسها لان تجاربها كانت بها . ولكن باحثاً فرنسياً آخر يدعى ارتوس Arthus اجرى التجربة نفسها بحقن المصل المأخوذ من دم حصان في جسم ارنب ، فنشأت حالة « الاناقيلكسيس » مع ان المصل غير سامّ . وتلا ذلك

سلسلة من التجارب ثبت منها ان كلّ مادة غريبة تقريباً تحدث هذا التأثير

وكان الدكتور فون بيركيه يراقب سلوك المصابين بالامراض المعدية خلال العلاج فلاحظ انهُ اذا حقن مصلاً مضاداً للسمّ — سم الميكروب — كان رَجيعُ ذلك في جسم المريض على نمطٍ معيَّن. ثم اذا اعاد حقن المصل نفسهِ كان رجعه في جسم المريض مختلفاً عن الرجع الاول على الغالب. وقد ظهر تأثير الحقن في اجسام بعضهم في تنقط الجلد، وفي آخرين في تأثر الاعصاب وتورد الجلد، وفي آخرين في ظهور حالة تشبه الربو. وبعضهم مات بعد الحقنة الثانية. ونشر فون بيركيه Von Pirquet وشيك Schick رسالة في سنة ١٩٠٥ بيَّنا فيها نتائج بحثهما في ما سمّي « مرض المصل » وفي سنة ١٩٠٦ نشر فون بيركيه رسالة اقترح فيها اسماً جديداً لهذه الظاهرة وهو Allergy وهو يدلُّ على تحوُّل حدث في احساس الجسم وسلخ تأثره. وهذا اللفظ هو السائد الآن وقد انتقل من الاستعمال الطبي العلمي باللغة الانكليزية الى ألسنة الشعب

ماذا يحدث في نسيج الخلايا عند ما يلتقي المرء المستهدف بالمادة التي تؤثر فيه؟ ماذا يحدث في خلايا السيدة المستهدفة للحمى التبن عند ما يدخل انفها حبيبات عشبة الحرقة، او الفتاة المستهدفة للحماق عند ما تأكل الجبري؟ إن العلماء لا يعرفون معرفة وافية ما يحدث، ولكنهم يعلمون ان اربعة اصناف من انسجة الجسم تشترك في هذه الظاهرة

اولاً — هناك نسيج شبيه بالشبكة يغطي المسالك الدموية والاوعية الدموية وغيرها وخلايا هذا النسيج لها صلة بتوليد المواد التي تحدث المناعة في الجسم

ثانياً — تأثر الاوعية الشعرية فتخلخل خلاياها، فتصبح جدرانها كأنها غربال يخرج من عيونهِ مصل الدم الى الفراغ الذي بين الخلايا. وقد اجريت تجارب دقيقة في جامعة ستانفورد فظهر ان الاوعية الشعرية فقدت ثلاثة ارباع محتوياتها عند اصابتها بهذا التخلخل في خلايا جدرانها. وهذا يفسّر الى حدٍّ ما التورّم والتورّد اللذين يحصلان عند الاصابة

ثالثاً — تنبض العضلات غير الارادية. فاذا اخذت قطعة من عضلة غير ارادية من خنزير هندي وعلقتها في محلول متعادل مضت في حركة انقباضها وانبساطها الدورية فاذا اضفت الى المحلول قليلاً من مادة « البرجية » — اي المادة التي يستهدف جسم الخنزير الهندي الذي اخذت منهُ القطعة للتأثر بها على النمط الذي تقدم ذكرهُ — ترى العضلة وقد انقبضت انقباضاً عنيفاً. وبهذا تفسر حالة الربو مثلاً في مثل هذه الحوادث

٤ — ثم ثبت ان للكبد شأناً كبيراً في هذه الحالة. فوجود المادة الاليرجية في تيار الدم يؤثر في الكبد فنسيج خلاياهُ تُطلق مادة قوية الفعل في الدم. ويرى الدكتور مايتوارنغ Mainwaring — صاحب هذه الأبحاث — ان هذه المادة هي التي تؤثر في جدران الأوعية الشعرية فتخلخل خلاياها

ما هي هذه المادة ؟

هنالك مادة عضوية كيمياوية تعرف باسم الهستامين Histamine تحدث اعراضاً مثل الاعراض التي تحدثها المادة الانيرجية . فاذا حقن الهستامين في الحيوانات ، سبب انقباضاً في العضل غير الارادي ، وهبوطاً في ضغط الدم ، وتأخيراً في تخثر الدم ، وتورماً في انسجة الشعيرات (Capillaries) ثم تحدث صدمة انافيلكتية (اي زوال قدرة الجسم على حمايته وشدة استهدافه) فالموت . وقد اقترح الباحثان الكيمياويان الانكليزيان ديل Dale ولايدلو Laidlaw — وهما رائدا هذا البحث التجريبي الدقيق — ان مادة الهستامين هي المادة التي تنطلق في الدم عند التأثر بالمادة الانيرجية فتحدث فيه حالة الانافيلكسيس (اي زوال قدرته على الحماية) ومن المعروف ان الهستامين موجود في كثير من انسجة الجسم وانهُ مركّز بوجه خاص في خلايا الرئتين والكبد والغشاء المخاطي في الامعاء والجلد وهي الأعضاء التي تظهر فيها اعراض « الانيرجي » على اغلب

وجاء بحث آخر يدعى السر توماس لويس فاستخرج سوائل من أورام المصابين باعراض انيرجية في الجلد وحقن بها حيوانات فأحدثت ما يحدثهُ الهستامين من التأثير . فخلص من ذلك الى النتيجة التالية وهي ان هنالك مادة شبيهة بالهستامين في هذه الاصابات وسمّاها مادة — H

واتيح بحث اميركي آخر يدعى كود Chandler Code في بحث لهُ بدأهُ في جامعة لندن سنة ١٩٣٦ وأتمهُ في معهد مايو بجامعة مينسوتا الاميركية ، ان الهستامين لا يوجد في الخلايا فقط بل في الدم كذلك ، وانهُ في حالة الصدمة الانافيلكتية تنطلق مقادير منهُ في تيار الدم . وقد تمكن من استخراج هذه المادة وبلورتها . وتدل مباحثهُ على ان كريات الدم البيض تحتوي على الهستامين او تحملهُ . والراجح من قرن مباحث كود بمباحث السر توماس لويس ان المادة H هي الهستامين

***

واذن نحن امام حالة فسيولوجية معقدة لم يتمكن العلماء من الاجماع حتى الآن على رأي واحد شامل لتفسيرها ، وانما يعلم ان بعض الخلايا في بعض الناس تصبح شديدة الاحساس بمواد معيَّنة غريبة عن الجسم (تدعى مواد اليرجية allergens) فاذا دخلت الجسم تأثرت بها الخلايا الشديدة الاحساس بها تأثراً مرَضيًّا ومن نتائج دخولها الجسم انطلاق مواد مضادة في الجسم (لم يثبت انطلاق هذه المواد في بعض حالات الانيرجي) . ونتيجة اخرى انطلاق الهستامين او المادة الشبيهة به ، وتأثير هذا التفاعل يظهر في اعضاء معيَّنة تعرف « باعضاء الصدمة » كالجلد فيتقبض ويصاب بالحاق والتورُّد والشعيرات فيتأثر عضلها غير الارادي فتحدث حالة شبيهة بالربو او المسالك الانفية فتخلخل خلايا اغشيتها فيكثر سيلان المخاط المائي من الأنف

علاقة الانتاج

الزراعي بتغذية الشعب

لحسن عنان بك
وكيل وزارة الزراعة (١)

قوة الامة بقوة أفرادها وما ينتجون من مجهود جسماني وعقلي وهذا يتوقف على مقدار ما يتناوله الفرد من الغذاء وقيمته الغذائية . ولما كانت الامة عبارة عن مجموعة أفراد كانت سلامتها بسلامة أفرادها فلا يمكن للامة ان تفوز في ميدان التطاحن إلا اذا توفر لأفرادها الغذاء الجيد ولا يتأتى ذلك إلا اذا اعتمدت الاعتماد الكلي على تموين قسم بمنتجات أرضها لتضمن القيام بأود الشعب إبان الحرب وانقطاع السبل الخارجية عنها وهذه سياسة تعمل الأمم في عهدنا الحالي بكل جهدها على تنفيذها وإذا كانت الأمم التي حالتها الزراعية شاذة قد نجحت نجاحاً باهراً في ذلك فان بلادنا وقد خصها الله بتربة خصبة ومناخ وافر وشمس ساطعة وأيد عاملة رخيصة يمكنها بلا شك ان تستغني عن غيرها

ولم تهتم الامم الا من عهد قريب بدراسة ما يحتاج اليه الانسان من الغذاء دراسة علمية وعلاقة ذلك بالزراعة والصحة العامة ولم يشذ القطر المصري في ذلك وان كان قد بدأ متأخراً عن غيره من الاقطار وذلك لأنه كان قبل أن يتبوأ محمد علي عرش مصر يرتع في بيداء الفوضى وكان الشعب المصري معرضاً دائماً للامراض الوبائية تكتسحه اكتساحاً للفقر وانعدام الوسائل الصحية فبادر هذا المصلح بمعونة علماء الغرب ومن تخرج عليهم من المصريين في وضع أسس لمكافحة الأمراض الوبائية بالوسائل المتيسرة لديهم وقد لاقوا في ذلك صعوبات شديدة لجهل الشعب وفقره وخلو المدن من الوسائل الصحية الحديثة كالمياه المرشحة والمجاري وانعدام الرقابة على الاغذية

ولم يحل القرن العشرون إلا وقد خطت البلاد خطوات واسعة في سبيل التقدم في شتى مرافقها وأمنت البلاد شر الأوبئة ولكنها لا تزال تشكو من انخفاض أعمارها وضعف الصحة العام بسبب الامراض المتوطنة وسوء التغذية لانحطاط مستوى المعيشة بين عامة الشعب الى درجة

(١) القاها الدكتور مأمون عبد السلام في المؤتمر الطبي الشرقي بالقاهرة نائباً عن عنان بك

البيعية الجائعة . وقد فتح القرن العشرون باب الامل على مصراعيه للعمل على تحسين صحة الجنس الانساني بالتقدم العظيم الذي أحرزه علماء الفسيولوجيا وكيمياء الاحياء فقد كانت الاكتشافات التي أخرجها السير جولاند هوبكنز عن الفيتامينات للعالم سنة ١٩١٠ أعظم هدية قدمت للجنس البشري إذ أنها بينت فائدة الاغذية من حيث قيمتها الحقيقية في حياة الانسان وصحته وتعرضه للامراض ومقاومته لها

فالتغذية من الوجهة العلمية الحديثة ليست مسألة مقدار بل هي عبارة عن توافر المواد التي تحسن الصحة وتحافظ عليها كالفيتامينات والاملاح المعدنية والبروتينات المركبة الموجودة في بعض الأغذية . فقد كان الراسخ في اذهان البشر من أقدم العصور ان الانسان يشبع اذا التهم ما يكفي نهمه من الغذاء فكان الطب الى نحو ثلاثين سنة مضت ينسب كثيراً من الامراض الى اسباب لا علاقة لها بالتغذية

والخدمة الجليلة التي يؤديها لنا علماء التغذية الآن هي انهم يضعون لنا معايير الاغذية Standards التي يصلح بها الجسم كاللبن والجبن والزبد وكافة مشتقات الألبان والخضر والفواكه الطازجة والبيض والاسماك واللحوم وكلها اغذية واقية Protective إذ تتوقف صحة الجماهير على ما تستهلكه منها . ولا نزاع في ان الطبقات الغنية في مختلف اقطار الارض تتمتع بما يزيد عن حاجتها بل بما يتخمها من هذه الاغذية أما الطبقات العاملة فلا يتيسر لها ذلك . لذلك رأت الحكومات الحديثة حفظاً على كيان امتها ان توفر الغذاء الصالح الكامل لكافة أفرادها فكانت أول خطوة خطتها في هذا المضمار ان عملت على رفع مستوى المعيشة للشعب وهذه مسألة من العسوبة بمكان اذ لا بد لرفع مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة العاملة ان تكون الأمة قاطبة غنية في مواردها وان تكون ثروتها موزعة توزيعاً عادلاً

فالمملكة البريطانية على الرغم مما هو مشهور عنها من الغنى وارتفاع مستوى المعيشة للفرد العادي أرتفاعاً يحسدها عليه أغلب الامم فان نصف سكانها الفقراء لم يصلوا بعد باعتراف اقطاب علماء التغذية عندهم الى درجة التغذية الصحيحة التي يحتمها العلم الحديث ليضمنوا للفرد بها الصحة ومقاومة المرض — ويكفيك ان تقرأ تقرير السير جون اور عن الغذاء والصحة والدخل لتعلم أن نسبة قليلة من سكان بريطانيا لا يحصلون على ما يكفيهم من الاغذية المولدة للطاقة وان هناك نقصاً ذريعاً في الاغذية الواقية كاللبن والبيض والفواكه الطازجة والخضر والزبد واللحم

وفي سنة ١٩٢١ أعلن الرئيس هوفر ان بالولايات المتحدة — وغناها وثروتها مضرب الامثال كما تعلمون — تسعة ملايين طفل يشكون سوء التغذية كما اتضح من الكشف الطبي على الاولاد في المدارس وما ظهر فيهم من امراض الاسنان وتشوه العظام وضعف البنية . وقد اتضح ان

عدداً كبيراً من الذين يسقطون في امتحان القرعة في كافة الممالك الاوربية سقطوا بسبب سوء التغذية في ايام طفولتهم

فاذا كان هذا ما يحصل في بلاد الانكليز فما بالك بحالة في بلادنا حيث مستوى المعيشة للفرد العادي في درجة من الانحطاط لا تصدَّق . وهذه تستدعي من غير شك دراسات عاجلة وعلاجاً أسرع إذ ان الاغذية الناقصة تضعف حيوية الشخص وتقلل من مقاومته للامراض وتعرضهُ لأمراض خطرة كمرض البلاجرا الذي يموت بسببه أربعة آلاف سنويًّا في جنوب الولايات المتحدة وثلاثة آلاف في رومانيا حيث يعتمد الفلاحون في غذائهم على الذرة الشامية وكمرض البري بري المتفشي في البلاد التي يعتمد سكانها على الارز في غذائهم

ويرجع سوء التغذية الى سببين اساسيين (١) الفقر (٢) الجهل . فالفقر هو بلا شك السبب الاول والاهم وعلاجه كما قلنا رفع مستوى المعيشة برفع اجرة العامل . اما الجهل فلهُ شأن خطير هامٌّ في سوء التغذية فالجهل الافراد باختيارهم ما يصلح منها وعلى الحكومة ان تعمل على ازالته بالارشاد والدعاية بكافة الطرق كالتعليم الالزامي والتصاقع بالراديو وبشرطة الجيال (السينما)

ومن الوسائل الفعالة التي تتخذها الحكومات لمكافحة سوء التغذية في الطبقات الفقيرة

١ — تنظيم الاسعار بحيث يكون بين ثمن الجملة والقطاعي فرق يسير جدًّا

٢ — ضمان عدم غش الاغذية

٣ — اعطاء غذاء كامل العناصر مرة في الاسبوع للاطفال في المدارس

٤ — اعطاء وجبات مجانية لأولاد المدارس ليستعيدوا بها ما ينقص أجسامهم من اجزاء التغذية الناقصة بمنزلهم

وقد أنشأت الحكومة الفرنسية سنة ١٩٣٦ باشارة المسيو بول بونكور لجنة لدراسة تغذية الشعب فرنسا فوضعت برنامجاً قسمتهُ الى ثلاثة أقسام هي

١ — تقدير ما يحتاج اليه الشعب الفرنسي من المواد الغذائية (وقد قامت الحكومة الفرنسية بحصر دقيق لمقاديرها)

٢ — معرفة ما ينال الشخص الواحد رجلاً كان او امرأة أو طفلاً ممن يعيشون سويًّا أي في مجاميع من الأغذية

٣ — معرفة نوع التغذية التي تتناولها بعض العائلات في الريف وفي المدن طول مدة الفصول الأربعة ومرة كل اسبوع ، وهذه العائلات تنتخب بحسب مركزها الاجتماعي ووظيفة عميدها

وقد وزعت هذه اللجنة اعمالها على اربع لجان فرعية هي

١ : اللجنة العلمية ٢ : اللجنة الاقتصادية ٣ : لجنة الدعاية والارشاد ٤ : لجنة المراقبة (الكونترول)

وقد سارعت بولونيا وهي قطر زراعي الى مثل هذه الدراسات وقدرت ما يستهلكه الفرد الواحد منها بالكيلوجرامات في العام من الدقيق والخبز والبسلة والارز والبطاطس والخضر والفاكهة والعسل واللحم والدهن والطيور واللبن والزبد والجبن والقشدة والبيض والسمك والسكر والملح والبن والشاي والحلويات

هذا بعض ما تمَّ في البلاد الاجنبية وها قد بدأنا ندرك مكانة التغذية وخطورتها في حياة أمتنا المصرية وقبل أن أبسط مقدار انتاجنا الزراعي وكفايته لتغذية الشعب المصري تغذية كفية أودُّ أن استعرض حالة التغذية الحالية عندنا

ينقسم الشعب المصري كغيره من الشعوب الى ثلاث طبقات. الغنية والمتوسطة والفقيرة اي العاملة فالطبقة الغنية يتوفر لها كافة انواع الغذاء . والمتوسطة يتوفر لها الضروري منه لاحتفاظها بصحتها ولكن أفرادها لا يتناولون اللبن الاَّ في الحلوى كالأرز باللبن او سهلية او اذا كانوا مرضى . اما الفقيرة فهي التي يجب ان تكون محط الدراسة وموضع العناية

وتشمل الطبقة الفقيرة جمهور الفلاحين في الأرياف والصناع والخدم والباعة المتجولين وأمثالهم في المدن وسكان الصحاري وهم فريق مهم من الامة المصرية لهم حق في رقابنا

فالفلاحون وهم سواد الامة المصرية من اتعس مخلوقات الله حالاً وأسوأهم تغذية فهم في جوع مستمر لفقرهم المدقع فترى الكثير منهم لجوعه يقصع جذور النخيل من الارض ويمتص ما هو مخزن فيها من الغذاء

ويقتات الفلاح على العموم بخبز الذرة الشامية في الوجه البحري ومصر الوسطى وبالذرة الرفيعة في الصعيد بعد خلطها بالحلبة وفي بلاد النوبة بالذرة الرفيعة او بخبز الدخن او الشعير او بخبز مصنوع من دقيق الدخن والكشرمحيح واللوبيا السودانية مع قليل من الباسلة المسحوقة ويفضل الفلاح جميع اصناف هذا الخبز على خبز القمح . ويقول في ذلك ان القمح لا يمكث في المعدة طويلاً فهو يرغب في اكل مادة خافة صعبة الهضم تمكث في معدته اطول مدة ممكنة حتى لا يشعر سريعاً بالجوع

ويأتدم الفلاح الذي ليس عنده ماشية بالمخللات من البطيخ الصغير والبصل واللفت والخيار الكبير الحجم والفلفل والباذنجان والليمون وما الى ذلك

ويأتدم كذلك بما يجمعه من الحقول من النباتات الحمقاء الشيطانية التي تنمو من تلقاء نفسها كالسريس والحضيض والخبيزة والكبر والحيض والسلق والبسلة الشيطانية والملوخية والرجلة ونبات عنب الديب . أو يشتري الباذنجان أو فرع الكوسة أو الباذنجان عندما يكبر حجمها كثيراً ويرخص ثمنها فيطبخها مع البصل المقلي في الزيت من غير لحم مرتين في الاسبوع على الاكثر. ويعد فلاحو

الصعيد الى طهي العدس واوراق الكشرمجيج وهو ضرب من البلاب

اما الفلاح الذي يقتني الماشية فانهُ يبيع سمنها ويأكل جزءاً من اللبن الرايب وما يبقى منهُ يصنعهُ جبناً قريشاً فيبيع جزءاً منهُ ويخزن الباقي ليكون جبناً قديماً يبيع منهُ جزءاً بالبلاص ويتغذى بالباقي

والفلاح العادي اي عامل الحقل لا يأكل اللحم الاَّ في المواسم والاعياد وهي العيد الاضحى ويوم عاشورا ، ومولد النبي وليلة نصف شعبان و٢٧ رجب وبعض ايام قليلة جدًّا في رمضان إذ من عادته في رمضان ان يأكل في السحور العسل الاسود واللبن الرايب وهو في العادة لا يأكل سوى اللحم الجلي أو اخشن العجالي وما يستهلكهُ الفرد منهُ حوالي ربع رطل على الاكثر في كل موسم . واذا تصادف ومرضت احدى مواشي القرية بمرض افقدها عن العمل وجعل شفاءها مستحيلاً فانهم يبادرون الى ذبحها وهي في آخر رمق من حياتها ويوزعون لحمها بالكوم بأبخس الأثمان على جمهور القرية فيقبلون عليها بروح تعاونية مساعدة لصاحبها وبذا يمكننا أن نقدر ما يستهلكهُ الفرد الواحد من جمهور الفلاحين في العام بنحو ثلاثة أرطال الى خمسة على الاكثر من اللحم معظمهُ مريض نحيل وقد يكون فاسداً

***

والعادة ان مقدار استهلاك اللحوم يتشى مع الحالة المالية للفرد والمجموع — لذلك نرى الذبح في الارياف اكثر في الشتاء منهُ في الصيف ليسر الفلاح في اتنائه وعقب موسم القطن

ويعمد الفلاحون في مناطق الارز الى اصطياد السمك الصغير من قنوات الارز وحقوله قبل نضجه ويقتاتون بلحمه وكذلك يصطادون الطيور البرية يأكلونها مع الأرز

وفي الصعيد عند ارتفاع النيل وملء الحياض تكثر البمارية وهي ضرب من السمك الصغير فيجمعونها ليقتاتوا بها مقلوَّة في الزيت أو مسلوقة أو مشوية أو يحفظونها بشكل ملوحة — ومنهم من يصطاد فيران الحقل والقطط البرية ويقتاتون بها بعد شيّها

والفلاح العادي لا يأكل البيض الاَّ اذا جاءه ضيف وهذا نادر — والبيض عنده عملة يشتري بها البزول والملح والكبريت

أما من حيث الفاكهة فيأكل منها البلح وخاصة الرامخ منه والجوافة الثالثة الرخيصة والطيخ الرخيص الأقرع والخرش والقثاء والعجور والجميز والتين إذا وجد والبرتقال واليوسفي الرخيص جدًّا

وأما الطبقة الفقيرة في المدن فغذاؤها في الصباح الفول أو العدس المدمس بالزيت أو العسل الأسود المفس بالخبز او الفطير المفتوح بالزيت مع الكشر الناعم أو العسل الاسود والطعمية أو

الكشري . وفي الظهر يأكلون الضعية والباذنجان المقلو بالزيت مع سلطة القوطة وسلطة الطحينة المصنوعة من كسب السمسم والثوم والكزبرة والبصل والملح والعدس والبصارة والحلبة مع الفول الاخضر او البطيخ والخيار صيفاً مع خبز القمح او القمح مخلوطاً بالذرة وفي العشاء يأكلون الفول المقلو بالزيت مع القوطة أو السلق وكذلك الفول النابت والسمك المقلو بالزيت والأرز المسلوق بالدهن مع الطرشي أي المخللات المختلفة وربما أكلوا اللحم إذا تيسر لهم مرة في الاسبوع مطبوخاً بالخضر كالملوخية والقرع والباذنجان والبامية والفول الاخضر والسباغ والرجلة والحميزة والكرنب والطماطم وغير ذلك مما هو متوفر في مصر

أما من حيث الفاكهة فهم أحسن حالاً من الفلاح

أما اللبن فلا يدخل بطونهم إلا في حالة المرض فقط

***

وسكان الصحراء إما بدو متنقلون وراء المرعى كسكان الصحراء الغربية والصحراء الشرقية من العرب السامين والحاميين كالبجاه من العابدة والبشاريين او قابعون كسكان الواحات الداخلية والخارجية والبحرية وسيوه والفرافرة وسكان وادي فاران وغيره من أودية جنوب سينا العامرة بالحدائق والبساتين وسكان وادي الجديرات ومنطقة الساحل بشمال سينا وأغلب هؤلاء يعتمدون على التمر في غذائهم — ويعتمد سكان الواحات عدا سيوة والفرافرة على الأرز إذ يزرعونهُ بكثرة فيأكلهُ فقراؤهم مسلوقاً في الماء فقط ومعهُ فلفل أو ليمون مخلل وبعضهم يطبخ العدس بالملوخية ويسمونهُ بصارة ويأكل أهل البحرية البقلية (ويطلقونها البقلة) وهي أرز مطبوخ مع العدس المقشور وهي ما تسميها مصر بالكشري — أما الأغنياء فيطبخون الارز بمرق اللحم أو مع لحم الطيور وتقلية البصل ويسمونهُ أرزاً أبا زفر — ويأكل سكان الواحات قاطبة وسكان الطور ووادي فاران وشمال سينا دبس البلح وهو عسله الذي يعتصر منهُ بالضغط — وأطعمة سكان الواحات وأودية جنوب سينا أحسن حالاً وأكثر تنوعاً إذ يكثر عندهم الخضر كالطماطم والشمام والبطيخ والخيار والملوخية والبامية والقرع والرجلة والحميزة والسباغ والسلق والشمر والمقدونس (البقدونس) والكرفس والشبت واللوبيا والحمص وكلها لا كلهم الخصوصي والفاكهة التين والعنب والكمثرى واللوز والزيتون والمشمش والتفاح والنخل والتوت والنبق

أما عرب الساحل الشمالي للصحراء الغربية فيأكلون التمر كما هو يجلبونه في غرارات من من واحة سيوة او يصنعون منهُ ما يسمونهُ سنة محلية أي محلاة وذلك بطبخه في الماء الى ان يكتف قوامه ويضيفون اليه السمن ثم يخزنونه في قرب من الجلد

ومن اطعمتهم المخروطة ويسمونها عيشاً منطعاً وهي تشبه الرشته عندنا أي رقاق من العجين يقطع شرائح رقيقة تنضج في ماء يغلي ومعها قليل من السمن أو شحم الضأن أو الزيت مع قليل من فلفل والفلفل . ومنها العصيدة من دقيق الشعير ويأكلونها مع الطماطم أو الفلفل واللحم

ومنها الكسكاس المجهز بالطماطم والقرع ومنها المفروكة ويأكلونها في الربيع وقت كثرة اللبن أو يخبزون على لوح من الصاج رقاقاً رفيعاً بدون خميرة يسمونهُ المجردق أو يخبزون القراصة وهي عجينة تخبز فوق الرمل أو الزلط المحمي

ومن أطعمتهم الزقزوق وهو لبن متجمد فيذيبونهُ في الماء ويسمى اذن الشيشة ويأكلونها مع البلح والخبز وهم يجففون اللحم ويسمونهُ القديد ويطبخونهُ مع البصل ويضعون منهُ الزبد

ويلوّن عرب الصحراء الغربية طعامهم وخاصة الارز المسلوق والعدس بالبذار كما تستعمل نحن الطماطم. والبذار مخلوط من الكركم والكزبرة والكمون والشطيطة والفلفل الاسود وكثيراً ما يلجأون في سني المحل الى أكل الكلاب والقطط والثعالب والذئاب

اما سكان الصحراء من العابدة فقسمان عابدة ساحليون وعابدة جبليون . فالساحليون صيادو سمك يتغذون بالسمك المجفف بالملح وبما يجلبونهُ من وادي النيل من الذرة الرفيعة والجبليون يرعون الأغنام والماعز والابل وهؤلاء لا يختلفون في غذائهم عن اقربائهم البشاريين لخبزهم من الذرة العويجة أو الفتريتة وأحياناً يمضغون حب الذرة جافاً كما هو ويخبز العابدة نوعاً من الخبز من الذرة الرفيعة يسمونهُ السنان او الدوكة

ويفطر العابدة بالشاي واللبن مع الخبز بعد صلاة الصبح وإذا لم يوجد اللبن يضعون السمن مع الشاي والسكر

اما البشاريون فيفطرون بلبن النياق وبالتمر المجلوب من السودان او بلاد النوبة ويشربون الشاي او القهوة المصنوعة في الجبنة من اللبن والفلفل الاسود بمقدار الثلثين والثلث . ولا يتناول العابدة والبشاريون عادة طعاماً في الغداء — اما في العشاء فيأكلون القراصة (وهي الخبز) مع اللبن دائماً في الشتاء. اما في الصيف فيأكلون العصيدة مع حب الذرة ويطبخها المقتدر منهم وخاصة العابدة مع العدس او الارز او الملوخية الناشفة او الباميه الناشفة مع الشطة او الفلفل وفي الموسم يأكلون الفول المدشوش بعد طبخه بزيت الحس او زيت بذرة القطن والأرز المسلوق باللحم او اللبن او السمن يصنعونه من لبن النعاج او الماعز ويشربون اللبن الحامض المتخلف بعد استخراج الزبد . والعادة انهم لا يأكلون اللحم الاّ نادراً وذلك في الافراح والمواسم عند ما يتجمعون عند قبور اوليائهم فيذبحون الغنم ويطهون لحمها شيًّا بطريقة السلات وهي حفرة يملأونها بالحشب وفوقه زلط كبير يشوون اللحم فوقه عند ما يصبح كالجمر ويأكلون ما يصطادونهُ

من الغزلان والماعز الجبلي البدن — ومن عادتهم انهم يأكلون الاسماك نيئة بعد أن يعصروا عليها مرارة الذبيحة ولا يأكل البشاريون الطيور والسحالي ولا السمك الذي يعتبرونه مكس عابدة الساحل رمة جيفاء ويحتقرون من يأكله

وبدو الصحراء الشرقية الشمالية وأواسط سينا في درجة من الفقر والاعدام لا تتصوَّر فقد رأيت بعيني رأسي نساءهم في وادي الكتلة يفركون بعر الجمال ويلتقطن منها ما لم يهضم من حب الذرة الرفيعة ثم يجففنها ويسحقنها ويصنعن منها خبزاً او عصيدة .أما البعر نفسه فيدخنه رجالهم في الشبك بدل الدخان .وقد كان بوادي الكتلة بأواسط سينا ست عائلات انقرضت كلها في مدى سنتين من الجوع عدا عائلة واحدة

ويصنع البجاة من العابدة والبشاريين وكذلك عرب الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سينا خبزاً من بذور نباتات برية يجمعونها في الصحراء وهي نباتات السمح Moscharia pubescens Forskaeli ونباتات الحداق Aizoon Canariense كما يصنع عرب أولاد علي بالساحل الشمالي للصحراء الغربية الخبز من حبوب نبات جبلي يسمونهُ البشنين وهو الكوراكان Eleusine Coracana

***

الآن وقد استعرضنا ما تتناوله الطبقات المختلفة من الاطعمة في بلادنا وجب علينا ان نعرف قيمتها الغذائية وهذه الأغذية على اختلافها تقع في قسمين عظيمين.

(أ) أغذية من أصل نباتي

١ — حبوب نخيلية (غلال) ٢ — حبوب بقولية ٣ — خضر (طازجة أو مسلوقة أو مخللة) ٤ — فواكه (طازجة أو مطبوخة أو محفوظة أو مجففة) ٥ — زيوت نباتية ٦ — الفل

(ب) — أغذية من أصل حيواني

١ — لحوم الحيوانات الثديية ٢ — لحوم الطيور ٣ — الاسماك الطازجة والمجففة (كالبكلاه) والمملحة كالفسيخ والملوحة والصوبغة والزنجة والمحفوظة في العلب كالسردين والتونة ٤ — الحيوانات القشرية كالجنبري واللانجوست ٥ — المحار كأم الخلول ٦ — اللبن والزبدة والقشدة والسمن والجبن بأنواعه واللبن الزبادي والحامض والشرش والمرسوب ٧ — البيض

وهذه الأغذية تحتوي على أملاح معدنية هامة من الوجهة الحيوية وهذه الاملاح أما قلوية أي ذات فعل قلوي كأملاح البوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والمغنسيوم والمنجنيز والحديد والألومنيوم أو أملاح حمضية لها فعل حمضي كاملاح الفسفور والكبريت والملسيوم والكلورين

[تجد تتمة الجانب الاول من هذا البحث النفيس في آخر باب الاخبار العلمية]

قيد الماضي

لعبد الرحمن شكري

أخذنا عن الماضي قليلاً من النهى ... وأكثر ما نلنا الهواجسُ في النفس

فمِنّ غامض لا يُدرِكُ الفهمُ فهمَهُ ... ومن واضح كالخط في صفحة الطِرس

فمن قَسْوَرِيّ خوف من الموت والأذى ... ومن ضفدعٍ مهموم من الفكر والحَدْس (١)

ومن جعدريّ حقد يَرَى العيشَ كلَّهُ ... ظلامَة مغلوبٍ على الغد والأمس

ومن كيدلامٍ أشرَبَ العيشَ قَلْبَهُ ... لذاذةَ ضعفِ الشر في الجهر والخلس

لَنِلْنَا وما زال الذي كان كائناً ... يدافع عنهُ المرء بالسيف والقَلْس

يدافع عنهُ المرء بالحق والهوى ... ويسعى له الأضداد ندباً الى نكس (٢)

ويغرى به حتى الذين شقاؤهم ... بان يخذل الاصلاحَ ضِغنُ ذوي النحس

حقود قلوبٍ لا يُداوى فسادُها ... فتدعو ذوي الآمال فيهم الى اليأس

***

يريدون منع الحرب والحرب سُنّةٌ ... الى ان تُفيقَ النفسُ من إِرَة النفس

فهل يدركون الطُهْرَ من قبل غمرة ... وطِينَتُهُمْ معجونة الدم بالرجس

ويا ويلهم شبت عن الطوق حَرْبُهُمْ ... وأُزرت بفعل السهم والرمح والترس

وظلوا حيارى خشيةً من دمارها ... وكلٌّ يرجّي نفعَ احداثها الخُنْس (٣)

---

(١) الحدس : الظن او الفراسة (٢) الندب : التهم الذي يندب للامور و النكس : المرذول الذي لا خير فيه والهوى هنا الميل الى الباطل (٣) الخنس : الشديدة

وكلٌّ يعاف العدل الاَّ لنفسه ... سجية لؤم هل تزول من الخلق ؟
وتأبى سجايا الشر طهرةَ عادلٍ ... تغيّرُ فيهم ما تتمّ العيش بالعُرْس
سواه لسري طبع فردٍ وامةٍ ... همُ الإنسُ ما أبدوا سوى نجس الغرس
وكيف تزول الحرب والسلم بينهم ... كحرب طفت بالقهر والمكر والخلس
وكم قدّسوا قُدْساً لتطهر أنفس ... فأزرى بجوّارُ النفس بالدين والقدس
خسيرة عيش شرهم وحقودهم ... فكيف يرادُ العيشُ للأمن والأُنس
بنه العالي كان بالشرّ قائماً ... وما طربوا إلاَّ الى نغم النحس
وما شربوا من لذة العيش شربةً ... صفا ماؤها من كدرة الهم في كأس

***

غفلنا وقام الهامدون وقولنا ... نجوم السما زُهْرٌ على قبة الرمس
فان كان خَلْقُ الناس للعجز والأسى ... ولم يستطيعوا البرء من خَبَطِ النفس[٤]
وأعجزَ أوصافَ الأطباء داؤهم ... ولم يَشْفِهم من شرهم عمل النَّطس[٥]
وإن قبسوا من شعلة القدس قبسةً ... فما صانها العادي ولا فاز بالقبس
فان ارتهانَ المرء في سجن شره ... إذا جدّت الاحداث شرٌّ من الحبس
وإن انغماسَ المرء في لجّ أمه ... كما يغرق الغوّاصُ من تهكة القمس[٦]
وإن رسيف النفس في قيد شرها ... كما يخلد المحموم في خطأ الحبس
يقولون ان الحق في الناس قوةٌ ... وأقوى من الحق الجهالةُ في النفس

---

(٤) المس : الجنون (٥) النطس : بفتح فسكون العالم الجرب مثل النطيس .
(٦) القمس : الغوص في الماء .

باحث يقضي في كهف عميق لكي يعرف

كيف نستيقظ

وكيف ننام

الصلة بين الضلات والحرارة والنوم

عرفنا ان مركز النوم واليقظة في الدماغ ، وانه ذلك الجزء منهُ المعروف باسم « الهيوتالاموس »[1] ولكننا لم نعرف كيف يسيطر على حالي اليقظة والنوم . هذا الموضوع كان مذاراً لتجارب قام بها الباحثة Kleitman وقعدته فيها دراسة طبائع اليقظة والنوم في الكلاب والنساء والرجال ، حتى وفي الاطفال . ففي بعض تجاربهِ مثلاً كان يبقي طائفة من الرجال يقظين ثلاثة ايام او اربعة ايام متوالية لكي يتتبع سلوكهم في اثناء اليقظة المفروضة عليهم بالقوة . ثم انهُ لم يستثن نفسه من هذا البحث فاستأجر حراساً لمراقبته — شأنهُ في ذلك شأن بقية الرجال — حتى لا يغفو وذلك لكي يدرس تأثير اليقظة الطويلة في نفسه . وقد بقي يقظاً في احدى هذه التجارب مدى مائة وخمس عشرة ساعة متوالية اي اقل قليلاً من خمسة ايام

وقد خرج الدكتور كليمان من بحثهِ هذا بأنهُ في وسع الرجل البقاء يقظين اذا كانوا يفعلون شيئاً يقتضي منهم نشاطاً عضليًّا . فاذا انقطع الفعل العضلي بالجلوس مثلاً استولى النوم عليهم حالاً . فالتحدث مع رجل لا يكفي لابقائهِ يقظاً ولكنهُ اذا كان هو المتكلم كفى ذلك لصد النعاس عنهُ . اما الغناء والمشي فأفعل من الحديث . وفي احدى هذه التجارب تبين انهُ عندما بلغ الرجل اليوم الثالث من اليقظة زادت متاعبهُ . فكان يقول لحارسهِ مثلاً « سأمشي قليلاً في الهواء لاستنشق الهواء » فيوافقهُ الحارس على ذلك ثم يتبعهُ بعد هنيهة فيجده جالساً في كرسي وهو يغط ويهوّم فيوقظهُ ويقول لهُ « لم اكن نائماً وانما كنت اريح عيني فقط » . وبازدياد مدة اليقظة المفتعلة ازداد توتر اعصابهِ — وليس في ذلك عجب — واشتدت حاجتهُ الى النوم

---

(١) راجع مقال «النوم والارق» في صدر مقتطف فبراير ١٩٣٩.

ولكن حاجتهُ الى النوم لم تزدد ازدياداً مضطرداً ، بل كانت تزداد وتنقص كأنها تسير في خطٍّ مطرد التعاريج ، ففي بعد ظهر اليوم الثالث كان اشد نعاساً منهُ في بعد ظهر اليوم الثاني — وهذا طبيعي — ولكنهُ كان اقل نعاساً منهُ في مساء اليوم الثاني . وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم الثاني كان في اشدّ الحاجة الى التحدُّث والتمشي لكي يصد النعاس عن عينيه حالة انهُ في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثالث لم يكن في حاجة ماسة الى ذلك . فالنعاس فيه كان متقلباً حالة ان الحاجة الى النوم كانت في ازدياد مستمرّ . الاَّ انها كانت تتفاوت بين الليل والنهار فهي على اشدّها في الأول وعلى اضعفها في الثاني

***

ومن محاسن الاتفاق ان حرارة الجسم متقلبة كذلك ، في حدود ضيقة . فعندما يقول الطب ان حرارة الجسم السوية ٩٨ درجة بميزان فارنهيت فهو يعني ان متوسط حرارة الجسم هو ٩٨°. ولكن اذا قيست حرارة الجسم في فترات قصيرة ظهر تقلبها بسيرها في الانسان الواحد ، وقد يبلغ هذا الفرق بين اعلاها وأوطاها درجتين ونصف درجة بميزان فارنهيت ، وقد يكون اقلّ من ذلك

وكانت حرارة الرجال في تجاوب كليّهما تقاس مرة كلّ ساعتين . وكان الغرض من قياسها تتبع التغيُّر الحادث في الجسم بسبب اليقظة المفروضة عليه . وما لبث الباحثون حتى تبيَّنوا ان التقلب في الحرارة موافق ومتسق مع التقلب في شدة الحاجة الى النوم . فالحاجة الى النوم كانت على اشدّها عند ما كانت حرارة الجسم على اوطاها ، وعلى الضدّ من ذلك كانت الحاجة الى النوم على اقلها عندما كانت حرارة الجسم الطبيعية على اعلاها

واراد كليتمن ان يستكشف تأثير اليقظة الطويلة المفروضة على الجسم بالقوة ، في قدرة الرجال على القيام باعمال مختلفة . فعهد اليهم في اوقات متفاوتة ، بالقيام باعمال شتى منها العضلي ومنها العقلي ومنها ما يحتاج الى ثبات اليد والسيطرة سيطرة تامة على حركتها . فوجد هنا كما وجد قبلاً ان القدرة بوجهٍ عام تنقص بازدياد الحاجة الى النوم ولكن النقص متقلب تقلباً دوريًّا وفقاً لتقلب الحرارة

فسأل الباحث نفسهُ هل في الوسع ان نحدث تغييراً في دورة اليقظة والنوم . ولم يشأ ان يجيب عن هذا السؤال إجابة عقلية ، فاستنبط سلسلة من التجارب سعياً وراء الحقيقة . فجاء بأسرَّة الى حجرات المختبرات وطلب الى الرجال ان يناموا عند منتصف الليل وان يستيقظوا في ساعات يقظتهم المألوفة . وان يمضوا في ذلك مدى شهر كامل . إلاَّ انهُ طلب منهم ان يؤخروا وقت نومهم اربع ساعات كلَّ يوم . فاذا ناموا في منتصف الليل في اليوم الاول فيجب ان يناموا في

الساعة الرابعة صباحاً في اليوم الثاني وفي الساعة الثامنة صباحاً في اليوم الثالث وان يمضوا على ذلك الى آخر الاسبوع . ثم يبدأ اسبوع جديد ويبتدىء اليوم فيه عند منتصف الليل

تقدم ستة رجال لهذه التجربة . فعجز خمسة عن ان يلائموا بين حاجتهم الجبلية وهذا اليوم المستطيل الذي يزداد اربع ساعات كل يوم . ولكن السادس تمكن من ذلك فكانت حرارته تتغير وفقاً لمقتضى الحال ، فينام عند الظهر بنفس السهولة التي ينام بها عند منتصف الليل . اما الخمسة الباقون فظلت دورة حرارتهم على ما هي بغير تحوّل او ملاءمة لساعات النوم المتبدلة . فكان الناس يرين على عيونهم في الليل عند ما كانت حرارة اجسامهم على اوطاها وكان يصعب عليهم الاستسلام لهُ في النهار عند ما كانت حرارة اجسامهم عالية

***

بذل القائمون بهذا البحث كلَّ جهد ليحجبوا عن حجر المختبر العوامل الطبيعية المنقلبة من نور وحرارة وضجيج فعجزوا عن تحقيق ذلك كاملاً ولذلك قرَّر كليمان هسهُ وروس رتشردسن في ربيع سنة ١٩٣٨ ان ينقلا المختبر من مدينة شيكاغو الى كهف عميق في ولاية كنتكي فاستأذنا حكومة الولاية في ان يمكثا في الكهف المدَّة التي تقتضيها التجربة ، واختارا لمكثهما غرفةً واسعة من غرفها عمقها ١٢٨ قدماً تحت سطح الارض واثاثها ما يلزم من اسرَّة وكراسٍ وخوان واتفقا مع حارسٍ يسكن مضرباً خارج الكهف ان يأتيهما بالطعام وفقاً لجدول معيَّن وضعاهُ على اساس الدورة الاسبوعية التي تقدم ذكرها

والكهف منظم دائماً ساكن بارد حرارتهُ ٥٤ درجة بميزان فارنهيت (١٤ درجة مئوية) لا تتغير نهاراً ولا ليلاً فجوّه بارد يقتضي اللباس الدافىء في النهار والتدثُّر الدافىء في الليل

فاذا حدث لكليمان ورتشردسن ؟

ما لبث رتشردسن حتى لاءم بين حاجته الجسمية ونظام معيشته الجديدة في سكون الكهف وظلامه . فكان ينام وفقاً للجدول وكان نومهُ ملء عينيه . اما كليمان فوجد ان انظام نومه لا يمكن ان يتلاءم ونظام الجدول المفروض المقرر عليه

وهذه التجربة تدلُّ على ان نظام دورة النوم اليومية أرسخ في أجسام بعض الناس منهُ في أجسام البعض الآخر . ونحن نعلم ان هذه الدورة ليست خاصة موروثة . فالوليد ينام عشرين ساعة او أكثر ، كل يوم . وكذلك جراء الهررة الكلاب وغيرها من الحيوانات . ويستيقظ الوليد ليرضع او استجابةً لحاجة أخرى من حاجات الجسم . فاذا أشبع حاجتهُ الى الغذاء ، او حاجتهُ الى التبول مثلاً عاد الى النوم . وليس في ساعات نومه ويقظته دورة

منتظمة كأن يكون النوم ليلاً واليقظة نهاراً. وذلك عمد كليمان الى البحث في طبائع النوم واليقظة في الاطفال . فوجد ان دورة الحرارة لا أثر لها في المولود . ولكنها ترسخ رويداً رويداً في الجسم ، الى ان تتركز فيه في السنة الثانية على الغالب ، وهي السنة التي يبدأ فيها الطفل بالمشي

ولكن رسوخ دورة الحرارة في الجسم ، لا يعني ثبوتها الدائم . فقد يصاب أحد الاطفال باصابة في قشرة الدماغ، إما من رجة وإما من خراج وإما بتأثير التهاب الدماغ السحائي فينام معظم الوقت ، وتلتوي دورة الحرارة من حياته. وهناك أطفال ولدوا وفي أدمغتهم تشويه خلقي ، فثبت ان أجسامهم لم تكتسب نظام الدورة اليومية . وقد لاحظ باحث ألماني يدعى جولتز من عهد قريب انهُ اذا أزيلت قشرة الدماغ من دماغ الكلاب أصبحت تدمن النوم . فأعاد كليمن هذه التجربة بأربعة كلاب فوجد ان طبائعها من حيث النوم جعلتها كأنها جراء

واذاً فالدورة اليومية للنوم واليقظة مكتسبة . تُطل على الحياة والنوم راجح رجحاناً كثيراً في حياتنا خلال الشهور الاولى . ثم تبدأ نزات اليقظة تطول رويداً رويداً حتى تصبح اليقظة وهي الغالبة ، ويحصر النوم في ساعات الظلام

***

والعامل الاول في هذا التحوُّل هو قشرة الدماغ . فالقشرة في دماغ طفل الوليد رقيقة غير نامية ولذلك يمكن أن يحسب دماغهُ بغير قشرة كدماغ الكلب الذي نزعت قشرتهُ . وتتوالى الرسائل الحسيّة على دماغ الوليد فتسجل فيه وتدعى القشرة الى تنسيقها فتنمو بالاستعمال ثم يبدأ الدماغ يدرك رويداً رويداً ان بعض اعمال الجسم يقتضي اليقظة فيتعبي النوم عنهُ رويداً رويداً الى ان تستقر للجسم دورة النوم بين الليل والنهار

وعند الدكتور كليمن ان النشاط العضلي من اهم العوامل تأثيراً في صدّ النوم عن الجسم فالرجال الذين اجرى عليهم تجاربهُ كانوا اذا قضوا يومين او ثلاثة ايام بغير نوم استولى عليهم ميل شديد الى القعود . فاذا قعدوا ناموا. وكانت طريقة حرّاسهم في ابقائهم يقظين ، محادثتهم وحملهم على المشي والغناء — وجميع هذه الاعمال تقتضي نشاطاً عضليًّا . ويزعم كليمن انا اذا صرفنا النظر عن العقاقير المنبهة فليس في وسع أحد ان يبقي رجلاً في حال اليقظة بغير ان يحملهُ على انفاق نشاط عضلي . وليس النشاط العضلي مقتصراً على النشاط العضلي الارادي بل يشمل كذلك عضلات اخرى غير خاضعة للارادة

ان الرسائل العصبية من العضلات هي آخر ما ينقطع عن التوارد على الدماغ. فاذا اقبل آخر النهار تنخفض حرارة الجسم ، وتتراخى الاعضاء ، ويأخذ منهُ الاعياء كلَّ مأخذ . الدماغ متعب

والعضلات مشبعة ، والحرارة منخفضة ، وهذه العوامل مجتمعة تفضي الى الاسترخاء . فاذا واجه الجسم حالة طارئة استطاع ان يجشد قوته ويتغلب على تراخيه . ولكن في ما عدا ذلك فالنشاط متعذر . الكتاب قلما يستوي في يديك . والقلم يسقط من بين اصابعك . بانخفاض درجة الحرارة تقل الرسائل العصبية الواردة على الدماغ من اعضاء الحس ثم من العضلات وعقب ذلك يقع انفصال بين قشرة الدماغ وسائر الجهاز العصبي ومنه مركز النوم والبقعة المعروف باسم « هيبوتالاموس » . هذه هي الطريقة التي يستولي بها النوم علينا — في رأي كلبتسن

***

وعلى ذكر العلاقة بين العضلات والنوم نقول ان باحثاً يُدعى جاكوبسون انشأ مختبراً في شيكاغو لبحث هذا الموضوع . ويؤخذ من مباحثه ان العضلات العاملة تولد كهربائية وان قوة التيار مقياس لتوتر ألياف العضلة . وقد اتخذ جاكوبسون هذه الحقيقة اساساً لجهاز دقيق الاحساس صنع لهُ في مختبرات شركة بل التلفونية

يستلقي رجل مثلاً على فراش ويوضع قطبان كهربائيان مصنوعان من احد اخلاط البلاتين على جانبي عضلة من عضلات الذراع او الوجه او اية عضلة اخرى . ويوصل القطبان بالسلك الى الجهاز الحساس ، فيقاس فيه مقدار التيار المتولد في العضلة ، وبذلك يعرف مقدار التوتر في الياف . فاذا استرخت العضلة ضعف التيار حتى اذا انقطع قيل ان العضلة في حالة استرخاء تام او راحة تامة . وكثيراً ما حدث عندما بلغت العضلة هذه الحالة ، ان ران النوم على صاحبها

حتى عند ما يكون الفكر مشغولاً بموضوع ما ، تتوتر الالياف في طائفة من العضلات . وجاكوبسون يفسّر ذلك في كتابه «في وسعك ان تنام نوماً هادئاً» . فقد ثبت في مختبره انهُ اذا فكر الرجل في عمل من الاعمال التي تقتضي تحريك العضلات ، ولّد ذلك تياراً كهربائيًّا في الوسع قياسهُ . فاتخذ ذلك دليلاً على ان التفكير أثر في العضلات تأثيراً غير واعٍ . واثبت بالبحث الدقيق انهُ اذا قال الانسان لنفسه قولاً ما فعضلات الشفتين واللسان والحلق تتحرك كأنها تستعدُّ لقول ذلك القول . وما يصحُّ على الشفتين واللسان والحلق يصحُّ على العينين مثلاً . ولذلك يشير على من يستعصي عليه النوم ان يهيج عقلوبان يدرّب نفسه على استرخاء جميع العضلات الخارجية في الجسم . قال : دع عضلات العينين والشفتين تسترخي تماماً ولو لمدة قصيرة ، وعندئذٍ تنام . وستبقى نائماً نوماً هانئاً ما زالت العضلات غير متوترة . ومن هنا نستطيع ان نفهم تأثير الحمامات الفاترة في إحداث النوم ، فانها تفضي الى استرخاء العضلات الخارجية

تحديد النسل

ومشكلة السكان

الدكتور شريف عسيران

تستمد فكرة تحديد النسل اصلها من مفكري اليونان الاقدمين فقد ذكر فلوطوخس مؤرخ العظماء الاقدمين ان ليكرغوس مشترع سبارطة قضى بقتل الاطفال الضعاف البنية رغبة منهُ في تنشئة شعب قوي . وادرك افلاطون وارسطو طاليس الخطر الناجم عن كثرة النوالد وخصوصاً ماكان منها في الاسر الضعيفة فاقترحا اساليب متطرفة مختلفة لضبطه[1] ويظهر ان الرجال عند الشعوب البدائية لم يهتموا بتحديد النسل بل كانوا على الضد من ذلك يميلون الى كثرته ولكنهم يفضلون الذكور على الأناث. فالمرأة هي التي ابتدعت تحديد النسل لتخلص من عناء تربية الاولاد وتحتفظ بنضارة صباها وتخفي عار علاقاتها خارج الزواج فراراً من الموت وغير ذلك من الدوافع . فكانت ترفض الرجل في اثناء الرضاع الذي يمتد احياناً الى العشر السنوات . واكثر الشعوب البدائية كانت تقتل الوليد اذا كان مشوهاً او مريضاً او لقيطاً او اذا ماتت امهُ في اثناء الولادة . وكثير من القبائل كانت تقتل الأطفال الذين يولدون في اوقات نحس . وكانت بعض القبائل تحسب ولادة تشين ضرباً من الزنا اذ لا يعقل في عرفها ان يكون نفس الأب والداً لولدين في وقت واحد فلا بد من قتل احدهما وكان الاليوتيزيون (Aliponos) لايحتفظون الا بصبي وبنت ويقضون على بقية النسل وعند ماكانت المجاعات تهدد بعض القبائل كانوا يخنقون المواليد الجدد وبعضهم يأكلهم [2]

وقد وصف كتاب عربي في القرن السادس عشر من العصور الوسطى بعض الطرق الكيمياوية لتحديد النسل . وذكر فالوبيس المشرح الايطالي الشهير بعض الاغلفة المصنوعة من الكتان الدقيق او امعاء الحمل . وظهر اول نص باللغة الانكليزية سنة ١٨٢٣ ونسب الى

---

(١) المقتطف م ٧٦ ص ١٣٢ وراجع ايضاً المقتطف م ٩٢ ص ٣٤

(٢) قصة الحضارة لديورانت The Story or Civilization. By Will Durant p. 49-50 1935

وأعقبه « كتاب كل امرأة » لكارليل Carlyle's Every Woman's Book[1] Francis Place

وكتبت الملكة فكتوريا الى خالها ملك البلجيكيين سنة ١٨٤١ البذة الآتية :

أظن يا خالي العزيز انك لا ترغب لي في ان اكون والدة اسرة كثيرة العدد . وانك تدرك معي سوء حالة الاسرة الكثيرة جداً وبلادنا بنوع خاص بصرف النظر عما اتحمله شخصياً من المشاق . ان الرجال لا يشعرون ابداً او نادراً ما يشعرون مع المرأة او يقدرون المشاق التي تعانيها من تعدد الاولاد[2]

﴿ اصل اللفظة ﴾ المرجح ان اول من استنبط هذه اللفظة Margaret Sanger سنة ١٩١٤ وهي ممرضة اميركية رأت ما يقاسيه النساء من الآلام والتعس في تربية اولادهن وادركت الخطر الناجم عن كثرة النسل فأخذت تدعو الى مبدأ تحديده وتعمل على نشره خاصة بين الطبقات الفقيرة التي لا تساعدها احوالها الاقتصادية على اعالة اولاد كثيرين وسردت في كتابها « كفاحي في تحديد النسل » قصة امرأة عانت ما عانت من كثرة الاولاد وماتت ضحية الجهل بتعمدها الاسقاط بطرق غير فنية وكانت قضايا كهذه حافزاً لها ومسوغاً لدعايتها لتحديد النسل . وقد اضطهدت وحوكمت في سبيل مبدئها وصودرت مؤلفاتها ولا سيما نشرتها لنساء اسوام التي موضوعها « ثورة المرأة » وسجنت شهراً سنة ١٩١٧ لفتحها مستوصفاً لتحديد النسل . وتجولت في اكثر انحاء اوروبا فانجلترا وفرنسا وايطاليا وروسيا فتبشير بمبدئها ولاقت دعايتها هوى في نفوس الكثيرين وفوراً من غيرهم ولا سيما طبقة الاكليروس الذين قاوموا هذه الفكرة بمختلف الاساليب

﴿ انصار تحديد النسل ﴾ طبعت سنة ١٨٦٧ مطبعة جريدة النكر باميركا طبعة جديدة من كتاب ثمار الفلسفة تأليف الدكتور نولتن Dr. Knowlton من بوسطن الذي الفه سنة ١٨٣٣ وذكر فيه طرق تحديد النسل المعروفة في ذلك الوقت فصادرته الحكومة وحاكمت الناشر والبائع تحمس مصلحان اجتماعيان لهذه الحادثة وهما Annie Besant و Charlies Bradlaugh دفاعاً عن حرية الرأي وتوعدا الشرطة بطبع الكتاب وتوزيعه مجاناً فصادرته السلطة واحالت الناشر الى المحكمة وقد دافع برادلو دفاعاً بليغاً عن هذا الكتاب[3] ومن اشهر انصار هذه الحركة الدكتور جورج درزديل Dr. George Drysdale فقد نشر سنة ١٨٥٤ كتابه « مبادىء علم الاجتماع » وبسط فيه نظرية منع الحمل من الوجهة الاقتصادية والفلسفية وصار فيما بعد رئيساً للعصبة المالتوسية التي بدأت عملها المفيد في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٧ وصارت اني بيزانت كاتمة سرها

---

(١) The Twilight of Parenthood, By Enid, Charles 1934, p. 174 شفق الابوة للدكتورة انيد تشارلس

(٢) The Eugenic Review, April, 1935, p. 16

(٣) تاريخ الاخلاق الحديثة History of Modern Morals, by Max Hodann 1937, p. 180

وبيع في السنة التي حوكم فيها برادلو ١٨٥٠٠٠ نسخة من كتاب « ثمار الفلسفة » و ١٧٥٠٠٠ نسخة من كتاب آني بيزانت « شريعة السكان »

وقد نطق الروائي الشهير ولز بالكلمات التالية في عشاء العيد السنوي سنة ١٩٣٧ :— « تشرهذه المحاكمة تاريخاً في حياة البشر . ونرى الناس لأول مرة يسيطرون على مقدراتهم الاحيائية وقد مضى خمسون سنة على تأسيس عصبتنا التي بدأت أعظم انقلاب في كل تاريخ البشر إذ هذه أول مرة يتخلص النوع الانساني فيها من ضغط السكان أي تنازع البقاء الذي كان متسلطاً منذ وجوده على كياناتنا الاحيائي[1] »

(النظرية الملثوسية) ومن أبطال هذه الحركة الذين يشار اليهم بالبنان ملثوس وقد ترك اكبر أثر يذكر لأنه لم يتسلح بسلاح العاطفة شأن الذين سبقوه بل بنى نظريته على أسس علمية معتبرة في عصره وتعرف هذه النظرية باسمه «النظرية الملثوسية» . وقد ساعده على نشر مبادئه في ذلك الوقت فقر الطبقة العاملة فقد كتب رسالته في أثناء حروب نابليون التي كانت سبباً في فقر الناس المدقع وعاملاً في قبولهم هذا المذهب [2]

وجدير بنا ان نلم قليلا بهذه الشخصية البارزة التي كانت المحرك الأكبر لتحديد النسل. الأب ملثوس واسمه الكامل Robert Thomas Malthus اقتصادي انكليزي من المعروفين في عصره ولد سنة ١٧٦٦ وتوفي سنة ١٨٣٤ وأبوه دانيال ملثوس من أصدقاء روسو الفرنسي الشهير. وقد نشر ملثوس أول رسالة عن مبادىء السكان سنة ١٧٩٨ وأعاد طبعها مراراً وظهرت آخر طبعة وهي السادسة سنة ١٨٢٦ وكانت هذه الرسالة نتيجة مباحثاته مع والده الذي كان موافقاً لرأيه وهو الذي حثه على اخراج فكرته الى حيز العمل. وخلاصة نظريته أنه اذا استمر السكان يزدادون عدداً فتكون زيادتهم بنسبة هندسية دينا وسائط العيش تزداد بنسبة حسابية وان هناك حواجز تحول دون تجاوز السكان هذه النسبة وهي الحروب والمجاعات والأوبئة والفقر وتدهور الآداب. وقد حمل حملة شعواء على القوانين الانكليزية المرعية في ذلك العهد وما تنفقه من المنح لحماية الاسر زاعماً ان زيادة السكان وبال على الامة وقد احدثت رسالته ضجة في مختلف الاوساط وانبرى كثيرون للرد عليه وتفنيد آرائه . وقد اضاف الى مذهبه فيما بعد عاملاً جديداً سماه الرادع الادبي Moral Restraint وعنى بذلك تأخير سن الزواج بغية تحديد النسل [3]

(١) تاريخ الاخلاق الحديثة The History of Modern Morals, p. 183
(٢) نظرية السكان لكار سوندرز Theory of Population, Carr-Saunders, 1931, p. 23
(٣) ملخص عن دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة تحت عنوان Birth-Control

ومن رأي East ان مالثوس لم يبتدع هذه الفكرة بل استمدها من كتابات بنجامين فرانكلين وهيوم وولسن وطونسند (١)

﴿مجددو المالثوسية﴾ وظهرت بعد فئة من العلماء اطلق عليهم « مجددو مالثوسية » امثال درزدبل وزوجه ومنهم هافلوك اليس الشهير وولز وسنري وغيرهم . ومن شهيرات المتحمسات لهذا المذهب والعاملين به في هذا العصر الدكتورة الانكليزية الشهيرة ماري ستوبس ولها مؤلفات كثيرة في هذا الموضوع آخرها حسبما اعلم « تحديد النسل اليوم » طبع سنة ١٩٣٤ وقد انشأت جمعية في انكلترا لهذه الغاية سنة ١٩٢١ وفتحت عيادات استشارية لارشاد الامهات وهو نظام منتشر اليوم في اكثر انحاء اوروبا واميركا ويمارس علناً

﴿ ردُّ نظرية مالثوس ﴾ نظر مالثوس الى العالم نظرة جمود وحسبهُ كياناً لا يتغير ولا يتطور وفاتهُ ان البشر يتطورون في حياتهم العقلية وجميع مظاهرهم الاجتماعية بغذائهم ولباسهم وقوانينهم وتقاليدهم ومقدرتهم في التغلب على المحيط واخضاعه لراحتهم وسعادتهم وأبلغ من رد هذه النظرية بالطرق العلمية الصحيحة الدكتورة بالفسفة إنيد تشارلس الانكليزية Enid Charles في كتابها « غسق الابوة » The Twilight of Parenthood الذي قال عنهُ جوليان هاكسلي الشهير «ان هذا الكتاب من اثبت الكتب عن شؤون السكان منذ افكار صوندرز Carr Saunders كتابه «مشكلة السكان» فعلى كل من يهتم بالقضايا الاجتماعية والسياسية ان يطالعهُ » . وقد اقتطفنا كثيراً من آرائها الناضجة بهذا الصدد لانها مبنية على البحث المجرد عن العاطفة وعلى المنطق الصحيح . وقد وصفت هذه العالمة المقدرة نظرية مالثوس بانها ملاذ فقط لمؤرخ اخطاء البشر

الانسان سيد المخلوقات واكثرها سيطرة على المحيط وقد حبتهُ الطبيعة مواهب لم يتمتع بها غيره فهو الوحيد بين الاحياء الذي يتمكن من استعمال الآلات والاستعانة بها في السيطرة على المحيط الى مايؤمن لحفظهِ وسعادته فتمكن ان يقي نفسهُ قارس البرد ولاهب الحر ببناء البيوت وارتداء الثياب واستخدم لهذه الغايات غيره من انواع المخلوقات النباتية والحيوانية وسخرها لحفظ حياته وراحته فبنى من الاحجار سكناً واتخذ من الخراج وتوداً وصنع من الياف النبات وصوف الحيوانات وجلودها لباساً وجعل انواع النباتات والحيوانات مصدراً لغذائهِ فنشأت العلاقة بين الانسان وغيره من المخلوقات الحية . فالانسان يعيش على النبات والحيوان ويعيش الحيوان على النباتات وغيره من الحيوانات . والنبات يعيش على المواد النيتروجينية غير العضوية التي في الهواء والتراب التي تتحول بفعل البكتيريا الى مواد عضوية وعلى المواد

(١) East, Mankind at the Cross Roads, 1926 p. 46

العضوية المتولدة من تفسخ الحيوانات بفعل (البكتيريا) وتعيش الجراثيم على اشلاء الحيوانات والنباتات فهذه العلاقة المتبادلة في الغذاء والتناسل والتنازع والانتشار وغير ذلك بين الانسان والحيوان والنبات هي ما يعبر عنهُ بالمساكنة [1] Ecology . واول من تنبأ عن هذه العلاقة الروائي الانكليزي الشهير ولز

تحكم الانسان بالحيوانات والنباتات وجعلها تكثر وتقل وفقاً لرغائبه وكان يعول على الخيل والجمال والحمير والبقر في قضاء حاجاته وكانت الخيل من الوسائط الاولية في اخراج قوى الحيلة (الميكانيكية) لحمل الاحمال وجر الاثقال والحرث والري وما اشبه . ولما اكتشف البخار واهتدى الى الكهرباء اخذ يستغني عن الخيل وغيرها فقل عددها اليوم بالقياس الى الأمس وليس من المستبعد ان تصبح اثراً بعد عين في خلال قرن او تنقرض كما انقرض غيرها من الحيوانات . كان الناس يستضيئون منذ قرن بانواع الشحوم والزيوت فاعتاضوا بمصادرها ولكنهم استعاضوا عنها اليوم بالغازات التي يستخرجونها من باطن الارض والكهرباء التي يستخرون لتوليدها القوى الطبيعية كالماء والمعادن الكيماوية . وبالامس كانوا يستخرجون الحرير من دود الحرير فاستعاضوا عنهُ اليوم بالحرير الصناعي وكذلك المطاط والنيلة وغيرها من المواد الصناعية التي استطاعوا استخراجها بالتركيب الكيماوي . وليس من المستبعد كما قال الاستاذ هالدين ان تمكن من استخراج مقادير كبيرة من السكر بتأثير البكتيريا المجزئة للمواد الخيطية في نفايا الخضر . هذه بعض الأمثلة من تسلط الانسان على النبات والحيوان

وقد لخص جون رسل الناحية الغذائية في الخطاب الذي ألقاه أمام المجمع العلمي البريطاني بقوله : نجح العلم الحديث بمزيد قوة سلطة الانسان على الطبيعة حتى كثر الانتاج كثرة تربي عن حاجته فاضطر ان يتلف مقادير من محاصيل الحنطة والبن والقطن لأنها زادت عما يستطيع تصريفه في الاقطار الصناعية . فقد زاد محصول قصب السكر في جاڤا الهولاندية أربعة اضعاف وانخفض ثمن السكر في الهند الغربية وهدد صناعة هذا الصنف في بريطانيا العظمى وأشار اللورد Bledisloe الى بعض المشكلات الزراعية بالعبارة الآتية : —

إن حرق مقادير كبيرة من الحنطة في بعض مراكز هذا الصنف بسبب زيادتها عن الحاجة المطلوبة يحملنا على ان نفكر في تحديد زراعته كي لا يؤول طغيانهُ الى إفلاس الكثيرين من زراعه [2]

وظهر من الأرقام التي نشرها مجلس زراعة انكلترا بشأن الامبراطورية البريطانية وأوربا

(١) لفظة يونانية مركبة من لفظتين أيكس ومعناها البيت ولوجي العلم فيكون معناها الخرئي علم البيت ولم أجد لها مرادفاً عربياً فاخترت لفظة مساكنة للتعبير عنها

(٢) Twilight of Parenthood p. 9

وغيرها من الامصار ومن ضمنها الاوجتين والولايات المتحدة وسيبيريا واليابان والجزائر ان مجموع مساحات الخطة زاد بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩١١ من ٣٠٠ر٩٣٠ر٢٠٠ كر الى ٣٠٠ر٠٠٠ر٤٧ أي زيادة ٢٣ بالمائة . وقال السر هنري رو ان هذه الزيادة تذر للانبياء ا (١)

وتتلخص طرق تحكم الانسان في الاحياء المساكنة له بما يلي : (١) السيطرة على العوامل الطبيعية التي تحدد مقدار الأنواع الصالحة لمعيشته ونوعها (٢) ابادة الأنواع التي تنازعه البقاء بالقضاء عليها مباشرة او بالواسطة (٣) انتخاب الانواع الصالحة له وتحسينها وفقاً لحاجته . فيدخل تحت العامل الأول مختلف المواد الكيماوية التي استنبطها الانسان لخصب الارض واشتعال الحرارة اللازمة لأنواع النباتات والحيوانات . ولا حاجة ان نتوسع في هذه في طرق الري وتحويل انهار فاسحة الى ارض خصبة وحدائق غناء . وقد توصل الى اختيار انواع النباتات والحيوانات . تقاوم الجفاف . وزيادة محصول الخطة في كندا وحدها حمل بعض العلماء على القول الآن : لا خطر على العالم من قلة الطعام لمدة قرن على الاقل اذا استمرت زيادة السكان بالمعدل الحاضر

ومن مستنبطات العلم الحديث خزن العلف الذي تقتات به المواشي كالحشيش الأخضر وما شبه دون ان يبرأ . وقد اكتشف الأستاذ مزو حديثاً ان تلف الحراج ناشيء عن الزنابير التي تضر اشجارها . وتعيش هذه الزنابير على ضرب من العفن (Fungi) يكسو الاشجار ولا ينمو العفن اذا كانت الاشجار في ارض جافة فتجفيف الماء من التراب يقضي على الزنابير ويحفظ الاشجار

(الاسمدة) اما الاسمدة الصناعية فقد تحدثنا عنها ولا حرج فالنيتروجين من العناصر الاساسية في الحيوان والنباتات . وقد زاد معدل مركباته بين سنة ١٩٠٣ ، ١٩٢٨ ثلاثة اضعاف وكان مصدرها الوحيد قبل سنة ١٩٠٣ المعادن التي في جوف الارض . وقد تنبأ بيرل Pearl عن قرب نفاد النيتروجين فلم تمض عشر سنوات على نبوءته حتى تمكن العلم من استخراجه من الهواء (٢) مباشرة ونصف مركباته تستخرج الآن من هذا المعين الذي لا ينضب . وقد تمكن الانسان من تحسين الاعشاب التي تقتات بها المواشي في المراعي والتفت الى ضرورة المواد غير العضوية للنباتات كالحديد والمنغنز والكلس (الجير) والبوتاس وغيرها فعالج فقر التفاح بالحديد مثلاً بشك مسامير الحديد في جذوع الشجر وزاد محصول الليمون باضافة البوتاس اليه . وتستعمل الاسمدة الكيماوية في اصناف الخضر والفواكه والبقول والحبوب فتأتي بالدهشات

(١) Population : Carr-Saunders p. 71
(٢) Twilight of Parenthood . p 137

﴿ الحرارة ﴾ وقد صنعوا سفوفاً من زجاج لزوائف الخازير تخترقها اشعة تحت البنفسجي لمقاومة داء الكساح الذي يصاب هذه الحيوانات وعوضوا نقص اليود في غذائها فزاد بتاجها زيادة كبيرة لانها حساسة جداً لنقص هذا المعدن وصنعوا بيوتاً زجاجية بوقاية تختلف البقول والحضر والعلف وغيرها مما يقتات به الانسان والحيوان . وتمكنوا بواسطة الحرارة الصناعية من انقاص غذاء الخازير ٢٠ بالمائة . وزادوا معدل بيض الطيور بتعريضها للانوار الكهربائية . ويضيق بنا المقام اذا اردنا التوسع بهذه الناحية

﴿ ابادة الحشرات ﴾ لقد تمكن الانسان من القضاء على كثير من انواع الحشرات التي تفتك بالحبوب والخضر والفواكه وغيرها مما يقتات به الانسان فتحسنت زراعتها وزاد تاجها أضعاف الاضعاف. فقدقدروا الاضرار التي تصيب الزراعة من الاعشاب المضرة والرواشن فقط بـ ٢٥ بالمائة من محصولها فاستنبطوا طرقاً متعددة لتلافي تلك الاضرار اهمها اولاً ذر المساحيق الكيمياوية. ثانياً تسليط مضادات الحشرات التي تؤذي الزرع. وثالثاً توليد انواع من النباتات ذات مناعة خاصة ضد الامراض النباتية وامثلة ذلك القضاء على كثير من الحشرات التي تفتك بانواع البرتقال والعنب والتمر والقطن والحنطة وغيرها وقد قدر خسارة الاذرة الصفراء والقطن في الولايات المتحدة سنة ١٩٢١ بخمسمائة مليون دولار . وقد تمكن الدكتور سولمان من استنبات نوع من البطاطس منيع ضد الجراثيم التي تفتك به واستنبت غيره أنواعاً من الناكهة منيعة ضد أمراضها . وتمكنوا من تضريب الحنطة في السويد وتحسينها فزاد حاصلها ثلاثين بالمائة وتمكن سوندرس من توليد نوع حنطة يعطي حاصلاً بمدة ١٠٣ ايام

﴿ الناحية الاحيائية ﴾ لقد اعلن المشتغلون في المختبر الحيواني بجامعة انديانا سنة ١٩٣٤ انهم استطاعوا التحكم في نوع الشق (الجنس) وتمكنوا من زيادة نسبة الاناث بحقن الفسحات الهوائية بأعقاب البيض بمادة التايلين خلاصة البيض . وتمكن الباحث الروسي كولتسوف Koltsov من تفريق النطف المنوية التي تكوّن الانثى في الارانب عن التي تكوّن الذكر بواسطة الكهربائية وتزيد الاناث عن الذكور [1] ولا ندري ما يحمله الغد من عجائب العلم

وقد زادوا انتاج الحيوانات والطيور بتحسين نسلها والقضاء على الامراض التي تفتك بها كانواع الجراثيم والديدان وغيرها فزادت زيادة عظيمة

هذه نظرة عامة تريك ضعف النظرية المالثوسية وعدم انطباقها على البشر الذين يكيفون أنفسهم وفقاً للظروف ويتحكمون بمحيطهم كما يشاؤون فلا خوف على الانسان مهما قلت المواد الغذائية وتعقدت المشاكل الاجتماعية فانه واجد لنفسه مخرجاً

(١) Outposts of Science, 1935, p. 191 By Barnard Jaffe

فلسفة الفاشية

لعلي أدهم

﴿ نظرة عامة ﴾ كان مفكرو اليونان يرون ان الحياة الفاضلة لا تتيسر اسبابها وتستوفى شرائطها وتتكمل عناصرها الا في كنف الدولة ، وان الدولة هي اقوى الذرائع واقرب السبل الى تحقيق تلك الحياة وتمهيد مقدماتها ، وكانت الاخلاق في رأيهم مرتبطة بالحياة العامة متصلة بالسياسة ، وتصورنا للدولة ووظيفتها يجب ان يكون مقرون الاخلاقي ويمتزج بادراكنا للفضيلة ، ثم جاءت المسيحية فباعدت ما بين الاخلاق والسياسة وصرفت عناية الانسان الى العالم الآخر ووجهت جهوده الى الحرص على استنقاذ الروح من مفاتن الحياة ومغريات الحواس واغرت النفوس بالزهادة والاستهانة بامور الدنيا واحوالها المتقلبة الفانية ، وعند عهد احياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسي والتفكير الاخلاقي وسار كل منهما في طريقه واول من اعلن انفصالها في جراءة وصراحة هو مكيافلي في كتاب الامير

وقد عادت السياسة الى الاقتران بالاخلاق في العصور الحديثة ويتجلى ذلك في المذاهب السياسية السائدة التي تناوىء الديمقراطية واخصها الفاشية والشيوعية

ولنظرية سيادة الدولة المطلقة هي اكبر ينابيع الفاشية واقوى اصولها واعتى دعائمها ، والفاشية الى حدّ كبير تحقيق عملي لتلك النظرية ، ويزعم شراح المذهب الفاشي ان الفاشية ليست نظرية للدولة فحسب ، وانما هي رأي في طريقة الحكم وموقف تجاه الحياة ونظرة خاصة للكون والمجتمع واسلوب مستحدث في علاج مشكلاته وتفريج ازماته وليست هي مقتصرة على نبذ الديمقراطية والقضاء على الاشتراكية وانما هي في منزلة بعث جديد للروح الانسانية

والمذهب الشيوعي لا يغالي في ادعاءاته الاخلاقية الشاملة كما تفعل الفاشية ، ولكنه مع ذلك يتطلب نظراً معيناً للاخلاق ، والشيوعية تجد اسلوباً خاصاً للحياة وترجحه وتؤثره على غيره وتدعو الى الاخذ به والسير بمقتضاه ، ورأيها مستمد من التصور الشيوعي للمجتمع وطبيعة القوى التي تحرك التاريخ وتؤثر في الحركات الاجتماعية ، ومسائل الأخلاق تبحث عند الشيوعيين

من ناحية علاقتها بالعوامل السياسية والاعتبارات التاريخية والظروف الاقتصادية

وكلا الشيوعية والفاشية يفرض على الأفراد — الشيوعيين — او الفاشيين — ان يعيشوا على نهج خاص واسلوب يزيد رفعة الدولة ومجدها ، وعليهم ان يعلنوا محاسن ذلك الاسلوب وينشروا مزاياه وينشروا به ، وهم في سبيل ذلك لا يحجمون عن ايذاء مخالفيهم واضطهادهم ؛ والشيوعية والفاشية فلسفتان عمليتان ومثل هاتين الفلسفتين قد يحتمل المعارضة ويضع صدره لمناقشة في ساحات التفكير وميادين البحث ، ولكن عند مايدين بمبادئه حزب من الاحزاب ويصل عن طريقها الى مراكز الحكم ومقاليد السلطة ومعاقل النفوذ يصبح لا يحتمل المعارضة ولا يطيق المناظرة

والشيوعية والفاشية — على نقيض الديمقراطية والفردية — يميلان الى توحيد السياسة والاخلاق ويحاولان ان يجعلا الوطنية قوة ايجابية فعالة عاملة على تحقيق المثل العليا والغايات المنشودة ويتطلعان الى القضاء على كل الاحزاب والشيع التي تخالفهما في الرأي وينكران عليها كل حق من حقوق التعبير عن آرائها ، وغايتهما ان يصبرا عقائد شاملة مستوعبة لنواحي الحياة جميعها مسيطرة على كل فكرة وكل عاطفة وبذلك تصير السياسة والاخلاق شيئاً واحداً

ونظرية الفاشيين في الحكومة هي نظرية سيادة الدولة المطلقة ، فالدولة اعظم من الفرد وحقها في الوجود يفوق حقوق الافراد ويسمو عليها ، وللدولة غاية تبغي طلابها وواجب الافراد معاونتها على اداء تلك الغاية ، وهو شخصيتهم وتضع ملكاتهم رهن بالمشاركة في النهوض بذلك الواجب ، وخدمة الدولة تسمو بالفرد وترفعه الى الذروة وتحلق به فوق المآرب الشخصية وهي لا تجعل الفرد عبداً وانما تصقله الكفاح والعدوان وتأكيد النفس والاعتزاز بالشخصية في سبيل خدمة الاغراض السامية ، وطاعة الزعيم تربأ به عن الالتماس في الصغائر والاستغراق في الانانية والغرور

والدولة عند الفاشيين ليست مدينة للفرد بشيء لانها اسمى منه والكفة بينهما غير متساوية والمقام متفاوت ؛ بل هي منبع كيان الفرد واصل آدابه ، وهي حرة من الالتزامات الادبية مع غيرها من الدول لانها قوة لا يتطاول اليها احد ولا يسامیها انسان وهي من ثم لا تقبل الخضوع لعصبة الامم . والنظام الفاشي او الشيوعي يتطلب الحجر على حرية الفكر وحرية النقد وحرية الخيال لأن هذا الحجر في زعمه لصالح الدولة وصالح الدولة هو ماتريده الارادة العامة اي « الارادة الحقيقية » للشعب وهذه الارادة يفسرها في المانيا اعضاء الحزب الوطني الاشتراكي وينطق عن لسانها في ايطاليا الحزب الفاشي !

﴿ تعليل ظهور الفاشية ﴾ — يرد بعض الباحثين اسباب ظهور الفاشية الى ظهور حالة عاطفية جديدة مصدرها ان العالم الحديث فيه رجال كثيرون لهم همة ماضية وعقول ثاقبة ولكنهم لا يجدون مجالاً لهمتهم ولا ميداناً لتدريب مواهبهم وهم من ثم تائقون الى النفوذ والقوة ولا يحجمون عن

استطاع النفوذ للوثبها ، وقد سلبهم العصر الحديث قوتهم وغمطهم حقهم وفوّت عليهم فرص النجاح ، وشلّ حركة القادرين على الابتكار والتجديد وقيد نشاطهم وأوصد في وجوههم ابواب المغامرة والمخاطرة وسلط عليهم الملل والسأم ، وامثال هؤلاء يجدون في الفاشية خير منقذ

ويرى البعض في الفاشية بديلاً من الذين في عصر وهنت فيه العقائد وضعف سلطانها على النفوس ودالت دولتها ، والطبيعة تكره الفراغ فغير عجيب ان تحل الفاشية محلها وتقوم بمهمتها

ويعدها البعض بأنها ثورة على الحضارة ، وذلك لان حركة التقدم تحدث ضغطاً على العقل وتستحثهُ على ان يلائم بين نفسه وبين الوسط المتجدد ، وهذه الملاءمة تستدعي لذلك كيحاً من ناحية وطول احتمال لافكار جديدة واساليب لا عهد له بها ، من ناحية اخرى ، وعندما تسرع حركة التقدم ويشتد ضغطها يبدأ الذين يشعرون بنقصهم وتخلفهم أزاء ذلك التطور المتتابع التقدم المستمر يحسدون المتفوقين البارزين ويتولد في نفوسهم الميل الى رد فعل لايقاف ذلك التقدم واعتراض سيره والعودة الى اساليب ادنى الى البساطة وأيسر للفهم وأقرب الى اظهار الشجاعة والاقدام والطاعة والثقة بالحكام ، وهكذا عندما يفوق تطور الحضارة مقدرة الانسان على التكيف بحسب الاحوال الجديدة يصبح خطر العودة الى الاحوال القديمة والطرق المهجورة ماثلاً ويشتد كره المستوى العالي والحياة المركبة المعقدة ويبدو ذلك في صور مختلفة منها صورة الرغبة في الاحتفاظ بالتقاليد القديمة والعودة الى أساليب الحياة البسيطة الساذجة ومحاولة الحرص على مقاومة الشعب والعمل على استئصال الفساد السياسي والانحلال الاخلاقي

ويعلن الشيوعيون الفاشية بأنها آخر مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي ، وهي في عرفهم رأسمالية عجزت عن اجابة مطالب العمال ومواجهة قوتهم الثانية دون أن تهدم أساسها وتكشف عن زيفها ولذلك خلعت عن وجهها النقاب وأعرضت عن ادعاء الديمقراطية السياسية

اما انصار الفاشية فيفسرونها بأنها يقظة جديدة وبعث للروح ، ويشبهونها بنهضة احياء العلوم ووجهة نظرهم ان اوربا قد استولى عليها منذ عهد الحضارة القديمة تياران فكريان ، احدهما تيار الفكر اليوناني والآخر تيار الفكر الروماني ، فالتيار اليوناني هو الذي عمل على تقوية التفكير وشجّع نزعة الشك واوحى الميل الى التجربة وألهم الفردية ، والتيار الروماني هو الذي أوحى الولاء وحب التعاون الاجتماعي والرغبة في النظام واحترام التقاليد ، وقد أعاد عصر احياء العلوم للقيم اليونانية مكانتها ورد عليها سالف قوتها لانهُ هو الذي بدأ عهد حرية التفكير وأعاد في عالم البحث طريقة التجربة والاستقراء التي انتهت بانتصار العلوم من ناحية وتحطيم الاديان من ناحية اخرى ، وبدأ في عالم السياسة عهد الديمقراطية والحرية والمساواة وأوجد فكرة أن الحكومة هي وسيلة لاسعاد الفرد ، ولم تجد الروح اليونانية كابحاً فتطوحت وتمالت حتى أشاعت الفوضى

في الآداب والسياسة وعصفت بأيقين وثمرتها المرة هي الشيوعية والفوضى في المسائل الجنسية والكفر والتمرد وقد استلزم ذلك العودة إلى حركة بناءة في السياسة والآداب ترجيح جانب التيار الفكري الروماني . وقد تحققت هذه الحركة في الفاشية لأنها عودة الى الفضائل الرومانية ، فضائل الولاء والنظام ، وهي لا تعنى بتقدم الفرد وانما تعنى بالتضامن الاجتماعي ، والمثل الأعلى عندها ليس هو العالم في معمله ولا المفكر في مكتبه وانما هو المجاهد الشجاع الصبور الذي يسحق أهواءه ويغالب شهواته ويتعبق في تدينه ويدافع عن الضعيف وينافح عن الحق وينتصر للتقاليد ويذود عنها ، ورجل العمل عند الفاشيين أقرب الى فهم الحياة وادراك كنهها من المفكرين لان المفكر يفهم الحياة عن طريق العقل والتحليل في حين ان حقائق الحياة الحيوية انما تفهم بالبداهة الموفقة والألمعية اللامحة ، والفلسفة الفاشية لا تعول على العقل وانما تعتمد على الغريزة والايمان والحياة في نظر الفاشيين تحدّ دائم وجهاد متصل يرهف الحواس ويشد أوتار الاعصاب ويشحذ الهمة ويغري بحب المخاطرة ، وليست السعادة عند الفاشيين هي غاية الحياة وانما غايتها المجد والكفاح

﴿ آباء الفاشية ﴾ من المفكرين الذين مهدوا السبيل للفاشية والنازية الفيلسوف الالماني نتشه ، فقد كان يرمي الى ضم صفوف الالمان لمقاومة نابليون وحاول ان يثير الشعور القومي وان يعزّز في النفوس الولاء للوطن فذهب الى أن التربية يجب ان تتجه الى تنشئة الشعب الالماني على منوال يوحد أفكاره وأمانيه ، وأشار الى ان الوسيلة الوحيدة لذلك هي التدريب العسكري والنظام الحربي ، فكل فرد يلزم ان يخضع لهذا النظام ويتناول بهذه الطريقة ، والوطن في زعمه رداء الأبدية وعلى الافراد ان يجودوا بأنفسهم في سبيله ، وهو يقسم الناس الى قسمين كبيرين وهما النبلاء وغير النبلاء ، وغير النبلاء انما يعيشون ليخدموا النبلاء ويلبوا مطالبهم وينقادوا لهم ، وميزة النبيل قوة الارادة ومضاء العزم والارادة عنده أساس الرجل ومحور الشخصية ، وجميع ضروب الفاشية تقوم على اكبار الارادة والاشادة بها ، والارادة في رأي الفاشيين هي العامل الحاسم في التاريخ . ولكن الى أي غرض يوجه الرجل الأسمى ارادته ؟ يرى نتشه ان الرجل الاسمى انما يوجه ارادته الى عمل الخير ومصلحة الشعب ونفع الوطن وقد جاء بعده نيتشه ليؤكد ان القوة في ذاتها هي غرض الرجل الاسمى

ونيتشه ينكر المساواة ويرى ان البشر غير متساوين وهو يهاجم آداب المسيحية في شدّة وقسوة ، وعنده ان التواضع والخشوع من آداب العبيد ، وان الانسانية والعطف والرحمة من علامات الضعف ، وهو من أجل ذلك يعتبر المسيحية ديانة الضعف وهي تؤكد للفاشلين في الدنيا أنهم سيظفرون بالسعادة في العالم الآخر وتقاوم صفات الرجولة والكبرياء وتأكيد النفس ،

والواقع ان نيتشه في تفكيره الاخلاقي قد تأثر بتصور دارون للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء، وقد ذهب دارون الى ان البقاء للانسب فجاء نيتشه واستنبط من ذلك حكمة اخلاقية فقال ان الانسب يجب ان يبقى اي انهُ حاول ان يستخرج قانون الاخلاق من نظرية التطور، ومن طبيعة الآداب القائمة على اساس هذه النظرية انها ترى ان الصالح هو ما ساعد على التطور وان الشر هو كل ما عاق حركة التطور ومن طبيعة الحياة انها تحاول على الدوام ان تفوق قسها وان تخرج صوراً ارقى واكمل من ناحية الصفات العضوية ومن جانب الاخلاق ولكن كيف يعرف التفوق الاخلاقي والسمو الروحي؟ سمات الامتياز الاخلاقي والنبوغ الروحي هي رغبة الفرد الممتاز في ان يخضع لارادته الغير وانما ظهرت الديمقراطية لمقاومة ذلك وعكس آيته وابدال سنته وحب القوة عند نيتشه هو أقوى العواطف، وقد يكون الانسان موفور الصحة وفي نعمة سابغة ولكنهُ يظل مع ذلك تعساً محزوناً لأنهُ طامح الى القوة متطلع الى النفوذ والسلطان، والميل الى القوة هو الزلزال الذي يهدم الفاسد ويبعثر القبور، واعلاء ارادة القوة وتمجيدها أدى بنيتشه الى تصور نوعين من الآداب آداب السيد الذين يمقتون القوة وعدم المساواة وآداب العبيد التي تعتبر القوة هي غاية الحياة ومحتم السادة على طلب الاستزادة من القوة وتقوية الصفات التي تعين على تحصيلها، وعنده ان الفرق بين الخير والشر معناه الفرق بين النبل والضعة في حين انهُ عند العبيد هو الفرق بين النافع والخطر، وآداب العبيد في رأيه آداب ضعة، وكما ارتقى الانسان وجاوز مستوى الفردة كذلك سيرتقي الانسان الاعلى ويسمو على مستوى الانسانية والانسان الاعلى هو هدف التطور وغايته، ويمتدح نيتشه الكفاح والغلاب، وقد كان مجل يمتدح الحرب ويكبر من شأنها لأنها تزيد الدولة قوة وبأساً ونفوذاً، أما نيتشه فانهُ يمتدح الكفاح لأن الشجاعة وقوة الارادة ومضاء العزيمة هي فضائل الانسان البارزة، والكفاح يستلزم الشجاعة ويقوي الارادة ويهيء الفرصة للرجل القوي ليظهر قوته وتفوقه وقد التفت لذلك مكيافلي فأوصى أميرهُ ان يجعل فن الحرب واجبه وشغله الشاغل لأنهُ علم الذين يباشرون صناعة الحكم، والحرب عند نيتشه دواء ناجع للامم المستضعفة الواهنة اذا كانت تحرص على الحياة وترغب في البقاء

وقد سار في غمار نيتشه جماعة من كتاب الالمان رددوا هذه النغمة وأطالوا فيها واسرفوا اسرافاً لامزيد عليه في طليعتهم تريتشكة وبرناردي، وكل من يقبل آراء نيتشه وفلسفته يصح ينتقد بقبل قسمه وسمومها، والفاشية تعلي الارادة وتمجد القوة وتقسم الناس الى فريقين فريق من حقه ان يسعى الى القوة وفريق ينقصه قوة العزيمة فواجبه طاعة الأقوياء والانقياد لهم وخطب الفاشيين وأحاديثهم ورسائلهم تحض على نبذ فضائل المسيحية والاخذ بالآداب الوثنية

خليل مطران

شاعر العربية الإبداعي

البحث الثالث

الدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

نشأة الاتجاه الإبداعي في الشعر العربي

(توطئة) يقوم اصطلاح « الرومانسية » في الآداب الغربية من أصل في لغة اللاتين بمعنى غلبة الخيال والشعور على الاحساس والعقل . ومن هنا جاء الاتجاه الإبداعي في الآداب الغربية ارسالاً للخلجات النفسية مترعة بالوجدان بغير تقييدها بأحكام الفكر وقوانين العقل . ولهذا كان الاتجاه الابداعي يحتوي على بذور حركة مضادة للاتجاه الاتباعي من حيث يقوم هذا الاتجاه على أساس من القوالب والتراكيب التي هي من فعل الذهن الصرف ، والتي تصاغ فيها خلجات النفس والوجدان فتخرج خانقة الثمرات

على أن الإبداعية في الأدب العربي لم تقم — كما هو الحال في شعر الابداعيين — على أساس الثورة على القوالب والتراكيب العربية ، وانما قامت قبل كل شيء على أساس من نقل الشعر من الأغراض العربية الإتباعية الى الأغراض الأوربية الابداعية ؛ فبذلك كان اتجاه الحركة الابداعية في الآداب العربية أقرب في روحها الى الحركة « الرومانسية » في الآداب الغربية ، آية ذلك أن خليل مطران أول الإبداعيين في الشعر العربي يقول في توضيح المذهب الجديد في الشعر : —

« التبعة غير القصور والرأي ، وان خطة العرب في الشعر لا يجب حتماً ان تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا وحاجاتنا وعلومنا ، ولهذا وجب ان يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا لتصورهم وشعورهم ، وان كان مفرغاً في قوالبهم محتذياً مذاهبهم اللفظية » (١)

فخليل مطران يرى أن قوالب العرب في نظم الشعر ومذاهبهم في صوغ الكلام أساس إتباعي

(١) خليل مطران في المجلة المصرية ، السنة الاولى ج ٣ (يوليو ١٩٠٠) ص ٨٩

تقوم عليه لغة الضاد ، وأن المذهب الجديد ليس عليه أن يخرج على هذه الأصول . وإن كانت له كل الحرية من جهة صرف المعاني وتوجيه الأغراض الى السبيل التي يشاء ، غير مقيد بشيء إلا أن تكون هذه المعاني والأغراض مستمدة من روح العصر الذي يعيش الناطقون بالعربية فيه اليوم ، ذلك ليكون هذا الشعر عصريًّا من حيث تنعكس من صفحته ظلال روح العصر

على هذا الأساس يتضح جليًّا لنا الاتجاه الجديد الذي استحدثهُ خليل مطران في الشعر العربي ، والذي سار في ركابه من بعد ما تميزت خطوطه الشاعر السوري خليل شيبوب والشاعر المصري علي محمود طه ، وقد كانا أبين على أغراض المذهب الذي استحدثهُ خليل مطران في الشعر العربي من بين كل المجددين

هذا الاتجاه الجديد بثورته على الأغراض الإتباعية في الشعر العربي كان اعظم ثورة في تاريخ الأدب العربي ، وكانت هذه الثورة بما خلفت من آثار ، مقدمة لعهد جديد في تاريخ آداب اللغة العربية منفصلاً كل الانفصال عن الذي سبقه . غير أن العهد القديم لم ينقض بهذه الثورة ، وإنما نشأ بجانبه امتداده اتجاه جديد ، كان المقدمة للعهد الجديد . ومهما تكن حقيقة الأسباب التي دفعت خليل مطران إلى هذه الثورة ، فلا شك أنها مستمدة أسبابها من بيئته الشعرية . إلا أن هذه البيئة مستقلة بحدودها عن البيئة الشعرية العربية العامة . ذلك أن حركة خليل مطران الأدبية تستند الى قوة من الفكر الفردي فيه تغلبت على قوة الفكر العام . وهذه القوة تخطت حدود التطور في هذا الشرق النائم في بعض أفراده الناهضين ووثبت وثبات الى الامام متصلة بالفكر العربي بغير أن نجد في الشرق ما يهيء لها أسباب انتقام من الفكر العام(١)

آية ذلك ان حركة خليل مطران الابداعية في الشعر ، وكثيراً من الحركات الفردية التي شهد قيامها الجيل الذي انقضى بقيام الحرب العظمى لم تحظ بشيء كبير من الذيوع ، وان لاقت بعض الاهتمام في بيئات فردية منعزلة عن المحيط العام

هذا وان كانت قوة الفكر الفردي وجدت في خليل مطران وبيئته الشعرية ما تجمله مهيأ الأسباب لرسالة جديدة في الأدب العربي تقوم على محاولة جريئة في نقل دائرة الشعر العربي من الأغراض العربية البدوية الى دائرة الأغراض الأوروبية العصرية ، تلك الأغراض التي كانت تقوّم حياة جيل من الشباب في العالم الناطق بالعربية ، اتصلت به الأسباب الثقافية بالغرب فتشرّب آدابها في مدارس الارساليات وكليات الأميركان ببيروت ، فكانت من تلك الأسباب التي دفعت هؤلاء الشباب أيما حفلوا ونزلوا الى احتضان حركة الجديد ودفعها الى الامام وخرج من صفوف هؤلاء الشباب مطران محاولاً استحداث انقلاب في الشعر العربي . كما خرج من قبل

(١) L. A. Edham في Al-Zahhawy The Poet ص ١٤ وكذا في Abushady The Poet ص ١ ـ ٢

الصفوف يزدان منصرفاً الى ميدان التاريخ محاولاً ان يجح به الى الطرائق الغربية وكانت حركة صروف في العلم وفرح انطون في الأدب تستمد الأسباب من نفس هذا الاتجاه، بحكم كونها من صفوف هؤلاء الشباب

غير ان قوة الفكر العام في العالم الناطق بالعربية من حيث كانت تتصل بالقديم وتمضي حثيثاً في تطورها، أخذت تسير بالمجتمع الشرقي في خطوات تدريجية متصلة الأسباب بالقديم، ومن هنا كانت تقف حائلاً دون تقبل الحركة التي قام بها هؤلاء النفر الذين تخطوا أسباب عصرهم المتصلة بالماضي واتصلوا بالغرب فالتحقوا بقافلة العصور التي لاتزال جنين الدهر في الشرق، ولم تنخفض عنهم رحم الشرق بعد الى هذا اليوم. وهكذا كان هؤلاء اكبر من العصر الذي نشأوا فيه، كما كانوا اكبر من العصر الذي لحقوه. ولهذا ذهبوا طي الزمن دون ان يلتفت اليهم ابناء عصرهم الالتفات الذي يتكافأ مع خصائصهم المتازة

اما تلك الخطوات التدريجية فقد ارتكزت عليها روح الاحياء والبعث لتراث الأدب العربي القديم في جميع الاقطار الناطقة بالعربية. فكانت حركة البارودي وولي الدين يكن وحافظ ابراهيم واحمد شوقي في مصر، والكاظمي والرصافي في العراق، وشبلي الملاط وداود عمون وامين تقي الدين في سوريا ولبنان وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة والشهرة. وكان روح هذا الفريق اتباعياً يقوم على الأغراض العربية البدوية في الشعر العربي من حيث بعث للحياة من جديد وان رفق منها الحواشي حياة العصر

—١—

يقوم الاتجاه الاتباعي في الشعر العربي على أساس الاغراض النموذجية المصوغة في قوالب من عمل الذهن؛ وخير الشعر عند العرب ما سبق دبيبه في النفس دبيب الفناء ثم سبح بها في عالم الخيال، ذلك ان الشعر العربي غنائي في روحه اتباعي في بنائه. ومن هنا «ان كان غزلاً مرّ بها على مسارح الظباء وكنس الآرام وطاف بها على أودية العشق والغرام فأراها أسراب الارواح ترفرف على نواحيها غاديات رائحات في مروج الهوى سانحات سارحات في رياض المنى طائرات سابحات في أجواء الهيام حافات بأرواح اولئك الذين قضوا شهداء العيون وصرعى الجفون وأراها جميلا وهو يرنو الى بثينة وابن حزام وهو يهفو الى عفرائه والمجنون وهو يضرع الى ليلاه ثم ردّها بعد ذلك وقد أذابها رقة وأسالها شوقاً»[1] وهكذا تتجلى شاعرية الشاعر العربي من بين هذه الاغراض

وفي الاتجاه الاتباعي يقوم البيت من الشعر محلّ القصيد، وتنتهي عندها أغراض الشاعر. ومن هنا لا نجد في الشعر العربي «ارتباطاً بين المعاني التي يتضمنها القصيد الواحد ولا تلاحم بين

(١) حافظ ابراهيم: في مقدمة الديوان — القاهرة ١٩٠٠.

اجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها ابنيتها وتوطد بها اركانها ، وربما اجتمع في القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس وليكن بلا صلة ولا تسلسل . وناهيك عمّا في الغزل العربي من الاغراض الاتباعية التي لا تجتمع الاّ لتتنافر وتتناكب في ذهن القارىء . ولولا اختيار الالفاظ وحسن الاسلوب وبدائع الصور التركيبية . وكذلك لولا مؤالفة أذهان العرب لصيغة القريض وتركيبه من هذه النقد المتنافرة لتناكرت وجوه الشعر عند العرب وهم يرون التقطع بين قول كبير شعرائهم المتنبي :

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم

وما يليه من الابيات ذوات الاغراض الغزلية ، وبين قوله مفاجأة على أثر ذلك :

فمالي ولدنيا طلابي محبوبها ومسعاي منها في شدوق الأراقم

من الحلم ان تستعمل الجهل دونهُ اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم

الى آخر هذه الاغراض المتنافية عند الحكمة . ثم بين قوله بعدها في الفخر :

اذا صلت لم اترك مصالاً لقائلٍ وان قلت لم أترك مجالاً لعالم

وبين قوله في التخلص الى الممدوح :

والاّ فخاتني القوافي وعاقني عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

ولا جرم ان هذه القصيدة لطمت لابن عبد الله . فما الذي كان يعنيه من كل الامور التي تقدمت ذكره فيها ، وهل حق عليه سلفاً من جزاء ما مدح به ان يسمع شكوى غرام الشاعر ويرى رسم حبيبته الموصوفة ثم يثب من هنالك الى النجوم التي جعلها ابو الطيب المتنبي طلابه من الدنيا ثم يرتفع الى مهبط وحيه ومستنزل حكمته ليسمو الى قمة الفخر بسيفه وقلمه ثم يعود الى داره، الى المجلس الذي هو فيه منها وبين يديه ابوالطيب ينشده ويسمع عندئذٍ ما أثنى عليه به»[1]

وهكذا وقفت وحدة البيت محل وحدة القصيد في الشعر العربي لتجعل الشعر عند العرب يتحلل الى صور ، كل بيت شعر تختاه صورة كاملة ، لا تصور في الواقع ولا تحكي صور الاشياء التي يعرض لها الشاعر في طبيعتها الموضوعية وانما تعرب عن أثرها في النفس وصداها . ومن هنا كانت ذاتية الشعر العربي ووقوفه عند الضرب الثاني من الشعر . غير ان هذه الصور الذاتية في الشعر العربي وان اكتملت صورتها من ظاهر آثار الأشياء وصداها في النفس التي تقف في عالم الحس ، فانها لم تكن لتنفذ الى ما وراء الحس فتتصل بعالم المشاعر الداخلية في أعماقها . آية ذلك ما تراه من الصور الحسية المجسمة للعواطف والميول عند شعراء العرب ، وحتى أنك تجد

(١) خليل مطران : في المجلة المصرية — السنة الاولى ج ٢ (١٦ يونيو ١٩٠٠) ص ٤٢—٤٤

عمر بن الفارض سلطان العاشقين عند شعراء التصوف لا يتعدى بخياله الشعري الصور الحسية،[1] وإن كانت هذه الصور في شعره رموزاً لمعانٍ روحية، إلاّ ان ظهور الجانب الحسي في المواقف المعنوية المحضة يستدعي النظر، خصوصاً اذا كانت هذه المعنويات ميولاً وعواطف. وهي تنزل من وراء الحس عادة، فاذا ظهرت حسية، فذلك ينهض دليلاً على الطبيعة الحسية عند العرب

هذه الطبيعة الحسية جعلت الخيال العربي ماديًّا. فلم تسمح له بالتحليق في أودية عالم الايهام والانطلاق في عوالم التخيل، ذلك ان خيال العرب آت من قبل الحس لا من قبل الوهم Fancy وتلك كانت صور خيال العرب مواقف وأصداء تسمعها الأذن وصوراً تراها العين، ولم تكن أشباحاً تبرز للمخيلة مكتملة أسباب تجسدها من العالم الموضوعي

ولا شك ان ضيق خيال العرب[2] وما لوحظ من عدم التنوع والزخامة نتيجة لهذه الطبيعة الحسية عندهم، التي تقف كل شيء من آثار العرب دليلاً عليها، حتى لتمكنك ان تجد على ذلك الدليل في لغتها من حيث الاستعارات، التي تمزج في الغالب معنويها بحسيها، تاهيك بالألفاظ الدالة على الميول والعواطف في اللغة العربية كلمات لم تتغلب عليها الصبغة المعنوية الى يومنا هذا.[3]

من هنا كانت ثورة الابداعية على الاتجاه الاتباعي، من حيث تزعم الابداعية الأغراض الأوربية في الشعر، ثورة على الأغراض العربية، ومحاولة للخروج على الروح العربية، ولما كانت هذه الثورة قائمة في حدود اللغة العربية، فانها لم تقدر على استيعاب الأغراض الأوربية كاملة، من حيث ارتباط بعض الأغراض العربية من جهة المعاني بالألفاظ العربية. مثال ذلك ان الالفاظ الدالة على المعنويات في العربية تتغلب عليها الصبغة الحسية، ومهما كانت أغراض الشاعر الابداعي معنوية فانها تكتسب الصبغة الحسية من مدلولات الالفاظ. هذا ولما كانت الحركة الابداعية التي قام بها مطران تقوم على الأغراض الشعرية المتصلة بالمعنى دون المبنى. فان المبنى الاتباعي كان يحمل الشعر الابداعي كثيراً من صوره. مثال ذلك قول خليل شيبوب من الشعراء الابداعيين من قصيدته « الشاطىء الخالي » : —

كأنما الريح لما رفَّ ناعمها سالت حنيناً بها أرواح من عشقوا

فهنا مرور الشاعر على أسراب الأرواح وتضمينها في الطبيعة، لم يخلص فيها من ناحية الكلام عن أرواح العاشقين من الغرض الاتباعي في الغزل العربي

هذه مسائل تستوقف النظر في دراسة الاتجاه الابداعي في الشعر العربي. والحقيقة ان الحركة

---

(١) زكي مبارك — أبولو، م ٣ ج ١ (ديسمبر ١٩٣١) ص ٤٢٢ — ٤٢٣.

(٢) De Lacy O'Leary في كتابه Arabia Before Mohammed وكذا فجر الاسلام لاحمد أمين — الطبعة الثالثة ص ٣٧ — ٤٧. (٣) عباس محمود العقاد في الفصول ص ٣٨

الابداعية التي قام بها خليل مطران لم تكن في جميع نواحيها تجديداً وخروجاً على القديم وثورة عليه . فما كانت في بعض النواحي ، وأكثرها يتصل بالاغراض العامة للشعر دون المبنى ، مثال ذلك قيام حركة مطران الابداعية على اساس ادخال الشعر القصصي والتصويري للادب العربي فهذين الضربين يخلو منهما في الاصل الشعر العربي القديم ، كما يخلو منها الشعر الاتباعي الحديث. ولا شك أن ادخال هذين الضربين كان على اساس خطير . هو محاكاة الأشياء في صورها الخارجية محاكاة موضوعية . وهذه كانت نتيجة للأخذ بالخيال الأوروبي ، ولهذا تطور في الشعر الابداعي الحديث الخيال الشعري من الهواتف والأصداء التي تسمعها الآذان والصور التي تراها العين ، الى صور أشباح تبرز للمخيلة وتمثل للذهن مستكملة أسباب وجودها الموضوعي في الخارج عن الشاعر

ولا شك ان لخيال مطران المتفطع النظير في تاريخ الآداب العربية يداً كبرى في هذا التحول وأيّاً كانت الاسباب التي ترجع لها قوة الخيال الشعري عند مطران ، فانه عن طريق خياله الغير المحدود والمتنوع تمكن من ان يجعل الشعر العربي يحمل صوراً وضروباً من الشعر لم تكن العربية تحتويها من قبل . وسرعان ما أخذ بهذه الصور والضروب بعض الشعراء العرب المتأثرين بمدّ الآداب الغربية فحاولوا محاكاتها ، وكان من ذلك مع الزمن مدّ الحركة الابداعية التي مثلت في مصر في عبد الرحمن شكري واحمد زكي ابو شادي وابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وفي سوريا ولبنان في علي الناصر وعمر ابو ريشه والياس ابو شبكه وسعيد عقل وفي المهجر في جبران ونعيمه والريحاني والمعلوف وابو ماضي والشاعر القروي

— ٢ —

قامت الابداعية العربية على أساس الأخذ بالتناول الرومانسي للموضوعات الشعرية ، وذهبت في تعريف اسلوب الكلام بحسب ذوق العصر ، ولو ادى ذلك الى استخدام الألفاظ والتراكيب احياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب عند العرب[1] غير انها في العموم كانت تدعو الى احترام أصول اللغة وعدم التفريط في شيء منها . ولما كان العرب يعرفون الشعر على انه الكلام الموزون المقفى الذي يجري على أساليب العرب ويقصد به الجمال الفني فهذا جعلهم يعتبرون الشعر صناعة تتبع المعاني فيها الاوزان والقوافي ، بيان ذلك عندهم ان الوزن والقافية اصل اداته الشاعرية . على أن الابداعية قامت قبل كل شيء تحارب مثل هذه الفكرة معتبرة الشاعرية الأصل ولها ان تستعين بالاوزان والقوافي او ما يقوم مقامها لتكون لها تلك النبرات الموسيقية التي تميز الشعر عن بقية ضروب الكلام . وبين هذا التناول للشعر وتناول العرب للشعر

(١) أبو شادي في أصداء الحياة ، ١٩٣٧ ص ١١

يقوم الفرق بين الاتجاه الاتباعي والاتجاه الابداعي . لأن اعتبار الوزن والقافية اصلاً ادائها الشاعرية يجعل البيت وحدة مستقلة في بنائها ومعناها عما بعدها وعما قبلها ، وفي هذا يقول ابن خلدون في المقدمة

«ويتفرد كل بيت من القصيدة بقصده في تركيب معنى كلامه وسدده مستقل عما قبله وعما بعده ، واذا أفرد كان تاماً في بابه ، فيحرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاماً آخر ويستطرد الخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بأن يوطىء المقصود الاول ومعانيه الى ان تناسب مع المقصود الثاني ويمهد بذلك الكلام عن القطار »

وعلى هذا الاساس يمكنك ان تعدّل وتبدل في ترتيب ابيات شعر الاتباعيين بدون ان تخشى ان يؤثر هذا التبديل على معاني القصيدة واغراضها ، لأن لكل بيت في الشعر العربي وحدته

وبعكس هذا قيام الاتجاه الابداعي على أساس ان الشاعرية هي الاصل ، وان من أدواتها الوزن والقافية ، لذلك نجد تسلسلاً منطقياً في الشعر الابداعي ، أساسه ان الشاعر يعبر عن خواطر متناسقة في ذهنه وعن عاطفة متشبة في صدره ، ومن هنا كانت وحدة القصيد في شعر الابداعيين أظهر شيء

وعندك الاغراض الشعرية عند الابداعيين ، فهم يرون الشعر فنّا شبيهاً بالتصوير والحس عن طريق الرمز . وان الشعر يفترق عن الرسم في ان الرسم فن شبيه بالتصوير والحس عن طريق النظر . وهما يفترقان عن الموسيقى في انها تشبه التصوير والحس عن طريق السمع [1] ، فالاساس عندهم واحد في جميع الفنون وان اختلفت ضروبها بطرائقها . فمثلا الشاعر الذي يتحدث عن عاصفة يصف لك شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يتناها الى ان تطغى فيشمل الظلام ويكون ليلاً . وينشر سحائب سوداء كثيفة ترسل في الجو رعوداً قاصفة ثم صادعة ، وبروقاً منطقة اللسان ثم ساطعة . ويطلق ريحاً عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهي مبانيه وتسقف اشجاره وتصفع وجوه زجاجه بالبرد ويجري بطرقه سيولاً فاذا بلغ الهول منتهاه ، وصف لك في خلال هذه الروائع كلها طفلا يتيماً هائماً على وجهه وقد لجأ الناس الى مساكنهم جزعاً واضاً الاطفال بين أيدي آبائهم وامهاتهم في مآتمهم وهو يقف بذلك الطفل الصغير في ذلك الموقف الرهيب ليحرك في القلب وتر الحنان والرفق خلال خفقان الطبل وثورة الدهشة. ومن يذهب مع الشاعر في تسلسل خياله واطراد خواطره ، يرَ ما قيل محسوساً بين يديه بنظره بينه ويسمعه بأذنيه مع انهُ في الحقيقة لم ير ولم يسمع شيئاً من ذلك . وانما احتال الشاعر عن طريق الرموز الى ما ينبه عند القارىء هذه التصورات التي يجسمها على الشكل الذي أحبهُ ،

(١) خليل مطران ، في المجلة المصرية ، السنة الثانية ج ١ (يونيو ١٩٠١) ص ١٢

ويتم له ما أراد على قدر مهارته ، والتلاعب في بلاغ قصده رتة لا تكرر لتركيب امتزاج بنفس لا يجحد وان كان كل هذا من المتممات (١)

ولا شك ان الاغراض الشعرية بلغت غاية في يد الابداعيين من جهة تسلسل المشاعر واطراد الخواطر واتساق الخيال ، حتى ان مطران انتهى الى روائع من الشعر في الايجاز في السنين الاولى من قيامه بحركته التجديدية ، ومن أبلغ هذه الروائع قصيدته القصصية « الجنين الشهيد » التي لا يوجد لها مثيل في كل تاريخ الشعر العربي

ومن الخطورة في مكان ، التحول الذي حدث على يد مطران من ناحية الاغراض العامة العربية الى ناحية الأغراض الاوربية العامة ، وعلى وجه خاص من جهة الخيال الشعري ، ومن لا ريب فيه ان لنشأة مطران يداً كبرى في هذا التحول من جهة بيئته الطبيعية ومحيطه الاجتماعي ، فلقد وجدت العقلية السورية اللبنانية في ربوع الشام وفي جبل لبنان تحت تأثير الاتصال بالفكر الغربي ما يجعل الفكر العربي يتقطع في كثير من البيئات الفردية ، فنشأ الخيال في هذه البيئات متقبلاً على الأوضاع الطبيعية التي تتركها أجواء القطر الشامي وجبل لبنان فيه . وهذه مسألة هامة ، وأهميتها راجعة الى ان الخيال الشعري انطلق في هذه الربوع للمرة الأولى في تاريخ الآداب العربية حراً من تأثير الذهن العربي فانطلق الشعور بالحياة والخيال هناك بدائياً يستوحي الطبيعة والحياة في فطرتها فكان ذلك سبباً لأن تكون لبنان وسوريا موطناً للشعر الابداعي في العالم الناطق بالعربية (٢) هذا القطر السوري يقول مطران فيه عند لقاء الشام :

هذي رؤوس القمم الشماء ... تواهضاً بالقبة الزرقاء
تواضع العالم البيضاء ... روائع الناطق الخضراء
يا حسن هذي الرملة الوعساء ... وهذه الاودية الغناء
وهذه المنازل الحمراء ... رافية معارج العلاء
وهذه الخطوط في البيداء ... كأنها أسرة العذراء
وذلك التدبيج في الصحراء ... من كل رسم باهر لوائي
منوش النظام في جلاء ... منسق بالحسن والرواء
وهذه المياه في الصفاء ... آناً وفي الازباد والارفاء
تنساب في الروض على التواء ... خفية ظاهرة اللألاء
ونسم قوائل للداء ... يشفين كل فاقد الشفاء
ومعشر كنجم الجوزاء ... يحسون مترة الماء
في ملعب للطيب والهواء ... ومرتع للنفس والاهواء
ومبعث للفكر والذكاء ... ومنتدى للشعر والغناء

وأنت تلمس في هذا الوصف طبيعة الشام وتستحضر في ذهنك صورة محسوسة بين يديك

(١) خليل مطران في المجلة المصرية السنة الثانية جزء ١ ص ١٠ — ١١ (٢) انظر الفقرة ٣ من هذا البحث

منها ، حيث تقوم القمم الشماء التي تناهض السماء والتي يغطي شواهقها الثلج ، بينما تكتنف قواعدها بالخضرة وتتجلل بالاشجار . الى تلك الاودية التي تفصل بين هذه الشواهق وتغيب في منعرج الجبال . الى تلك المجاري التي تصفو في بعض الاوقات ويزيد فيها الماء ويرغو في الحين الآخر . مما يسبغ على الطبيعة جوًّا كله اسرار تجسم في الذهن الوهم الخفيف وتفسح للمخيلة مجال التصوير

وهكذا كان ابناء القطر الشامي اصحاب طبيعة فياضة بالشعور وروح نابضة بصور الاشياء غير ان هذه الطبيعة كانت تحت تأثير البيئة الاجتماعية الآخذة الاسباب بالروح الغربية تغيب في طيات النفس حتى تفتقده ، فلما قفطت الاسباب بالفكر الغربي ظهرت هذه الطبيعة في فيض شعورها وفي نبضات روحها آخذة الاسباب بأجواء المحيط الطبيعي

— ٣ —

تشرت الابداعية صفحتها الأولى في القطر الشامي في تلك البيئات التي تقفت فيها اسباب الحياة والذهنية العربية . والواقع ان العالم العربي وعلى وجه خاص لبنان كان في العصر الماضي مسرحاً لبيئات متباينة إن اختلفت في مظاهرها ، الا انها متكافئة مع المؤثرات التي وجدت السبيل للعالم العربي في ذلك العصر . وبعض هذه البيئات انقطع فيها كل اسباب الاتصال بالقديم وأكثر ما كانت هذه البيئات تقوم في ربوع الشام في البيئات المسيحية حيث انطلق نفر من الشباب السوري هنالك من آثار القديم واتصلوا بموجة الجديد التي حملها الغرب بقوة الى الشرق الادنى تحت تأثير الاتصال الذي توثق بين العالمين في ذلك الحين

ومن خطر الشأن في مكان ان نلاحظ ان الانسان من حيث يولد وهو طفل ، فعاله المكسية الاصيلة هي التي تتحكم في سلوكه مستمدة الأسباب مباشرة من الجهاز العصبي . تلك الافعال — التي كانت تعرف فيما مضى بغرائز الطبع والغريزة — والتي تكون مطواعة في طفولة الانسان للمؤثرات التي تنطوي عليها بيئته الطبيعية ومحيطه الاجتماعي والدوافع الاولية المستمدة من هذه المؤثرات . والانسان عادة يخرج من طفولته تحت تأثير هذه المؤثرات مصبوباً في قالب معين يكافىء الحالات التي احاطته . ولنظراً لأنه في الحالات الاعتيادية تكون الاسباب الطبيعية في تداخلها بالمؤثرات الاجتماعية منتهية الى حالة واحدة . عامة بالنسبة لافراد الجماعة البشرية . فان الناس يخرجون مصبوبين في قالب معين ، ولما كانت المؤثرات الاجتماعية لا تثبت على صورة واحدة وتتحول من جيل الى جيل ومن قبيل الى آخر بما يستجد في محيط الجماعة من عوامل ومؤثرات فان الحالات الخارجية بالنسبة للانسان تتغاير وتأخذ صوراً شتى تتكافأ مع كل صورة الجماعة التي يعيشون في ظلها ويتنفسون في اجوائها

والشرق الناطق بالعربية تحت تأثير المدنية الغربية أخذ في التطور ، وكان من آثار تطوره

ان تقطعت في بعض مختصاته الاسباب التي ربطهُ بالحياة العربية وتصبه بذهنية الشرب التقليدية . فكان من ذلك نشوء أجواء جديدة ، تنوعت بسببها الاتجاهات المستحدثة في تاريخ هذا الشرق

على انهُ من المهم لنا في بحثنا هذا ان نلاحظ ان وراثة الاتجاهات الادبية والفنون الذهنية مهما تتوزع في حقيقتها من الناحية البيولوجية . فلا ريب في انها تقوم بالاسباب التي تستغل من التكافؤ الحادث بين محيط الجماعة البشرية والدوافع التي تحرك الانسان في طفولته في اجوائها. ولا شك انه في الامكان ، عن طريق استقلال العوامل المتصلة الاسباب بالمحيط الطبيعي عن العوامل التقليدية المتصلة بالجماعة ، يمكن قيام الاتجاهات الطبيعية في الانسان مستقلة عن التأثر بالعوامل التقليدية التي تكوّن وراثة الجماعات الا ان هذا كما هو واضح وقف على شيء واحد ، هو تقطع العوامل التقليدية في المجتمع . وفي ذلك الحين تحت تأثير الجو الطبيعي الذي يفعل فعله مباشراً وتحت ظل التكافؤ بين هذا الجو الطبيعي والعوامل الجديدة في المجتمع . يستحدث محيط جديد يتأثر باسبابه ما يقوم في عالمه من الاتجاهات والميول (١)

الا انهُ في الشرق الناطق بالعربية حدث تحت تأثير مدّ الموجة الغربية ، ان أخذت بعض المجتمعات وخصوصاً في الشام تفقد كل اسباب اتصالها بالحياة والذهنية العربية التقليدية التي تكونت ثابتة على كرّ الدهور . واختلاف التأثيرات والواردات على هذه المجتمعات ، خلق أجواء جديدة متباينة ، كل جماعة لها جوها الخاص . الا انها في جماعها تكافىء الحالات العامة التي وجدت طريقها للمحيط الاجتماعي (٢)

في احد هذه الاجواء التي استقلت عن تأثير الماضي عن طريق التفاعل بمدنية الغرب نشرت الابداعية صفحتها الاولى متأثرة باسباب البيئة الطبيعية المتفاعلة مع الجو الجديد . ومما يلاحظ ان تفاعل الشرق بالغرب كان على اشده في لبنان وسوريا ، ومن هنا كانت لبنان وسوريا موطن الاتجاهات الجديدة في الادب والفكر العربي

بدأ الاتجاه الجديد في الشعر العربي وجوده في الشام في شعر سليم عنحوري (المولود عام ١٨٥٥ م)صاحب ديوان « آية العصر »

غير ان هذا الاتجاه قام عنده على اساس تغليب الفن على الصنعة فقط ، ومن هنا جاء ارسال الخلجات النفسية مترعة عنده من الوجدان ، دون ان يحد منها التكلف الصناعي الذي اخذت به العصور المتأخرة في قول الشعر . ولم يقدر عنحوري ان يخرج على الاغراض الاتباعية

(١) اسماعيل أحمد أدهم : « بين الغرب والشرق » مجلة الرسالة السنة السادسة العدد ٢٧٦ ص ١٢٩٣

(٢) ستيودرت ضد في المقتطف ، م ٩٤ ج ١ ص ٤١ — ٤٩ وج ٢ ص ١٨١ — ١٨٧

العربية، من هنا كانت محاولته حركة محدودة المدى والنتائج إلا أنها كانت خطوة واسعة الى الامام من الخطوة التي خطاها رفاعة رافع الطهطاوي في أوائل القرن التاسع عشر حين اخذ ينظم في العربية وسع نطاق الاوربية، فخص الشعر العربي بخصائصه التقليدية المعاني الاوربية التي ناء تحتها النظم العربي وفي ذلك يقول الدكتور احمد ضيف ما مؤداه :

« ولكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر في القرن التاسع عشر كان أول من أدخل في الشعر المصري نوعاً جديداً نقله من الشعر الفرنسي ، ذلك هو الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١—١٨٧٣) الذي أوفده محمد علي بعثة الى باريس مع طلبة الارسالية . على أن الشيخ رفاعة لم يكن شاعراً ممتازاً بين شعراء عصره من شيوخ الازهر ، ولكنه كان شغوفاً بالادب تعلم الفرنسية وكان أول ما نقله منها الى العربية قصيدة نظمها في مدح الامير محمد علي أحد أساتذة البعثة الذين أرسلوا مع البعثة الى فرنسا

هذا الى ان الشيخ رفاعة أول من أدخل النشيد الوطني الى مصر. فقد نقل المارسيليز الفرنسية الى العربية في شعر حلل فيه النظم العربي معاني المارسيليز الفرنسية ، وتصرف فيها بعض التصرف . ومنها :

فيا بني الاوطان هيا فوقت نخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا سويا

ونسج على منوال هذا النشيد قصائد أخرى مزج بعضها بمدح الامراء وولاة مصر

وكان هذا أول ما حدث من أثر جديد في الشعر المصري — بل العربي — وكان هذا سبباً في انتقال الشعر الى أسلوب حديث وطريقة عصرية لو أن الشعراء نسجوا على منواله ، ولكن النهضة التي قامت في عهده كانت عنيفة لذلك لم تتأثر بهذا الاتجاه الادبي ، فضلا عن ان الحركة الادبية وقتئذ كانت فردية ، يتأثر الشاعر وحده او الكاتب وحده بأثر خاص ، ينهج منهاجاً خاصاً . ومع هذا لم يقدر الشيخ رفاعة ان يستقل عن القديم فمدح الامراء بقصائد هي من صميم أساليب الشعر العربي المعروف » (١)

ويعكس الشيخ رفاعة كان سليم عنحوري الذي نجح نجاحاً يذكر في تحميل الشعر العربي الاغراض الاوربية من ناحية الروح الشعرية ، فكان نجاحه دليلاً على انه في الامكان القيام بحركة جديدة في الشعر العربي لا ترجع الى احتذاء اساليب الفحول من شعراء العرب المتقدمين كما كان امير الشعر العربي في ذلك الحين سامي البارودي يفعل في مصر

هذه الحركة التي قام بها عنحوري مهدت السبيل لخليل مطران او قل جعلته يجرؤ على تحميل الشعر العربي تلك الصور والاغراض الجديدة التي لم تعرف لها العربية من مثيل في كل تاريخها الأدبي على اساس من اطراد المشاعر وتسلسل الخواطر وانتظام الخيال. ومهما يكن رأي البعض في شعر مطران ، وان مذهبه الشعري ليس واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار . فان اتجاهات الرجل الفنية في الشعر واضحة جلية فيما قدمنا وستكون اساساً لدراستنا لفنه الشعري

(خاتمة) طوى الشعر العربي صفحته المجيدة بسقوط الدولة العربية عن عرش الخلافة الاسلامية . وظلت هذه الصفحة مطوية طيلة خمس قرون من عصور الانحطاط، حتى قدر لها أن تنشر في القرن التاسع عشر صفحة جديدة على يد سامي البارودي ، غير ان هذه الصفحة نشرت من الصفحة القديمة لهذا كانت اتباعية الاتجاه . وفي عام ١٨٩٤ طلع مطران ينشر للشعر

(١) المقتطف ، المجلد ٦٨ ج ٦ (يونيو ١٩٢٦) ص ٦٣٧ — ٦٣٩

العربي صفحة جديدة من الاغراض الجديدة المستمدة من روح العصر ، ومن ذلك التاريخ وقف مطران في تاريخ الادب العربي الحديث واقعاً مشعل الابداعية وممثلاً الاتجاه الاول للتجديد في الشعر العربي غير ان حركة التجديد التي قام بها مطران عام ١٩٠٨ في الشعر ، حيث نشر ديوانه « الخليل » لم تكن الحد الفاصل بين القديم والجديد ، لان هذا الحد يرجع بضع سنين الى الوراء الى عام ١٨٩٤ ، حين نظم مطران القطعة الاولى من ديوانه من الاغراض الابداعية

ومطران وان سلك مسلك الجديد من ذلك الحين ، فهو من قبل سلك طريق القدماء في نظم الشعر فلم تحبهُ فأعرض عن الشعر ثم عاد اليها مجدداً . وجمع شعره الذي نشره على فترة تقرب من خمسة عشر عاماً في « ديوان الخليل » تبين لك مقدار ما انتهى اليه من التجديد بالنسبة لما كان عليه من قبل ، وهو يعرض لك نموذجاً لما قاله من الاغراض الابداعية . وبعد فقد تأثر باتجاهات مطران الجديدة نفر من شعراء العربية ، وهذا التأثير وان ظهر بقوة من بعد نشر ديوانه ، الا أنهُ كان يستجمع الأسباب للظهور في شعراء ذلك العصر ، من اليوم الذي اعلن فيه ثورته على الأغراض الابداعية . وأنت يمكنك ان تلمس هذا التأثير واضحاً فيما نظمهُ شاعر مثل ابراهيم بك رمزي عام ١٩٠٠ في الاغراض القصصية ، خصوصاً في منظومة « سيرة يوسف الصديق » التي نظمها شعراً في اثنتي عشرة قصيدة من اروع الشعر القصصي العربي هذا الى انك تلمس معالم تأثر شعراء العقد الاول من القرن العشرين بالاغراض الجديدة التي ينظم على اساسها الشعر خليل مطران ، من مراجعته لشعر نفر من شعراء ذلك العصر ، نذكر منهم نقولا رزق الله الذي يعود تأثره بمطران الى عام ١٩٠٠ حين نظم منظومة « كليوباترة » من الاسلوب العصري الذي استحدثهُ الخليل . ثم عندك القصائد التي قفى بها منظومته والتي انتوت على مر السنين في فترة تزيد على عشرة اعوام ، كلها تنطق بآثار الحركة الجديدة التي استحدثها الخليل

على ان هذا الأثر توضح واستبان في العقد الثاني من قرننا هذا ، اذ ظهر في مصر شاعران كبيران هما الدكتور احمد زكي ابو شادي وعبد الرحمن شكري ثم ظهر في اواخر الحرب خليل شيبوب الذي هبط مصر عام ١٩٠٨ من موطنهِ باللاذقية ، والذي ينفرد من بين المتأثرين باتجاهات مطران . بأنهُ لا يزال الى يومنا هذا أميناً للعناصر التي يقوم عليها مذهب مطران في نظم الشعر . وهو في ذلك عكس زميليهِ اللذين استقلا بمذهب لهما في قول الشعر مع الزمن ، وان كان مذهبهما يقوم على أساس من مذهب الخليل . فعبد الرحمن شكري كان ذهابهُ الى انكلترا سبباً لوقوعه تحت تأثير المذهب الطبيعي الانجليزي وكان ان تغلبت عليه نزعة التشاؤم نتيجة لعوامل تتصل بنفسه فاستقل بمذهب في الشعر يقوم على اساس التأمل والتفكير الخصب الذي يماشي الشعر العميق الذي يشوبه نسمة من الكآبة وسرعان ما اجتذب شكري لاتجاهه شخصيتين صارتا من اعلام

الأدب العربي اليوم . هما عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني الأ ن اتحاد استقل مع الزمن باتجاه جديد عن اتجاه شكري ، وضحت خطوطه وتمايزت في دواوينه الأخيرة بينما ظل المازني حتى اللحظة التي انصرف فيها عن الشعر تحت تأثير اتجاهات شكري الفنية في الشعر

اما الدكتور أبو شادي فهو تفاؤلي النزعة وقد أقام مدرسة شعرية عام ١٩٣٢ عرفت بمدرسة « أبولو » ونجح في ان يجعل شعره محور حلقة أدبية قوية ، تأثر بلونها الشعري بعض شعراء الشباب ، الا ان انفراط عقد المدرسة باحتجاب مجلتها الشعرية « أبولو » وبانصراف مؤسسها عن العربية الى الانجليزية كانت سبباً لان يفقد شعر ابي شادي تأثيره المتواصل في العالم العربي . هذا الى انهُ في الوقت الحاضر ينظم الشعر في الانجليزية (١)

هذا ... ومحاولة الخليل ان كانت في قيامها قد استندت الى أساس من الاحتفاظ باصول اللغة وأساليبها فهي في الشام وفي المهجر السوري اللبناني بالاميركيتين . انطلقت من قيود اللغة ، وكان من ذلك الأدب الأميركي الذي فرض سيطرتهُ على العالم العربي فترة ما قبل الحرب العظمى . فلما انقضت سنوات الحرب وانتثر عقد زعماء المدرسة العربية بأميركا ، قامت في القطر الشامي ومصر تحت تأثير الاخيرين محاولات شعرية وسطاً بين مذهب مطران ومذهب أدباء المهجر الذي ذهبوا في التطرف مذهباً جريئاً خرجوا به على الاسلوب العربي وأصول اللغة ، هذه المحاولات تتمثل اليوم في آثار عمر ابو ريشه وعلي الناصر بسوريا والياس فياض وأمين نخله والدكتور حبيب نايت وسعيد عقل وسلاح لبكي وخليل زخريا وتقولا يسترس في لبنان وحسن كامل الصيرفي وشعر دارس في مصر

على ان موجة التجديد ان كانت قوية في القطر الشامي لأسباب سبق لنا الاشارة في هذا البحث . إلاّ إنها خافتة في مصر ، حيث لا يزال الى اليوم المذهب القديم يتحكم في الأذهان . خصوصاً بعد وفاة الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٦ . وهذا يرجح عندنا ان تكون لبنان وسوريا موطن الشعر الحديث في العالم العربي في المستقبل ، كما هما اليوم موطنه (٢)

اما ما يزعمهُ بعض الناقدين من ان مطران لم يؤثر بعبارته أو بروحه فيمن أتى بعده من المصريين من الشعراء ، لان هؤلاء كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من مصدره ويطلعون على الأدب الاوربي من مصادره الكثيرة ، وانهُ ليس للاستاذ مطران مكان الوساطة في الأمرين (٣) فهذه دعوة يردُّها الواقع من جهة ، كما يثبت زيفها اعترافات أكابر شعراء العربية من الآخذين بأسباب الجديد كأبي شادي وشكري والمازني بأثر شعر مطران في شعرهم (٤)

---

(١) Leonard S. Harker في كتابه Blazing the Trail – ١٩٣٨ ص ١٢١

(٢) I. A. Edham, Romantic Current in Modern Arabic Literature مجلة Z. R. G. I. م ٣٨ ص ٣١١ — ٣٣٤ و ٤١٦ — ٤٣٧ (٣) عباس محمود العقاد في «شعراء مصر وبيئاتهم» ص ١٩٩ — ٢٠٠ (٤) أبو شادي في أثناء التقريظ ١٢٨ وفي تقاريظ من براع في الأدب والاجتماع ج ٢ ص ٣

الحرية

لشاعر الانكليزي اللورد تينسون

(١٨٠٩ — ١٨٩١)

جلست الحرية في القدم على الاعالي ، وكان الرعد يلمع عند قدميها وكانت السموات المكوكبة تتوج فوق رأسها ، وفي أذنيها صخب اصطدام التيارات

جلست هناك منتبطة ، قنوعاً بعقلها الكشاف . ولكن
مقاطع من صوتها المدوي جاءت محمولة على أجنحة الرياح .

ثم هبطت الى الحقول والمدائن ، واختلطت بالبشر وأزاحت
النقاب رويداً رويداً ، وأشرقت بوجهها الكامل على الناس.

يا أم الاعمال الجليلة النفسة ، الرانية الينا من مذبحها .
يا من تحمل كالأرباب الشوكة المثلثة ، وتلبس التاج كالملوك

إن عينيك العسجديتين تطلبان الحقيقة . إن فيهما ألف سنة من
الحكمة! ياليت الشباب الدائم يحتفظ بنورهما متلألئاً فلا تغشيه الدموع.

يا ليت قوامك الحسن يظل منتصباً لامعاً يضيء أيامنا، ويخفف
قتام أحلامنا ، ويحقر بشفتيه القدسيتين أكاذيب المتطرفين

نبات بلا تراب

تطور جديد عجيب
في علوم الزراعة[1]

اذا زعمت ان هناك طريقة جديدة للزراعة تمكن الزارع من ان يحصل من بقعة معينة على ٢١٧ ضعفاً من الطماطم حيث كان لا يفوز الا بخمسة اضعاف ، فالغالب انكم ستحملون كلامي على محمل المبالغة ، على الاقل . ولكنني اطلب اصغاءكم لاروي لكم قصة هذه الحجة الحديثة :

من الامور المشهودة في بلد زراعي كمصر ان النباتات تنمو نمواً طبيعياً اذا اشتمل غذاؤها على العناصر الاساسية . واكثر هذه العناصر يوجد في الهواء والتراب والماء والاسمدة الطبيعية والكيماوية . والفلاحون يعرفون ان النتراتِ والفصفات والسلفات وغيرها من المركبات الكيماوية تحتوي على عناصر لا بدَّ منها في تغذية النبات وكثيراً ما يطالعون اسماءها في الاعلانات المنشورة في الصحف والاذاعات والنشرات التي تذيعها المكاتب الحكومية المختصة . يقابل ذلك في غذاء الانسان ، المواد الزلالية كالبيض والنشوية كالسكر والدهنية كالزيوت ، ثم الاملاح على اختلافها

الا ان العلم الحديث اثبت ان الانسان يحتاج علاوة على ما تقدم الى مقادير يسيرة جداً من مواد حيوية تدعى الفيتامينات اذا كانت غير موجودة في غذائه افضى ذلك الى اصابته بامراض مختلفة

هذا الاكتشاف وما تفرَّع عليه من عجائب البحث والتركيب والشفاء في الانسان ، نبَّه علماء النبات الى ضرورة البحث بحثاً علمياً في حياة النبات وهل غذاؤها يعتمد على العناصر الاساسية المعروفة او يجب ان يشتمل كذلك على مقادير صغيرة من بعض المواد الكيماوية الحيوية لكي يكون نموُّه صحيحاً وما هي تلك المواد .

وكان السؤال الاول الذي عجب الاجابة عنهُ في هذا الصدد ، كيف السبيل الى معرفة العناصر اللازمة وتمييزها عن العناصر غير اللازمة في حياة النبات . والجواب البدهيُّ هو زرع نبتة معيَّنة في تربة خالية من ذلك العنصر ومراقبة نموِّها مدَّة . ثم اضافة ذلك العنصر الى غذائها اي الى المواد التي تُسمَّد بها تُربتها ومراقبة نموِّها كذلك ثمَّ الموازنة بين نموِّها اولاً ونموِّها

(١) من حديث في العلوم الموسطة اذاعه رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة المصرية

ثانية وهذه الطريقة هي المتبعة في دراسة انواع الفيتامينات باجراء تجاربها على الحيوان

الا ان هناك صعوبة تعترض البحث في ملخص النبات. فالتربة كثيراً ما تحتوي على مقادير صغيرة جداً من عناصر ومركبات كيماوية تتعذر ازالتها . بل قد يتعذر الكشف عنها بالكواشف المعروفة . ولما كان الغرض من هذه التجربة ازالة كل اثر من آثار المادة التي تجرَّب التجربة بها من التربة ، حتى لا يختلط اثرها علينا ، فالتربة لا تصلح وسطاً لهذه التجربة

فعمد العلماء حينئذٍ الى زرع النبتة في ماء قطر اولاً تقطيراً دقيقاً ثم اضيفت اليه مركبات العناصر الاساسية اللازمة لنموّ النبات مثل تراب الصودا وسلفات النشادر وغيرها . ثم تُزرع النبتة في هذا الوسط ويُراقب نموُّها . ثم يضاف الى الماء مقدار صغير من عنصر معيَّن ويراقب تأثيرهُ في حياة النبات . هذا هو البدأ

***

كان الناس يعتقدون حوالي القرن السادس قبل المسيح ان النبات يستمدُّ كل غذائه من الماء. ولكن النبات إذا امتصَّ الماء بواسطة جذوره، امتصَّ معهُ المعادن المحلولة فيه. حتى في هذا العصر ترى مَن لا يصدق ان النبات يستطيع ان يتناول دقائق الاجسدة بواسطة جذوره وذلك بان هذه المواد الجامدة يجب ان تحلَّ في الماء اولاً قبل ان تستطيع النفوذ من خلال الاغشية النباتية الرقيقة في الجذور . واذن فستطيع ان محيط الجذور يحلول مائي ، وتستطيع هذه الجذور ان تستمدَّ منهُ جميع العناصر اللازمة للنمو اذا كانت تلك المواد والعناصر محلولة في الماء ، واذن فني وسعنا ان نقول ان التربة ، من الناحية النظرية غير لازمة لنموّ النبات . ولم تكشف هذه الحقيقة الا سنة ١٦٩٩ اذ زرعت نباتات في الماء لاول مرة في التاريخ على ما نعلم . ذلك ان باحثاً يدعى وودورد زرع نوعاً من النباع وآخر من البطاطس في ماء من قناة ، وفي ماء من نهر ، وفي ماء من نبع ، وفي ماء مقطَّر . ولم يكن غرضهُ البحث في المواد الغذية الحيوية اللازمة لنموّ النبات بل ان يعلم هل يحتوي الماء على موادَّ محلولة فيه تكفي لغذاء النبات وخرج بان الماء غير المقطَّر يحمل بعض « المادة الارضية » اللازمة لنموّ النبات

وكان الخطوة الطبيعية التالية ، ولو جاءت متأخرة في حساب الزمان ، ان يضيف الانسانُ الباحث الى الماء المقطَّر العناصر المختلفة حتى يعيِّن منها ما يجد النبات لا يستغني عنهُ . فجاءت سلسلة من التجارب قام بها الباحثون لتحديد المقادير المختلفة من العناصر التي تجعل نموَّ نباتٍ ما اتمَّ ما يمكن ان يكون . ونحن نعلم الآن من هذه التجارب ان النبات يحتاج الى مقادير يسيرة جداً من عناصر معيَّنة علاوة على المركبات الكيماوية المشهورة مثل الفصفات والنترات وغيرها

ومن هذه العناصر البور (البورون باللغة الانكليزية). وهو عنصر مشهور يستعمل في محلول

الحامض البوريك لغسل العيون وتطهيرها وفي مسحوق البورق لمعالجة الجراح ومنع التقرّح بين الابهام وهو كذلك سامٌّ في بعض الاحيان . فانك اذا رششت بضعة ارطال من البورق في ما مساحتهُ فدان من الارض المزروعة بالبطاطس فتلك بالمزروعات جميعاً . وقد حدثت نكبة من هذا القبيل من بضع سنوات اذ رشَّ في ارض مزروعة بطاطس ، سماداً معين ثبت فيما بعد انهُ يحتوي على بورق فتلفت المزروعات كلها

ومع ذلك ، فالنباتات تحتاج الى مقادير يسيرة جداً منه لكي يكون غذاؤها كاملاً ونموها صحيحاً وقد ثبتت حاجة نبات الطاطم الى هذا العنصر بالطريقة التالية : —

اخذت نبتتان من نبات الطاطم من اصل واحد . وزرعت كل منهما في سائل مغذٍّ يشتمل على العناصر الغذائية التي تحسب عادة لازمة لنمو النباتات وكان السائلان مماثلين في كل شيء الاَّ في شيء واحد . ذلك ان احدهما كان يحتوي على مقدار صغير من عنصر البورن وأما الآخر فكان لا يحتوي على أثارة منهُ . وقد بلغ هذا المقدار الصغير جزءاً من ٢٠٠٠٠٠٠ (مليوني) جزء من السائل . فكانت النتيجة ان النبتة التي في السائل الاول اي السائل المحتوي على البورن نمت نموًّا طبيعيًّا وأورقت . وأما الثانية وهي التي زرعت في السائل الخالي من البور فكانت ضامرة سقيمة . ثم قلبت الآية . فنُقلت النبتة التي في السائل الاول الى السائل الثاني فسقمت وضمرت ، ونُقلت الثانية الى السائل الاول فنمت نموًّا سويًّا

فلما ان البور في السائل كانت نسبته ١ الى مليوني جزء من السائل . ومع ذلك استطاعت النبتة ان تحس بوجوده وتستفيد بهِ . فمثلها في ذلك مثل رجل يتناول حساء (شوربة) فلا يجد في مرجل يتسع لثلاثين نفراً من الحساء الاَّ حبة حمّص واحدة او كتلة واحدة من اللحم

بل الغريب في هذا ، انهُ اذا زاد مقدار البور عما تقدم أصبح وجوده ذا اثر ضارّ . ولكن النبتة تكون اسوأ حالاً اذا كان سائلها من غير بور على الاطلاق ، منها اذا كان مقدار البور منهُ غير صالح . والنبتة التي في سائل خالٍ من البورق تصاب اذا تركت فيه ، بما يأتي : يقف جذعها عن النمو طولاً وتموت انسجة الجذع الموصلة للسوائل الحيوية ، وهي مؤلفة كالانابيب فلا يخلى من انابيب دقيقة تنقل فيها تنقلهُ الكر الذي يركب في الاوراق الى الجذع ليخزن فيه . فاذا عجزت الانابيب عن نقل الكر من الاوراق تحول فيها النشاء فتكثف الاوراق وتلتفُّ وهذه الحالة تشبه مرضاً نباتيًّا يدعى بالانكليزية «رول ليف» أي «التفاف الاوراق»

وللنبات دهاء عجيب في انتزاع البور اين يجدهُ . فقد زرع من سنوات نبات البطاطس في إناء خزفيّ مُلئ برمل الكوارتز المغسول . وكان هذا النبات يتغذى بما يرش بهِ الرمل من السوائل المغذية . فنما النبات نموًّا صحيحاً . ثم استؤصل هذا النبات وزرع غيره فلم ينمُ مثلهُ . وبعد

ما عرف مقام البور في تغذية النباتات عرف الباحثون ان طلاء الاناء الخزفي كان يحتوي على قليل من البور فامتصته النبتة الاولى ولم تبق عليه . ثم زرعت النبتة الثانية فلم تجد في المحلول الغذائي بوراً ، لا في زمن الكوارتز ولا في صلاء الاناء فخفت وذوت

هذه التجارب التي كانت علمية محضة ، افضت كما يفضي كل بحث عاجلاً او آجلاً ، الى التطبيق العملي . وهذا التطبيق العملي قائم على زرع النباتات التجارية المستعملة في الغذاء خاصة في ماء تضاف اليه المحلولات الغذائية اللازمة لها حتى يكون نموها اتم ما يكون ومحصولها اكبر ما يكون

فقد قرأت في المجلات العلمية الاميركية والانكليزية ، ان نبات الطماطم زرع بهذا الاسلوب المستحدث فارتفع حتى اضطر قاطف ثمره ان يستعمل السلم في الوصول الى الثمر الذي في اعلاه وكان محصوله عظيماً . ففي تلك المنطقة كان محصول فدان المزروع طماطم خمسة اطنان من الطماطم ولكن الطماطم الذي زرع في الماء اعطى محصولاً — لو عدّل بسطح الحوض الذي زرع فيه — بلغ محصول الفدان ٢١٧ طناً اي نحو ٤٣ ضعفاً . وبلغ اعظم محصول البطاطس في الفدان بالولايات المتحدة الاميركية ١١٦ بشلا وكان ذلك في سنة ١٩٣٤ . ولكن البطاطس المزروع في الماء المغذّى بافضل محلول لتغذية البطاطس اعطى محصولاً بلغ معدّله ٢٤٦٥ بشلا بالفدان . اي اكثر من ٢١ ضعفاً . وزرع نبات التبغ (اي الدخان) فبلغ ارتفاعه ٢٢ قدماً . وهذا يصرف النظر عن تحسّن الصنف او تأخره بازدياد النمو في النبات

وقد زرع البنجر والجزر بالطريقة نفسها فكان المحصول مما يبعث على الدهشة والاستغراب لكبره

وقد الفت شركات في اميركا لزراعة الطماطم والفراولة بهذه الطريقة . وتجرّب التجارب الآن بطائفة مختلفة من النباتات الزهرية والثمرية

اما الاسلوب المتبع الآن في هذا الفرع الجديد العجيب من فروع الزراعة فقد استنبطه وانقنه الدكتور جريك Gericke المساعد لأستاذ فسيولوجيا النبات في جامعة كاليفورنيا الاميركية ، بعد سبع سنوات من البحث والتجربة . وأساس هذه الطريقة استعمال الماء الغائر في احواض من الخشب المتين او الاسمنت المسلّح واضافة العناصر اللازمة لنموّ النبات على اتم وجه — كما اثبتها تجارب من قبيل التجارب التي اشرنا اليها . وحرارة الماء تختلف على الاكثر بين ٢٢ درجة مئوية (سنتغراد) و٣٠ درجة مئوية ويحتفظ بحرارته بواسطة سلك يجري فيه الكهربائية ، وهو الغالب او بطرق اخرى . ويوضع على سطح الحوض شبك من السلك الدقيق يغطى بطبقة من القش او ما هو شبيه به تزرع فيه البذور حتى لا تقع في الماء فاذا انتشت (اي افرخت) تدلت الجذور الى المحلول فتمتص منه الغذاء

وهذه الطريقة فتحة جديدة من فتحات البحث العلمي للعمران . ولنا اليها عودة

التصوير الفني

في القرآن الكريم

بقلم
سيد قطب

في المقال الأول تحدثنا عن نوعين من أنواع التصوير الفني في القرآن الكريم: « صور قلية » وتحدثنا في ... وفي هذا المقال نتحدث عن النوعين الأخيرين

٣ — حوار فني

في القرآن كثير جداً من الحوار، وهو سلب كل قصصه تقريباً، وكل مناقشاته لمخالفيه في العقيدة. ولكن الحوار الفني الذي سأضرب له الامثال هنا، هو ما يشتمل على عنصر الخيال، ويجتاز بهذا الخيال، إلى دائرة الفنون الحرة، وميدان الآداب الطليق (١)

١ — « وبرزوا لله جميعاً، فقال الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء؟ قالوا: لو هدانا الله لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. وقال الشيطان لما قضي الأمر: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم، وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل. إن الظالمين لهم عذاب أليم ». وفي هذا الحوار البارع، يبدو لك المنظر مؤلفاً من ثلاث فرق:

أولاً: الضعفاء الذين كانوا تبعاً للاقوياء. وهم ما يزالون في ضعفهم، وقصر عقولهم وإحساسهم، يلجئون إلى الذين استكبروا في الدنيا، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف، أو يعتون عليهم إغواءهم متشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة

ثانياً: الذين استكبروا، وقد ذلت كبرياؤهم، وواجهوا عاقبتهم وهم ضيقو الصدور بهؤلاء الضعفاء، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب، فيسألونهم الخلاص، وهم لا يملكون لأنفسهم خلاصاً أو يذكرونهم بجريمتهم معهم حيث لا تنفع الذكرى، فما يزيدون على أن يقولوا لهم: « لو هدانا الله لهديناكم »

ثالثاً: الشيطان. بكل ما في طباعه من مراوغة ومغالطة واستهتار وتبجح و(شيطنة) يعترف لأتباعه

---

(١) يصلح هذا الموضوع لبحث مستقل، يتناول الحوار في القرآن وصلاته بالمقلية البرية العامة، ووسائلها في البرهنة

— الآن فقط — أن الله وعدهم وعد الحق ، وأنه هو وعدهم فأخلفهم ثم يمضهم ويؤنبهم وهو ينفض يديه من تبعاتهم : « وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » لا بل يزيد في تبجحه فيقول « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » الله . الله . يا لها الشيطان !

في الحق إن هذا إبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتنكر فيه الشيوع لتابع ، ويتخلى الولي عن الاولياء ، حيث لا يجدي أحداً منهم أن يتخلى أو يتمسك ، ولكنها طبيعة كل فريق تسيره دون تفكير . وفي الحق إن الشيطان هنا منطقي مع نفسه ، ومع الصورة التي رسمها القرآن له ، وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذا التلاعب والتبجح والانكار . والموقف بما فيه من هذا الحوار التصويري ، موقف فريد من الوجهة الفنية البحتة ، وله أثره العميق في النفوس ، ولولا أن هذا البحث خالص ، لتوسعت في بيان قيمته من وجهة الدعاية الدينية ، ولكن حسبنا الاشارة

٢ — « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعاً ، فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : انا كل فيها . ان الله قد حكم بين العباد » . وفي هذه الصورة ملامح من تلك : وهي تكرار لبعضها ، مع تغيير طفيف حين تبدو الملالة في قول المستكبرين : « انا كل فيها » فهي قولة الضجر وحرج الصدور ، الذي لا يطيق كلاماً ولا جواباً

٣ — ومن هذا النحو : « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا ! »

وفيها ما يشير الى الشيظ وحب الانتقام يجيش في صدور الضعفاء ، فيتمنون لو يجازون اولياءهم صاعاً بصاع . ولكن هيهات !

٤ — وفي موقف نوح من ابنه عند الطوفان : « وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

في اللحظة الرهيبة تثب عاطفة الأبوة ، ومع اعتقاد نوح كنبي ان ابنه مغرق لأنه لم يؤمن فقد ضغت عليه عاطفة الأبوة ، وراح في لهفة وضراعة يدعو ابنه . ولكن النبوة الحاقة ، لا تحفل هذه العاطفة ، والفتوة القوية ، لا ترى الخلاص الا في عملها وفتواها : « سآوي الى جبل »

وفي لحظة اخرى تتغير صفحة الموقف ، في تعبير خاطف ، يصور الموجة العاتية ، تبتلع كل شيء في لحظة « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين »

وللحوار بقية بين الله ونوح ، ولكن الجزء الذي أثبتناه ، لم يدع مجالاً للنظر فيما وراءه بما تركه في النفس من روعة خاطفة وقيمة ساهمة

٥ — ومن الحوار المتع المصور للحالة النفسية ، ما يدور بين اهل الجنة واهل النار: « ونادى اصحابُ الجنة اصحابَ النار : ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا . فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ قالوا : نعم . واذّن مؤذّن بينهم ان لعنة الله على الظالمين »

« ونادى اصحابُ النار أصحابَ الجنة : ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا : انّ الله حرّمهما على الكافرين »

فهذا الحوار المختصر في ذينك الشأنين بديع في اختصاره ، مصور لحالتي الفريقين اتم تصوير وفي مبدئه تهكم خفيٌّ من المؤمنين ، بأولئك الذين كانوا يكذبون بما وعدهم الله ، حتى اذا تم « اذّن مؤذّن بينهم » . وبين الداعين تصوير للأعراف ، وما يقع عندها من احداث يضم الى القسم الأول من اقسام التصوير الفنيّ ، ويصلح مادة للاحم خصبة[1] ، ومناظر سينمائية

٤ — تعبيرات فنية

في القرآن غير الأنواع الثلاثة التي مرّ ذكرها ، تعبيرات فنية مختصرة ، ترتفع الى الذروة في دقة التعبير وجماله ، وانصاحه عما يتصدى له من مناظر طبيعية ، او خطرات نفسية ، او طبائع خلقية . وفيما يلي نماذج منها

١ — « والصبح اذا تنفس »... فمن ذا الذي يقرأ هذا التعبير ، ثم لا تنبعث في نفسه خيالات شتى ، تصور له كل حي في هذه الدنيا ، ينفض عن نفسه رداء النوم ، عند انبلاج الصباح ، وتدب فيه الحياة والحركة ، وتشيع فيه النشوة واليقظة ؟

وهي بعد جملة واحدة ، بل لفظة واحدة ، تخلق هذا المثال الثائر من الاشعاع ، وتمد الخيال بذخيرة ، تنشط لها النفس الحية ، وتستشعر التفتح والاستروح

٢ — « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »... تقرؤها فتتصور التهالك على الحياة في احط صورها ، وأقل مراتبها ، بلا شرط ، ولا تمييز بين حياة وحياة . فوراء هذا التنكير والتجهيل ماوراءه من تحقير وتصغير ، يربط بالحياة التي يحرص عليها هؤلاء الناس المقصودون ، الى مرتبة حياة الديدان والحشرات والهوام ، دون أن يساق لهذا المعنى لفظ ناب ، ولا تعبير مستكره !

٣ — « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرَقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات او مُدّخلا لولوا اليه وهم يجمحون » . فأي تعبير عن الحين ، وتأصل الخوف ، وسقوط الهمة ، واعتياد التخلف ، أبين من هذا التعبير المختصر المصور ، الذي لا يواجهك بالوصف ، بل يترك لك استنباطه ، بعد متعة للخيال في التصور اللطيف ؟

---

(١) كتب الشاعر المبدع المرحوم الاستاذ محمد عبد المعطي الهمشري ملحمة بعنوان « شاطىء الاعراف »

٤ — «وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض : هل يراكم من احد ؟ ثم انصرفوا» !

يا لسخرية من قوم لا يحتملون تبعة رأيهم ، ولا يحبون أن يقوم الدليل عليهم ، فيهربون من مواجهته ، وهم يتخافتون بينهم ، ليتأكدوا أن أحداً لم يرهم وهم يهربون

ويا للخيال المتع يصور بهم ، وهم يتسللون ، بعد أن نظر بعضهم الى بعض . وقد أمنوا الرقيب

٥ — « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سُكّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ! . وهذه صورة للمكابرين الصغار ، الذين لا تنبع مكابرتهم من اعتداد بالنفس والرأي ، بل تنبع من الجهل والاستغلاق والعناد المطموس فلا يبالون وضوح الدليل ، ولا بضاعة الحجة ، ولا يخافون سقوطهم بسبب هذا العناد المفضوح

٦ — « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ . ضعف الطالب والمطلوب » . أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره بما يفضي الى السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ؟

« لن يخلقوا ذباباً » هذه درجة . « ولو اجتمعوا له » وهذه اخرى ، « وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منهُ » وهذه انكى وأشد ، وليس وراء ذلك من ضعف حقير

ولكن : هذه مبالغة ؟ أو هل البلاغة فيها هي الغو ، كما يفهم الكثيرون ان ذلك مدار الاستحسان في يقرءون !

كلاّ ، فهذه حقيقة واقعة بسيطة ، فهؤلاء الآلهة الذين عبدوا من دون الله — وأرقام ما كان أناساً — « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ، ولكن الاعجاز في خلقه هو الاعجاز في خلق « الحياة » وهي أكبر شيء وأعظم شيء في الوجود . وما تزال الحياة في أول صورها مستهوّلة مستعظمة ، بجانب الموت الجامد ، والفناء المتراخي

ولكن البراعة هنا في عرض هذه الحقيقة ، بصورة تكشف العجز عن بلوغ مسألة هينة صغيرة في ظاهرها

ولعل في هذا ابداء سريعاً لرأي في المبالغة وعلاقتها بالبلاغة وان كان الموضوع يتسع لبحث كبير

٧ — «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقطُ من ورقةٍ إلاّ يعلمها ، ولا حبّةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ الاّ في كتاب مبين »

في هذه الكلمات القليلة تصير قوي رهيب عن شمول علم الاله ، مختار له افضل الألفاظ المعبرة ، فضلاً على التركيب كلهُ ، فليس عبثاً أن يقال : « وما تسقطُ من ورقةٍ الاّ يعلمها » وليس لغواً ان يقال : « ولا حبّة في ظلمات الارض » وان الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ومجاهلها ، ليتبع هذه الاوراق الساقطة ، وتلك الحبات المجهولة المشمولة في مخابئها بعلم الاله

٨ — « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح » . شريط سريع العرض جداً للحياة ، يبين الغرض المقصود من عجيم قصرها وسرعتها . وهو غرض ديني ليس من شأننا أن نبحثه هنا ، ولكننا نبحث الصورة وحدها في جمل ثلاث قصيرة ، تتضمن ثلاث حالات سريعة متداخلة ، ينتهي عرض « شريط » الحياة!

ماء نازل من السماء ، اختلاط هذا الماء بالنبات ، النبات هشيم تذروه الرياح!

وبين هذه المراحل الثلاث الخاطفة ، مراحل أخرى طويلة ، ولكنها في الواقع ثانوية في الصورة وفي حياة النبات ، ولهذا يعتبر ذلك التصوير صادقاً مع اغفاله المراحل الطويلة الثانوية التي لا حاجة اليها في الغرض الحاضر ، وإثباته المراحل القصيرة الاساسية

وتلك هي المهارة في التعبير ، مع الصدق في المحو والاثبات

كلمة تحليلية

لم يكن قصدي مما قدمت الا ضرب الأمثلة ، ولفت النظر ، فلم أكن أنوي الاستقصاء ، وما يزال وراء ما ذكرت كثير مما لم أذكر ، والموضوع خصب وصالح للدراسات المستفيضة . والمتهون في دراسة الآداب ، بالجامعة والازهر ودار العلوم (بعد اصلاحها) يستطيعون ان يضعوا هذا البحث ، رسالة قيمة للنقاش والدراسة

ولكن من الحق ان اقرر ان ما لم اذكره صورة مما ذكرته ، وكلاهما يلتقي عند لون واحد من ألوان الأدب الفني . وهذه الانواع الاربعة التي مثلت لها ، تلتقي كذلك عند هذا الاصل ولهذا لا بد من الابتدار والتعجل ، الكلام على التصوير الفني في القرآن ، هنا من وجهة النقد الادبي ، يميل الادب العربي كله الى « الكلاسيك » حيثما يميل الى الصور الذهنية ، والتقاليد التعبيرية ذات القوالب المضبوطة المحدودة ، التي تستعار من حالة ، الى كل حالة تشابهها . ولذلك مال النقاد والعرب ، الى تحديد صور العواطف والانفعالات ، وتحديد صور التعبير عنها كذلك

ولذلك غلا بعض ادبائهم ، فانكر نفسهُ وزمانه في سبيل الجري وراء الصور الذهنية والصور التعبيريّة ، في مخلفات الاجيال السابقة واعتبروها نوعاً من الطقوس لا ينزع عنها !

ولكن الأدب العربي لم يعدم التنويع في اساليبه واتجاهه الى حدٍّ ما

فقد دخلت فيه « الرمزية » عن طريق « الصوفية » التي ترمز بالظاهر للباطن ، وترى خلف كل محسوس ظاهر ، معنويًّا مخبأً وراء الحجب ، تملاء البصائر « بالاشراق » وتقصر دونه الابصار . وهذا اساس لا بأس به للرمزية في الأدب

ولكن حدث أن « الصوفية » ظلت طريقة دينية اكثر منها طريقة أدبية . وظلت بمعزل عن الادب العام ، فلم تؤثر رمزيتها فيه الا بمقدار ، ولم تستطع تحويلهُ عن مجراه الاصلي ، وعن

وجهته الكلاسيكية . ويعتبر ابن الفارض أبرز مثل لرمزية الأدب العربي ، وهي كما يراها الباحث رمزية خفيفة ، مناسبة للوسط العربي

وقد دخلت « الرومانتيكية » كذلك دخولاً خفيفاً جداً في الأدب العربي في العهد العباسي وفي الاندلس ، وازدادت الى حدٍّ ما في أيامنا هذه وإن كانت آخذة في الانحسار ، تبعاً لانتشار المذهب « الواقعي »

دخلت الصور الموشاة المظللة في الشعر ، ورسمت صور الأبطال والمواقف والمناظر ، ذلك الرسم الهين تحت اشعّة ساجية ، وأحاطت الهالات المرسومة عن قصد بالعواطف والمرائي ، وتبع ذلك ظهور التعارض والاصطناع وهما من عيوب الرومانتيكية ، حين تغلو في طريقتها

أما « الواقعية » فقد استعاض عنها الادب العربي قديماً ببساطته وجيشه ، ولو انحرف قليلاً فصار اليها ، وإن الباحث في بعض الانتاج الادبي في الجاهلية ، وفي الشعر الماجن ايام العهد العباسي ، ليجد في كليهما ملامح من « الريالزم » الحديث

لى اي هذه الألوان الاربعة يخضع التصوير الفنّي في القرآن ؟ يجد الباحث مشابه كثيرة فيه من « الرومانتيكية » وان كان هو سابقاً لظهور هذا المذهب في اوربا وفي الشرق ضمناً ولكنها «الرومانتيكية» الخفيفة ، البعيدة عن التكلف والاصطناع

فتلك الصور الفنية التي يرسمها ليست « كلاسيكية » ذات قوالب وحدود . وليست « رمزية » ولا تميل الى الرمزية ، فليس وراءها ما ترمز اليه ، وإنما هي مقصودة لذاتها . وليست «واقعية» مجردة من الخيال والتوشية والظلال . ولكنها أشبه ماتكون بالرومانتيكية

وليس في ذلك كله من عجيب . فالقرآن يمثل العقلية العربية والاتجاه العربي في التعبير ، إذ كان خطاباً للعرب أولاً ، وسجلاً لارقى طبقة معجزة من بلاغتهم

والعقلية العربية لاتميل الى الرمز ، ولا تجد حاجة اليه وهي تكره التوشية والظلال والاغراق في البعد عن المحسوس الملموس ، والرومانتيكية لايهمها المحسوس بمقدار ما تهمها الصورة الخيالية

فلا غرابة أن تأتي العربية عن الرومانتيكية الموغلة ، ويكتفي القرآن بالصور الأولى منها في تصويره الفنّي

اما لماذا لاتميل العقلية العربية الى الرموز والخيالات فهي طبيعة بلادها تأويل ذلك . فليس في هذه البلاد محجوب ، ولا مسؤول مجهول ، فلا داعي اذن لاغراق الخيال ، ولا ضرورة حينئذٍ للرمز ، وكل شيء مكشوف معروف . ثم إن الصراحة التي جبل عليها العربي نتيجة عدم خضوعه لنظم سياسيّة او اجتماعية او اقتصادية قاهرة تميل به عن الرمز الى التصريح

تلك عجالة في هذا البحث البكر الخصب ، ولعلها تكون مقدمة لبحث شامل كبير ان شاء الله

كشف ناحية جديدة في علاج :

تولد الامراض

والدفاع ضدها والمناعة

للدكتور نجيب فرح (١)

— ١ —

﴿ تأثير البرقان في شفاء الالتهاب المفصلي الشبيه بالروماتيزم ﴾ في المؤتمر العالمي للأمراض الروماتيزمية الذي عقد في مدينة باث في انجلترا في ابريل سنة ١٩٣٨ عرض هنش Hench أحد أطباء عيادة مايو الاميركية ما لاحظهُ من تأثير ناجع لليرقان في الالتهاب المفصلي الشبيه بالروماتيزم وفي الروماتيزم المفصلي . وقد دونت هذه الملاحظة في محضر المؤتمر صفحة ٣١٥ فأثارت أشد الاهتمام بين المؤتمرين . وتلخص هذه الملاحظات السريرية في أن حالة المصابين بالروماتيزم تتحسن بمجرد ظهور اليرقان الذاتي او الناتج من الانسداد تحسناً سريعاً وعظيماً مدة تتفاوت بين الثلاثة أسابيع وأشهر عديدة دون ان يبلغ هذا التحسن في أية حالة مبلغ الشفاء التام . غير ان ظهور هذا اليرقان لم يكن يتبعه أي تحسن في بعض حالات الروماتيزم ولا سيما التقرس

إن ظاهرة التحسن هذه قد شوهدت عرضاً فلاحظها بعض الأطباء ومنهم ويشارت Wishart سنة ١٩٠٣ وجاء بعده من أيدها أمثال هنش نفسه سنة ١٩٣٣ وسيدل Sidel وناتان Nathan وابرامس Abrams سنة ١٩٣٤ وبورمان Borman سنة ١٩٣٦ وطمسن Thompson ووياث Wyatt سنة ١٩٣٨ وقد حاول هذان الأخيران ، بل توصلا منذ عهد قريب الى معالجة المصابين بالالتهابات المفصلية الشبيهة بالروماتيزم معالجة ناجعة بحقنهم في الوريد بالمادة الملونة للصفراء (المعروفة علمياً باسم بليروبين Bilirubin) والأملاح الصفراوية

وقد جاء البروفسور ڤيل Veil ببيان في مؤتمر باث نفسه أدرج في صفحة ٣٣٢ من محضره في أثناء مناقشة هذه المسألة فأيد ملاحظات هنش بذكره حادثة حمى روماتيزمية تضاعفت بالتهاب

(١) هذا ملخص المحاضرة الطبية العلمية النفيسة التي القاها الدكتور نجيب فرح في المؤتمر السنوي الحادي عشر للجمعية الطبية المصرية والمؤتمر الطبي العربي الثاني المنعقد في القاهرة من ٢٩ يناير الى ٢ فبراير سنة ١٩٣٩ وينتظر ان يطبع نص هذه المحاضرة كاملا باللغة الفرنسية في مجلة الجمعية الطبية المصرية

سحائي وحالما ظهرت اعراض اليرقان في العليل تظهرت جميع أعراض هذه الحمى وهذا الالتهاب

ومما يدلُّ أبلغ الدلالة على هذه الظاهرة الطبية ان الفصايين أصحوا يقولون — على ما جاء في مقالة هنش في المؤتمر — « إذا دخل اليرقان من الباب الأمامي خرج الروماتيزم من الباب الخلفي » او « أبيع روماتيزمي باليرقان في أي يوم »

وقد تنسى لنا في المؤتمر نفسه[1] ان نوجه النظر الى ان المشاهدات مدار البحث قد تحيد تمليلاً من اختبارات قمنا بها وعرضناها على المؤتمر التاسع للجمعية الطبية المصرية (القاهرة ديسمبر ١٩٣٦) ثم نشرت في مجلة اللانسيت[2] مما يؤيد اكتشافنا في سنة ١٩٣٣ أن التوموكوك يحدث الروماتيزم الحقيقي وهي تتناول «ما تؤمنهُ المادة الملونة للصفراء من دفاع في حالات الاصابة بالتوموكوك» . ثم اتينا بحثاً موضوع تأثير هذه المادة في دفاع الجسم عند الاصابة بالحمى التيفودية[3] وكذلك موضوع « وجود المادة الملونة الصفراوية في الدم والتشخيص المميز بين الروماتيزم الحقيقي والروماتيزم الدرني — بونسيه Poncet »[4]

— ٢ —

« ماهي المادة الملوَّنة الصفراوية — بليروبين » هي المادة الملوَّنة التي تدخل في تركيب الصفراء والصفراء سائل يفرزه الكبد . ويمكن ثبت ان المادة الملوَّنة الصفراوية يفرزها في انسان الجسم جهاز يعرف باسم جهاز الشوف القارمي Retiendo-endothelial system وهو عبارة عن شبكة تحوط اعضاء الجسم جميعها احاطة تجعل هذه الاعضاء على اهبة الدفاع عن اي مكان بالجسم عند الاقتضاء

ورأينا القائم على اختباراتنا وتجاربنا حتى في مايتعلق بهذه الظاهرة المتغربة — ظاهرة شفاء التهاب المفاصل الشبيه بالروماتيزم عند حدوث اليرقان — تقوم على ان المادة الملونة الصفراوية سواء منها ماتكوَّن به موضيًا (ريتش Rich ١٩٢٥) أو ما انقذف منها في دورة الدم (Bilirubinaemia) تأثيراً له شأنهُ في المقاومة والمناعة ، وما المقاومة والمناعة في الواقع الا عمل هضمي يسطو على الجراثيم التي تقتحم الجسم فيتغلب عليها ويهضمها

— ٣ —

« تكاثر المادة الملونة الصفراوية او تناقصها في الدم » يختلف تولد المادة الملوَّنة الصفراوية في الدم باختلاف الناس . ثم يختلف في الانسان الواحد في حالتي الصحة والمرض . فيزداد مقدارها او يسير الى النقصان في الدم بحسب طبيعة الجرثومة التي يجب على الجسم ان يكافحها[5]

(١) محضر المؤتمر صفحة ٣٣٢ (٢) ٢٧ فبراير ١٩٣٧ (٣) جريدة امراض البلدان الحارة والوقاية في لندن ١ فبراير ١٩٣٨ (٤) تقرير مؤتمر أكسفورد لتعلمي الامراض الروماتيزمية والمعالجة المائية ١٩٣٨ صفحة ٢٠٦

(٥) تحقيب فرح ١٩٣٨ — جريدة امراض البلدان الحارة وعلم الصحة بلندن ج ٣ ص ٤٠

مثال ذلك ان هذه المادة تزيد في الدم عند ما يصاب الجسم بجرثومة « التوموكوك » فتؤثر فيها تأثيراً يدفعها الى التلبُّد فالانحلال (١)

ومن الغريب ان المادة الملوِّنة الصفراوية تقلُّ غالباً في الدم بدلاً من ان تزيد اذا كانت الاصابة بباشلس ايبرث Eberth المسبب للحمى التيفودية . ولكن هذا الامر الغريب يفهم على صحته متى علمنا ان المادة الملونة الصفراوية من خير الموادالتي يتغذَّى بها هذا الباشلس ، وان الجسم يقلِّل من مقدارها في الدم دفاعاً عن كيانه لئلاَّ تكون كثرتها في الدم باعثاً على تكاثر الباشلس ونموّه وتمريض الجسم لفتكه . وعندنا ان هذا الاسلوب الدقيق الذي يكيف به الجسم مقدار المادة الملوِّنة في الدم وفقاً لحالته يرجع الى سيطرة نظام الغدد العم في الجسم ولكن هذا الموضوع في حاجة الى مزيد من البحث والاستقصاء

ثبتت صحة هذه الملاحظة بقياس مقدار المادة الملوِّنة الصفراوية في الدم بطريقة فاندبرج Van Den Bergh ثم تأيدت بنتيجة التجارب التي اجريناها على الأرانب

فالارنب لا توجد في دمه — على ما أثبتنا — هذه المادة الملوِّنة الصفراوية(٢) ولذلك لا يؤثر فيه باشلس ايبرت المسبب للتيفود على الغالب . غير ان الارانب التي حقناها بهذا الباشلس ثم حقناها يوميًّا بالمادة الملونة الصفراوية ماتت جميعاً بمرض التيفود اذ انشأت فيها حالة مفتعلة لوجود المادة الملوِّنة الصفراوية في دمها induced Bilirubinaemenia يؤيد هذا أن المصابين بالتيفود تتفاقم اصابتهم اذا صاحبتها الاصابة باليرقان . فاذا ما حقنت الارانب وهي في حالتها الطبيعية بهذا الباشلس في اوردتها تلاشى بسرعة وافية وذلك لعدم وجود المادة الملونة الصفراوية في الدم على نحو ما اثبتناهُ ، ولذلك لا يصلح دمها لنمو هذا الباشلس وتكاثره ، يدلُّ على ذلك وجود الباشلس عادة بعد حقن من هذا القبيل في المرارة ، وهذا يجعل الارنب في حالته الطبيعية ناقلاً للتيفود وان كان لا يصاب بها فيكون من اسباب العدوى بها في الانسان

﴿ ماذا يحدث في حالة الاصابة بالسل ؟ ﴾ — ومن جهة اخرى نرى انهُ في حالة الاصابة بالسل الرئوي — وما هذا الداء الا علة تصيب جهاز التنفس كما تصيبهُ ذات الرئة الناشئة عن جرثومة التوموكوك وحيث تتعرَّض انسجة الرئة للاندثار مع ارتفاع درجة الحرارة كثيراً ويتضخم الكبد احياناً — يتناقص مقدار المادة الملونة الصفراوية في الدم ويلوح لنا ان هذا النقص قد نشأ من التفاعل الذي يتذرع به الجسم للتغلُّب على باشلس كوخ . ويؤيد رأينا هذا ان الارانب — ودمها على ما اثبتنا خلو من المادة الملونة الصفراوية — لا تصاب عادة بالسل في حالتها الطبيعية . ثم يؤيدهُ ان ظهور اليرقان في مصاب بالسل ينبئهُ بتقدم في سير العلة على

(١) نجيب فرح ١٩٣٧ اللانسيت ج ١ ص ٥٠٥ (٢) نجيب فرح مجلة اللانسيت ١٩٣٧ عدد ١ ص ٥٠٥

اتجاه الى نزف الدم مما ينذر دائماً بسوء العاقبة

فاذا كانت هذه الوقائع حقيقية — كما نعتقد — فان للأخذ بها شأناً كبيراً في علم تولد الامراض كما انها تضيف وسيلة من وسائل دفاع الجسم ضدّ الجراثيم التي تجتاحهُ ولا ريب في ان هذا النجاح سيوجه الاستقراء الطبي على سبيل سوي محجتهُ خير الفرد والمجموع

— ٤ —

(تجانس الملاءمة في نظام دفاع الجسم) قلنا انهُ ثبت لنا بالتجربة ان المادة الملونة الصفراوية تزداد في الدم عند ما تهاجم الجسم جراثيم التوموكوك الثائرة فتبلدها توطئة لحلها وهضمها . ولكن من غريب طبائع هذه الجراثيم ، انها تكون حيناً ثائرة وحيناً مستكينة . فاذا كانت ثائرة قاومتها المادة الملونة الصفراوية على الوجه المتقدم . اما اذا كانت مستكينة فليس لهذه المادة تأثير فيها . حتى ولو ازداد مقدارها في الدم ازدياداً كبيراً يفضي الى اليرقان . وهذا يثبت ان جراثيم التوموكوك قادرة على الملاءمة بين نفسها وبين الوسط الذي تكون فيه. فاذا كانت ثائرة وتعرضت لفعل المادة الملونة الصفراوية عمدت الى التبرعتتحول مستكينة بعد ان يكون فريق كبير منها قد سقط في ميدان الكفاح بفعل المادة الملونة الصفراوية . وفي حالة استكانتها لا تحدث اعراضاً مرضية ما . يؤيد هذا ان ما قمنا به من ابحاث حتى اليوم اثبت بغير عناء وجود التوموكوك بصورة اكيدة في كل ثقب وفم وحلق وبصاق وبراز كل شخص سواء أكبيراً كان ام صغيراً كما ثبت وجوده ايضاً في بول النساء وسوائل ارحامهن وهو يوجد غالباً في بول الرجال كما تحققنا من الابحاث التي اجريناها في حالتي الصحة والمرض منذ بدأنا باستعمال فصل الاربب الصغير السائل التي بانتظام لانماء الجراثيم ففي السائل تتكشف لنا هذه الجرثومة عن هيئتها الحقيقية

كان الظن عند كشف جراثيم التوموكوك انها تحدث ذات الرئة Pneumonia فقط ثم اثبت فريق من الباحثين انها تحدث حالات مرضية اخرى مثل التهاب البريطون التوموكوكي الخ ولكننا نرى ان تشكل هذه الجرثومة في اشكال متعددة — وجدت المس كوبر ان هناك مثلاً ٣٢ صنفاً من التوموكوك — قد يكون مسبباً لاصابات متنوعة مثل الروماتيزم على نحو ما اثبتناه في سنة ١٩٣٣[1] وذلك وفقاً لدرجات ثورانه. ومن الممكن ان يكون سبباً لامراض اخرى لم تزل جرثومتها الاصلية مجهولة او يفترض انها من نوع الڤيروس (كالانفلونزا مثلاً يظن ان سببها ڤيروس) . والڤيروس يكون اذ جزيئاً كبيراً من البروتين او من البوليساكريد . ولا يخفى ان جرثومة التوموكوك تنحلّ عند ما تفعل فيها المادة الملونة الصفراوية الى مواد بروتينية او بوليساكريدية ، وعلى ذلك فقد تكون المواد السامة الناجمة عن انحلالها سبباً في احداث امراض من النوع الذي يعزى الى الڤيروس

(١) في مجلة الفلانسيت وامراض البلدان الحارة ١٩٣٤

دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشر سيفين

﴿ آمن ﴾ — آمن ومعناه الخفي هو اله الشمس في طيبة ولا يزال هذا الاسم حيًّا الى اليوم على ألسنة المتدينين من سائر الامم يختمون به صلواتهم وادعيتهم سائلين المولى ان تستجاب بقولهم آمن وآمين . ولما اتسع ملك مصر وأصبحت امبراطورية في زمن الاسرة الثامنة عشرة أصبح آمن لذلك امبراطور الآلهة ورب الارباب كافة فعزيت اليه صفات الآلهة المشابهة وخصوصاً را وأدمج الاسمان معاً فصار يعرف باسم « آمن را »

﴿ رموزه — ١ — السفينة ﴾ — شبهت الشمس في حركتها اليومية المستمرة بالسفينة وسميت لذلك سفينة ملايين السنين . وكان يصنع رمز على هذا المثال ويخطط من الخارج بألوان الجمشت وهو حجر كريم لونهُ بنفسجي والزمرد ولونه نيلي والياشب ولونه أخضر واللازورد وهو أزرق والذهب وهو اصفر فيكون من تألف هذه الالوان ما يشبه الشفق زيادة في احكام التمثيل . وتوضع هذه السفينة في الهيكل على اعتبار انها المسكن الرمزي للاله . وكان الملوك يتقربون اليه بأهداء هذا الرمز الى المعابد ويحرصون على أن يسجلوا ذلك على جدرانها . وممن سجلوا لانفسهم هذا الفخر « حرحور » اول ملك من الكهنة مؤسس الاسرة الحادية والعشرين فانهُ أوفد كاهناً يدعى أونو آمن الى سوريا لشراء الخشب اللازم لأنشاء سفينة جديدة للاله

ولا يزال لهذا الرمز حرمة عند العامة وكثيراً ما يرى في اضرحة الأولياء وهم يروون الروايات المختلفة في سبب اسناده اليهم ووضعه في أضرحتهم

وأشهر تلك الأضرحة ضريح السيد ابي الحجاج الأقصري وهو والمسجد قائمان على اطلال معبد آمن . والسفينة التي فيه مخططة بالألوان المأثورة عن سفينة آمن . فاذا كان يوم عيد صاحب الضريح وضعت السفينة على عربة ويطاف بها في المدينة ومن حولها جموع الناس يهتفون . وأغلب الظن ان ذلك كان من عادة أهل طيبة الأولين في أعياد آمن

وكما شبّه الأقدمون الشمس بالسفينة فقد شبّهوا القمر كذلك بالقمر للمطابقة وقالوا في تفسير تعاقب الليل والنهار ان الله الشمس عند ما تحدر به السفينة من المغرب الى العالم الثاني يموت فيسود الظلام . ثم يبعث ويخرج من المشرق فيملأ الدنيا بنوره وذلك العالم الثاني واسمه عندهم دوات آلهة وعلى رأسهم آمارو اليهم مآب الأرواح وعندهم الميزان لحسابها . ووصف بانه ينقسم الى اثني عشر منطقة والنهر يجري في سائرها الا الأخيرة ولكل منطقة باب عليه آلهة لا تأذن لأحد باجتيازه الا ان يذكر اسمها . وقد حرص القدماء لهذا على ان يضعوا مع موتاهم رقعاً من البردي فيها اسماء سدنة الأبواب وكثير من الادعية لكيلا ينسوا . وقد اجتمع لدى الأثريين من هذه الرقاع مجموعة كبيرة أطلق عليها اسم كتاب الموتى

وعلى جدران مقبرة سيتي الاول بطيبة اخبار رحلة را في ذلك العالم وصورها

والذي يعنينا منها في هذا المقام ما جاء فيها عن موت را وبعثه وخلاصة ذلك ان را عند ما تحدر به السفينة الى العالم الثاني من المغرب تثقل روحه وقسه الى « خبر ـ را » الاله الذي يرمز له بالخنفسة المعروفة بالجعل أو الجعران . وعند ذلك يتولى نفيف من الآلهة اقتياد السفينة الى نهاية النهر في المنطقة الحادية عشرة . اما المنطقة الأخيرة المسماة « بشاطئ الملاد » « لأن فيها يبعث را فهي بالرحم اشبه . اذ قيل في وصفها انها عبارة عن جوف ثعبان هائل فاذا صارت السفينة في اولها وقف خبر را على المقدمة شيئاً فشيئاً بعث را وتولى اثنا عشر نفراً من المؤمنين جرها بالحبال حتى اذا دنت من الفم وهو نهاية الدوات تسلم الحبال من المؤمنين اثنا عشر آلهة وهؤلاء يجرونها الى الافق الشرقي . وهناك يذرّى جسد را لتليق من السفينة كما تذرّى الصافة من الحب . اما روحه وقسه فتمكثان في خبر را الى النهاية حتى يبعث من المشرق فيستقبل بالهتاف والنشيد

ولا يزال كثير من هذه الأناشيد محفوظاً وفي احداها يشبه الشروق بالخروج من الرحم في اول فقراتها وهذه ترجمتها «سلاماً ايها السيد الخارج من الرحم » وفي نشيد آخر يخاطب را بما معناه «ان الآلهة تسر برأسه عند ما ينبثق من الطل آتياً من بلاد العرب (أي الشرق) »

ومن العجيب ان تكون خلاصة هاتين الفقرتين في فقرة من المزمور العاشر بعد المائة وهي «شبابك يتندى في يوم قوتك في زينة مقدسة من رحم الفجر لك طل حداثتك »

وقد نسجت قصص كثيرة على منوال هذه الأسطورة اقدمها رؤيا يوحنا . وقد أثبت أن فيها كثيراً من الاقتباس من الاسطورة في مقال بعنوانه « الكوميديا الالهية » نشر في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٢ . واجتزىء هنا من هذا المقال بمقارنة بين المدينة المقدسة النازلة من السماء في الرؤيا وبين سفينة الشمس الخارجة من المشرق في رحلة را

يقول صاحب الرؤيا في الأصحاح الحادي والعشرين « وذهب بي — أي الملك — الى جبل عظيم عال وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من عند الله ولمعانها شبه أكرم حجر كحجر يشب بلوري » ثم يزيدنا عنها بياناً بقوله « وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم : الأساس الاول يشب، الثاني ياقوت أزرق ، الثالث عقيق أبيض ، الرابع زمرد ذبابي، الخامس جزع عقيقي، السادس عقيق أحمر، السابع زبرجد، الثامن زمرد سلقي، التاسع ياقوت أصفر، العاشر عقيق أخضر، الحادي عشر اسمانجوني، الثاني عشر جمشت »

تشبه هذه المدينة في زينتها وفي كونها تنزل من السماء عند جبل عال سفينة رأى مطلعها في الأفق من المشرق وهي مزدانة بأبهى الألوان تتلألأ بالانوار

ويقول الرسول بعد ذلك « والمدينة لا تحتاج الى الشمس ولا الى القمر ليضيئا فيها لان مجد الله قد أنارها » ويقول ايضاً « سمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو يسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الهاً لهم »

وهذا الوصف لا ينطبق على شيء انطباقه على سفينة رأوها بحسب اعتقاد الأقدمين مسكن الله الشمس وهو الذي ينيرها ومتى تظهر في الأفق يصبح الأله مع الناس

ومن هذه الرحلة الخيالية استلهمت عقيدة البعث اذ قيل ان الموت ليس نهاية الانسان ولكنه كغروب الشمس فراق الى حين يعقبه بعث ونشور في عالم أفضل من هذا العالم . وقد انكسرت شوكة الموت وخفت مرارته منذ كان للناس في هذه العقيدة مصطبر وعزاء جميل

٢ — ﴿ الكبش ﴾ — في الصحراء حيث النهر والسفينة هما أبعد الاشياء عن خيال مكانها رمز لآمن بحيوان مما يألفون وهو الكبش لتنويه بمقامه كرب الارباب . لان الكبش عند اهل البادية عنوان على الزعامة كما في قول العرب فلان كبش قومه اي سيدهم وزعيمهم . ذلك لان من خليقته اذا خرج في قطيع من الغنم أن ينفصل عنهُ ويتقدم عليهِ كعادة الزعماء والقادة

ولهذا فان آمن يصوَّر وعلى رأسهِ تاج من قرون . ولما زار الاسكندر المقدوني معبد آمن في واحة سيوه ولقبهُ الكهنة هناك بابن الاله اتخذ لنفسه لباساً للرأس على هيئة قرني الكبش محاكياً بذلك تاج الاله وكان يظهر بهِ في الاحتفالات الرسمية فكان من ذلك تلقيبه بذي القرنين

ومن الآثار الباقية لهذا الرمز في طيبة تماثيل الكباش التي على جانبي الطريق المعروف باسمها الذي انشأه امينوفيس الثالث ليصل بين الكرنك ومعبده الذي شيده لآمن في الاقصر وزاد في عمارته رمسيس الثاني وفي القرن الرابع عشر شيد مسجد ابي الحجاج على جانب من البهو الذي بناه هذا الملك

﴿ انتشار الديانة المصرية ﴾ — انتشرت عبادة آمن را في الأقاليم الجنوبية مع امتداد النفوذ المصري

فيها . ولا يزال في مروى وهي في موضع بانا التي كانت عاصمة مملكة النوبة في الزمن الخالي أطلال معابد باسم آمن را واهرام . وهي في سفح جبل يعرف الآن باسم بركل وكان اسمهُ باللغة القديمة توابر أي المقدس

ومن الآثار الثمينة التي وجدت فيه لوحة للملك يعنخي ملك النوبة الذي غزا مصر في زمن اوسركن الثالث من ملوك الاسرة الثالثة والعشرين وفي هذه اللوحة وصف شامل لهذه الغزوة وآيات على تدينه وشدة تمسكه بعبادة آمن را . من ذلك انهُ لما دخل طيبة قدّم الذبائح للآلهة وامر عسكره اذا ما بلغوا ابواب الكرنك ان يتمشوا في النهر ثم يلبسوا ثيابهم عند الشاطىء وأوصاهم ان يلقوا سلاحهم ويرخوا خيلهم وان يكف الرؤساء عن التفاخر بقوتهم ما دابوا امام آمن فانهُ لن تدوم للاقوياء قوتهم الا ان يخضعوا له . وهو يقوّي الضعفاء ويشدّ اذرعهم المرتخية ويدخل الرعب في الجيش الكبير فيولّي الأدبار امام فئة قليلة . ويعطي قوة الرجل الواحد فيغلب الفاً

ولما تمّ له اخضاع سائر الامراء واستتب له الأمر في البلاد ذهب بنفسه الى بيت الشمس العتيق في هليوبوليس ليقدّم الشكر للآلهة راعلى ما أولته من النصر « دخل المعبد بافرح والتهليل . وبعد الانتهاء من مراسم العبادة للشمس المشرقة ألبس الملك العباءة وتعطّر بالطيب والماء البارد . ثم جيء له بأزهار نباتات بردي . فأخذ الأزهار وهبط الدرج الموصل الى النافذة الكبيرة التي يعاين منها را . وقف الملك وحده ووضع المفتاح في القفل وفتح مصراعي الباب فرأى أباه را في مطلعه »

آلهة العالم الثاني

﴿ خبر را ﴾ معنى خبر باللغة القديمة المدحرج وهي تطلق على الحشرة المعروفة بالجعران لكونها تضع بيضها في الجعر وهو ما يخرج من الامعاء ولا تزال تدحرجهُ وتضيف عليهِ حتى يكون من ذلك كرة كبيرة . فتدفنها في جفرة وتتركها فيها حتى تتم حضانة البيض فاذا خرجت صغارها وجدت الجعر الذي جعل حولها فتتغذى بهِ

وقد اضيف هذا الاسم الى را لانهُ مثلها يدحرج بيضه وهي الشمس من مشرقها الى مكانها الخفي في المغرب فسمي خبر را . ولما كان اكثر ما يطلق هذا الاسم على را عند بعثه من المشرق فقد جعل من آلهة العالم الثاني وعزي اليهِ انهُ هو الذي يعيد را الى الحياة ويبعثهُ من الأفق

وكان من أثر ذلك عند الأقدمين ان اصبح الجعران رمزاً للبعث فكانوا يصنعون من انواع الحجر المختلفة والخزف مثل هيئة الجعارين وينقشون عليها ما شاءوا من الأدعية والرموز الموافقة لرغباتهم في طول البقاء وحسن المآل ويجعلونها حلية في أصابعهم او على صدورهم او يكتبون

عليها شذرة من كتاب الموتى ويضعونها مع موتاهم ليتقعوا بها في العالم الثاني . ومن هذه الانواع المختلفة الشيء الكثير في المتاحف وعند الافراد

﴿ آسار ﴾ تروي الأساطير ان آسار او عازار وباليونانية اوزيريس هو الذي علّم الناس فلاحة الأرض وزرعها واستنبط المحراث وأستأنس الثور وروّضه على جرّه فأخرجهم بذلك من حالة الفطرة وشق لهم طريق الحضارة . غير انه كان له أخ اسمه ست حسده على المقام الذي صار له بين الناس بصالح الأعمال فأسرّ في نفسه ان يقتله واتفق مع نفر من انصاره على ذلك فما زالوا به حتى استدرجوه الى حفل لهم ثم اغروه على ان ينام في صندوق أعدوه لذلك فلما فعل اطبقوه عليه فمات ثم قطع ارباً ونثرت اشلاؤه في انحاء البلاد

ولما علمت إيزيس وهي زوجه بما اصابه جزعت عليه جزعاً شديداً وتلكما الحزن ثم اصطحبت من البردي زورقاً طافت به في النيل باحثة عن أشلاء زوجها . وكانت كلما وجدت جزءاً خبأته عندها ثم اقامت معبداً حيث وجدته ايهاماً للعدو بأنها دفنته في هذا المكان . وقيل انها وجدت الرأس عند أبيدوس فاعتبرت هذه المدينة لذلك منذ أقدم العصور اهم مركز لعبادته وشيد فيها اهم معابده ولما اجتمعت لدى ايزيس سائر الأشلاء ردت اليه الحياة بقدرتها ومكث معها وقتاً قصيراً أوصى في خلاله هيرو وهو حورس ابنه ان ينتقم من ست فلما بلغ أشده عمل بوصية ابيه وأخذ بثاره فدعي لذلك المنتقم لابيه وأصبح عنوان البطولة عند الاقدمين واني اظن لهذا السبب ان لفظة hero الافرنجية بمعنى بطل هي من اسم هذا البطل المصري . وفي يوم وقد آذن ربا بالمغيب ودع زوجه وابنه وداعاً مؤثراً ثم رفعه ربا اليه في السماء وحمله معه في سفينته الى العالم الثاني . ومنذ ذلك الحين اصبحت مملكته هناك وهو الذي يحاسب الموتى على أعمالهم في الدنيا فالذين اطاعوا وعملوا صالحاً لهم جنات النعيم والذين عصوا وخالفوا شرائعه لهم النار خالدين فيها وعذاب شديد . وصار لذلك يعبد على هذا الاعتبار وترجى رحمته وشفاعة ايزيس زوجه يوم الحساب . وأصبح العجل الذي روّضه لخدمة بني الانسان الأثر الدال على فضله وانزمن الحي للسيد الذي عاش بينهم لهدايتهم

ومما يلاحظ مع العجب ان الأسماء التي يقترن ذكرها في كتبنا بالبعث وبالعالم الثاني مثل لعازر الذي قيل ان المسيح اقامه من الموت وعزرائيل ملك الموت واسرافيل الملك الموكل بالصور ينفخ فيه يوم القيامة . هذه الاسماء جميعها كثيرة الشبه بالاسم القديم عازار او اسار والاحرى انها مستحدثة منه

والعجل المقدس كان يدعى حاب واسارحاب وفي زمن البطالسة سمي سيرابيس وأوزيريس ابيس ثم اختصر الى ابيس وقد غلب عليه الاسم الاخير ولا يزال يعرف به الى الآن

وقد وصفه هيرودوت المؤرخ اليوناني المشهور وكانت زيارته لمصر في زمن انفرس بقوله انهُ عجل اسود في جبهته مربع ابيض وعلى ظهره رسم لسر وفي ذيله شعرات مزدوجة وعلى لسانه جعل ويلوح لغرابة هذه العلامات واستحالة توفرها ان الوصف خيالي لكن هذا لا ينفي انهُ كان لاختياره شروط وان ذلك كان لحكمة هي ان يقتصر التقديس على افراد من العجول دون سائر الجنس تفادياً مما وقع فيه الذين يقدسون البقر اطلاقاً من الهنود ويحرمون لذلك ذبحه

ووصف هيرودوت احتفال المصريين به حين مجيئه لهم وسرورهم عليه فقال ان البلاد تصبح لهذه المناسبة في عيد شامل ويلبس المصريون أفخر ملبوسهم . وحدث مرة انهُ تجلّى لهم وقمبز عائد من حرب خسر فيها معظم جيشه . واذ رأى قمبز ان البلاد يشملها السرور هجس بنفسه ان المصريين انما يقيمون الافراح تكاية به وشماتة فيه . فاستقدم عماله الى منف . ولما مثلوا بين يديه سألهم ماذا لم يصنع المصريون شيئاً من ذلك من قبل وهو في منف ولم تطب لهم اقامة الافراح الا هذا اليوم لما عاد اليها وقد مني جيشه بخسارة كبيرة . فاجابوا بقولهم : ان القوم انما فعلوا ذلك لأن معبودهم قد تجلى لهم اليوم وكانوا في انتظار ذلك منذ زمان بعيد . فقال في نفسه انهم يكون . وبناه على هذا الظن أمر بقتلهم ثم استدعى الكهنة وسألهم عن جلية الامر فكان جوابهم كمن سبق . فقال انه يريد ان يرى بنفسه هذا الاله الذي ظهر للمصريين . فصرف الكهنة لاحضاره واذ دخلوا به عليه كان يبدو كأنهُ فاقد الوعي فاستل سيفه وطعن العجل يريد بقر بطنه فاصابهُ في فخذه وانفجر عند ذلك يقهقه ثم قال مخاطباً الكهنة : « ايها الأغبياء كيف تكون الآلهة من لحم ودم وينال منها الحديد . حقًّا انهُ لأله جدير بالمصريين . اني لأخالكم تمكرون بي من غير مبالاة ولن أذركم على ذلك بعد الآن . وعند ذلك أصدر أمره الى الموكلين بذلك من رجاله ان يجلدوا الكهنة ويقتلوا كل مصري يجدونه في لباس العيد . ومات العجل متأثراً من الجرح ودفن خفية من قمبز

وللعجول المقدسة حياة عظيمة في سقاره لا يزال فيها كثير من التوابيت الضخمة التي كانت تضم رفاتها . وقد وجد اسم قمبز منقوشاً على احدها ولعلهُ ناووس العجل الذي قتله

آلهة أخرى

(هاثور) معنى هاثور او « حت هيرو » مسكن هيرو . قيل سبب هذه التسمية ان هيرو سكن اليها في طفولته فأرضعتهُ اذ كانت أزيس أمه في شغل عنهُ بالبحث عن اشلاء زوجها

وهي في حقيقتها رمز الرحمة والعناية الربانية . وهذه القصة تصور للرحمة كيف تكون وللعناية كيف لا تغفل عن الضعيف والطفل الرضيع . ورمز لها في هذه القصة بالبقرة لأنها تعطي من ضرعها للاطفال وتسخو عليهم بلبنها لأشباعهم

ولسنت ها شجرة الجميز فكان من اسماء هاتور سيدة الجميزة لان هذه الشجرة اعتبرت آية من آيات الرحمة يلجأ اليها العاملون في الحقل وعابرو السبيل يجدون في ظلها الوارف غيثاً ووقاية من أشعة الشمس المحرقة . ولا يزال بعض اشجار الجميز القديمة حرمة عند العامة يسندون اليها الكرامات وينسبون لها الفائدة في شفاء بعض الامراض ويتقربون الى الله بوضع الازير تحتها ويملأونها بالماء من الرحمة ليستقي منها عابرو السبيل

وقد جعلت هاتور في موضع الرحمة في اسطورة انتقام رع التي لخصتها في المقال السابق . فان الاله لما أراد إهلاك الناس لعصيانهم أرسل أداة النقمة وهي سيخت التي تصور في التماثيل على هيئة أنثى لها رأس لبؤة وهي من اشرس الوحوش . فتمخضت في الناس حتى ادركت الاله الرحمة فحماهم وأمرهم أن يصنعوا من عصير العنب والشعير شراباً مسكراً ويسكبوه في الانحاء التي وقعت فيها المذبحة . وهنا تقمصت سيخت رمز النقمة بهاتور رمز الرحمة فقيل ان هاتور أرسلت كرسول انتقام فشربت من تلك الخمر حتى ثملت ونامت فنجا الناس من اطلاقها . وجعل الاله على الناس الاحتفال بهذه الذكرى وشرب الخمر في تلك المناسبة باسم هاتور فريضة لذكرى الخلاص

في مقال عنوانه أثر الاساطير في قصة خروج بني اسرائيل نشر في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ أوضحت أثر هذه الاسطورة في قصة الخروج . وقلت أن التمثال الذي صنعه بنو اسرائيل في برية سينا . كان تمثال بقرة وكان ذلك لمناسبة الاحتفال بعيد هاتور . وبنيت رأيي على ماجاء في التوراة انهم اخرجوا في شهر أيب وصنعوا التمثال في الشهر الثالث من ذلك التاريخ وهو يوافق توت اول الشهور الذي يحتفل فيه بعيد هاتور . وهو العيد الذي اشتق منه بنو اسرائيل الفصح والمصريون شم النسيم

﴿ الخاتمة ﴾ ألممت في دراستي للرموز بأشهر ما عرف منها عند قدمائنا . وخلاصة الرأي فيها انها كانت من خيال الفطرة لتعريف الله وتمثيل صفاته . وأحتفظ بها على سر العصور كميراث قومي من الماضي السحيق وذخيرة مقدسة . وجد الاقدمون لذلك عن تناولها بالتهذيب فأصبحت غاية بأزاء رموز الامم المجاورة التي يتجلى فيها قوة التخيل وجمال التصوير

وبالرغم من ذلك كان الدين ينطوي على اسمى المعتقدات وأكثرها روحانية فانتشر في اليونان وألف بلوتارك رسالة عن أوزيريس هي اوفى ما كتب عن هذا المعبود المصري . وأنشئت المعابد في روما للثالوث المؤلف من اسرة اوزيريس المقدسة . وانتقلت مع الفلسفة اليونانية الى سوريا وفلسطين وهناك تلقحت بالديانة اليهودية وفلسفتها وكانت نتيجة ذلك ثورة التجديد في الدين التي اجتاحت مصر وسائر العالم المتحضر . وانجلت المعركة بين القديم والجديد عن زوال الرموز التي لا خير فيها وبقاء المعتقدات لان فيها ما ينفع الناس وستكون هذه المعتقدات موضوع دراستي في المقال التالي

ابن الساعاتي[1]

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

﴿نشأة الشاعر﴾ ليس في المصادر التي بين أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الاَّ بضعة أسطر لابن خلكان وابن ابي أصيبعة وسواهما تذكر لنا ان اباه محمد بن علي بن رستم بن هردوز خراساني الأصل ونشأ وقد انتقل الى الشام وفيها عُرف بعلم النجوم وصنع الساعات وهو الذي صنع الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق في عهد نور الدين محمد بن زنكي وقد انعم عليه من أجلها ، وخلف هذا الرجل ولدين احدهما الشاعر بهاء الدين ابو الحسن علي والآخر فخر الدين رضوان وكان طبيباً لخدمته الايام فوزر للملكين الايوبيين العادل والمعظم

ولد الشاعر بهاء الدين في دمشق وقضى فيها الشطر الاكبر من حياته ثم رحل الى مصر فقضى الشطر الثاني هناك حيث توفي وهو في الحادية والخمسين، والظاهر انهُ لم يرحل عن وطنه الاَّ كارهاً مدفوعاً بطلب المال وحسن الحال . ولقد يشمّ من فحواه في تلك الآونة أن نفسه كانت مرة من فقره وعدم تقدير مواطنيه إياه

وقد اتصل بكثير من امراء الايوبيين ورجالهم من اعلام عصره فمدحهم ... وبرغم كل ذلك لم ينل منهم أيام اقامته في الشام ماكان يصبو اليهِ من تقدم وثروة ، ولم يحمل معهُ الى مصر غير الحاجة والمرارة والشعور بظلم الزمان . وبقي على ذلك مدة في وطنهِ الجديد ثم بدأت حالتهُ تتحسن . وفي السنوات العشر الاخيرة اصبح ذا بسطة ويسار

ولا نعلم هل اذا كان شاعرنا قد تعاطى شيئاً غير حرفة الادب فليس في شعره ولا فيما ترجم له ما يدل على ذلك . والذي نعرفهُ من شعره انهُ كان ربَّ عائلة وكان يقيم بالمحلة الكبرى وانهُ فقد في مصر ثلاثة من اولاده منهم اثنان ماتا حدثين فبكاهما في شعره بكاء الوالد الحزين ولم

---

(١) تلخيص للمقدمة التي وضعها الاستاذ انيس المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية لديوان ابن الساعاتي الذي قام بتحقيقه ونشره . راجع باب مكتبة المقتطف في عدد تموز الماضي

بعش بعدها اكثر من ثماني سنوات قضاها مصدوع الفؤاد ،وكان قد تجاوز الاربعين فصح أميل الى الجد والتفكير مخالفاً فلسفته الاولى في الحياة فبعد ان كان القائل :

تحياً تخاف الفقر أو ترجو الغنى ويداك تأخذ ما تشاء وتترك
فاجر صاحبة الليالي واصلاً دم كرمة في عرس هور يسفك

أمسى يقول في الدنيا ومرونها :

فلا تثقن منها بدهر فانها لأغدر أنثى لا تدوم على إنّ
أقل وفاء من شباب مودّع وأخضع في وقت الظهيرة من ظل
لايامها فينا ونحن رعيةٌ ولاية سوء لا تؤول الى عدل
تؤمل من آجالنا واهن القوى وتمسك من آمالنا واهن الحبل
ولسعي لها والحظ من زخرف الغنى وخضرتها خطب السوام من البقل

(٢ خصيته) لا بد للحكم على شخصية رجل ما من النظر في علاقاته الاجتماعية والاطلاع ولو جزئياً على صرف من حياته الفردية والعائلية . فاذا كان من الضروري عمدنا الى دراسة سيرته وتحليل اقوال الناس فيه ، ولاسيما الذين عاصروه وعاشروه وقابلنا كل ذلك بما يمكن عن اقواله من عواطف وما يتجلى فيها من ميول . على انه ليس لدينا في دراسة ابن الساعاتي وتصوير شخصيته غير ما نستنتجه من خواطره الشعرية .وهذه وحدها قد تحيد بنا عن سواء السبيل. فلا بدّ لنا من التأني والتحرز لئلا نرسم لشاعر صورة خلقية لا تنطبق عليه تمام الانطباق

والذي يتوضح لنا أنه كان من الظرفاء يحب مجالس اللهو والطرب ، وهذا الظرف بارز في قصائده الشامية وقد ظلت فيه هذه النزعة في مصر ، ولم يكن الغنى الذي يسعى اليه على ما يظهر إلاّ سبيلاً للحصول على المشتهيات والتمتع بأسباب السرور واذا كان هذا الميل قد خفّ فيه بعد موت أولاده فهو لم يخبُ في شعره تماماً ولم تتجرد منهُ طبيعته كل التجرد

ومما يبرز في ديوانه ميله الى التباهي بشعره وآله على طريقة المتقدمين ويساوق تباهيه بنفسه تهجمه على حساده ومنافسيه ولا سيما بعض أدباء الشام ، ولم يكن شاعرنا من ذوي الطباع الهادئة بل كان شديد الحرص على كرامته سريع الانفعال مما يمس سمعته فهو يرد لمنافسيه كيدهم ويطعنهم بأمضى من حرابهم وفي ذلك يذكرنا بالمتنبي وهو في حلب ، ولعل بين جوانح ابن الساعاتي شيئاً من تلك الروح الادبية التي كانت لأمير الشعراء ، فهو مثله نشأ في الشام ومثله قصد مصر بعد ان ضاقت به جوانب العيش وأصابهُ كيد الأعداء . على ان المتنبي كان أصلب نفساً وأبعد مرمى لا يحفل بطلاهي ولا تشغله عن أعز غاياته الشهوات

والمتتبع لمدائح ابن الساعاتي يلمح فيها تطوراً محسوساً من حيث المطالب والمرامي . فكان

أولاً ذا فاقة على المال فلا غرو ان يصرح في قصائده الشاعية بما يؤمله من نوال الممدوح كقوله :

إن ضاقت الأرزاق عن ذي فاقة فله سبيلٌ من نوالك شيّع

ولم يصرفه يقنعه عن الاستجداء ولاسيما في المدة الأولى على أنهُ صار بعد ان تحسنت أحواله يكثر من التهج بذكر المجد والعلى ، وأنهُ انما يطلبها لا المال كقوله : —

سرتُ دون الوفود ألتمس المجـــد وماروا لتائـل الضـاح

﴿ شعره ﴾ شعر ابن الساعاتي صورة صادقة لعصره الذي بلغت فيه الصناعة البديعية في النثر والنظم أقصى مداها وكان هو وابن الفارض فارسي هذا الميدان وانما يختلفان في ان ابن الفارض قصر شعره على الحب والتصوف. أما ابن الساعاتي فسار في سنن الشعراء من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف ومجون على أنهُ لم يأت بروائع توقد الشعور العالي بل قصر همه على الافتنان بالمحسنات اللفظية والمعنوية

ومن الانصاف ان نـ ه بمقدرته التخيلية التي تظهر في تشابيهه واستعاراته كقوله واصفاً حياته :

لا تحسبنَّ عطائب بلغ الغنى كهلاً وأخفق في الشباب المقبلِ
فاطلب تحكم في العقول مسنةً وتداسُ أول عصرها بالأرجلِ

ومن ظواهر هذه المقدرة شغفه بإيهام التناقض. وذلك بأن يأتيك بمعنى ذي وجهين متضادين يستحيل الجمع بينهما بحسب الظاهر كقوله :

نجلاً نسيف اللحظ يجرح مصدراً ونسيمه يمضي وليس يفوّقُ

ولهُ الكثير في هذا الباب . والحق يقال إننا قلما رأينا لشاعر ما لابن الساعاتي من التفنن بمثل هذه الدقائق والتوفر عليها . وقد تؤخذ عليه كثيره اصطناع بعض معان عرفت للمتقدمين من الشعراء وما ذلك عند التحقيق إلاَّ لوفرة المدخر في حافظته من أقوالهم ولحرصه الشديد على التفنن في ضروب المعاني فتأتي عفواً دون ان يفطن انهُ مسبوق اليها . أما أهم مزاياه فهي :

١ — إسرافه في الاناقة الفنية فهو شديد الولع بضروب البديع المعنوي واللفظي من تشبيه واستعارة وجناس وطباق وما الى ذلك . ومن ولعه بهذه الاناقة انهُ كتب الى القاضي الفاضل تسعة أبيات والتزم ان تكون قافية كل بيت منه وصف لون ، على ان هذا الولع بالبديع قد دفعه احياناً الى التصنع الذميم

٢ — ميله الى وصف الطبيعة ، وهو وصاف ماهر واكثر وصفه يدور على دمشق وغوطتها يصف الرياض وما فيها من مياه وأشجار وازهار وظلال ونسيم ، ويصف الظواهر الجوية من غيث وسحاب وبرق وثلج وشمس وقمر ونجوم وظلام ، ومجالس الانس والشراب وما فيها من اسباب اللهو ومجالي الشراب

على أن اوصافه المصرية لا تضاهي اوصافه في جمال الطبيعة الشامية ، ولعلّ ذلك لأنهُ قضى زمن الصبا والشباب بين غياض دمشق فكان لها التأثير الاعظم في نفسه . وقد بقي هذا التأثير في نفسه طيلة اقامته في مصر ، فلم ينس المطر والثلج والغدران والحدائق والحمام وما الى ذلك مما يألفهُ اهل الشام . واوصافه الشامية مقرونة ابداً بالحنين اليها والولع بمحاسنها

٣ — ولعه بالغزل ، ولهُ في هذا الفن سهم وافر ، ولا نعلم شاعراً عني عنايته بأن يجمع القطع الغزلية التي صدَّر بها قصائد المديح ويفردها ديواناً خاصًّا . وهو شديد الحرص على ان يكون التخلص من الغزل الى المديح تام الاتصال ، وفي ذلك يخالف البحتري الذي عُرف بالاقتضاب أو قطع الكلام واستئناف غيره بلا علاقة بينهما

على ان غزل ابن الساعاتي عموماً — على بلاغته الفنية — لا يستثير في النفس ما يستثيره غزل المحبين المدنفين الذين خاضوا غمرات الغرام وعرفوا بالاختبار تلك النواحي المحرقة وما تسببهُ من اضطرابات وآلام . بل هو من نوع الغزل الذي شاع كثيراً في العصر العباسي وسواد ويتجه الى وصف المحبوب وتواهر الحب وصفاً ينسج على منوال البديع ، فيكثر الشاعر من ذكر الدموع والجوى والسهاد والغراق والمطال والخيال والعهود والعذّال ، ويلهج بوصف الخدود والقدود والعيون والذوائب والثغور . ولنشر هنا في هذا الباب نفسه طويل قلما يجاريه فيه أحد حتى تكاد تكون مقدمتهُ الغزلية قصائد قائمة بذاتها اكثرها يتجاوز العشرين بيتاً أو الثلاثين ومنها ما يتجاوز الاربعين . وفي جميعها تشعر بمقدرته اكثر من شعورك بروحه ، وبأسلوبه اكثر من عواطفه

وغزله في اكثر الاحيان صنعة يبرز فيها جهد الشاعر وحرصه على الاتيان بالمحسنات البيانية وليس في ديوانه ما يشعر بانصرافه الى فتاة وقف صبابته واشواقه عليها ، بل هو حبٌّ عامٌّ سداه ولحمته الوصف فهو يصدق على كل شخص وفي كل حال . ولم يكن غزله الا توطئة للمديح لم ينظمه مدفوعاً اليه بشعور الجوى أو جمال الحبيب بل هو نسيج كلامي يتكلف حياكته واتقانه فلا يتجلى فيه تواجد جميل بن معمر وقيس بن الملوح وعمر بن ابي ربيعة وكثيّر عزة ، والعباس بن الاحنف وابن زيدون وابن زريق والبها زهير وسواهم ممن كان لهم القدح المعلى في هذا المضمار ولم يقتصر غزله على النساء بل تناول الغلمان

والخلاصة ان ابن الساعاتي فنان ماهر طويل الباع في استخدام الالفاظ للتعبير عن مقاصده واسع الحيلة في التلاعب بالمعاني البيانية . ولا شك انه في ذلك وفي المدح خاصة يقابل بالطبقة الاولى من شعراء العصر العباسي . على اننا اذا وازنّا بينهُ وبين معاصره الاصغر ابن الفارض وجدنا ان الثاني — برغم انصرافه كالأول الى البديع والى الغزل — أرقُّ حسًّا وأبعد خيالاً وله في الشعر رسالة خاصة لا نراها عادةً لامثاله من البديعيين

مجالى الفكر

الحديث

[في الاجتماع والفن والاقتصاد والتاريخ]

١ — السلطان في العالم الحديث

تأليف الفيلسوف برتراند رسل[1]

قال احد الكتّاب المشهورين في برتراند رسل : « انهُ فيلسوف متصوف والفلاسفة كالصوفيين يرون رؤىً . على ان اصحاب الرؤى ليسوا اضعف القوى التي تسيّر هذا العالم ولا اخمل الناس في ما يبذلونهُ من السعي لرفع مستوى الحياة » . وقال رسل نفسهُ : « ان نظري الى الكون والحياة كنظر سائر الناس وليد الحوادث والايام قدر ما هو وليد الطبع الموروث »

هذا الفيلسوف الاجتماعيُّ الكبير ، نشأ عالماً رياضيًّا من الطبقة الاولى ، وقد وضع مع الفيلسوف هوايتهد كتاباً في الرياضيات — مبادىء الرياضيات — يعدُّ من اهم مراجع هذا العلم في العصر الحديث . ولكن الحوادث والايام وجهتهُ الى الناحية الاجتماعية . وقد قال نفسهُ انهُ بقي ثلاث سنوات متردداً — بعد اتمام كتاب المبادىء — في ما عساهُ ان يتجه اليهِ من المباحث والاعمال . وكان حينئذٍ يدرّس في جامعة كمبردج ولكنهُ ايقن — وكأن يداً خفية كانت تحركه — انهُ لا بدَّ لهُ ان ينقلب من بحث المنطق الرياضي الى ميدانٍ آخر . وكانت الحرب الكبرى العامل الحاسم في توجيههِ الجديد . قال : « ولاول مرة في حياتي وجدت شيئاً يشغل طبيعتي بأسرها . ذلك ان اشتغالي بالمجرّدات من قبل كان قد ترك غرائزي الاجتماعية دون ما يكفيها .... ان الفطرة الوالدية التي لم تكن محققة فيَّ حينئذٍ ، حملتني على ان أغضب وأثور لمنظر شبان اوربا يخدعون ويساقون الى المجزرة لاكفاء الشهوات الشديدة التي تكتسح صدور كبارهم

(١) POWER. A New Social Analysis. By Bertrand Russell, Allen & Unwin Loudon 7/6

واستقامتي الفكرية منعتني من تصديق الخرافات التي اتخذتها الدول المتحاربة عذراً لتوسّع بإثارة الفتن . والواقع ان المفكرين الذين صدقوا هذه الخرافات كانوا قد تخلّوا عن عملهم الصحيح لينسوا بالشعور أنهم واحدٌ من القطيع . وهذا كان في نظري عملاً غير شريف . لانهُ اذا كان للمفكر عملٌ في المجتمع فعليه الاحتفاظ بحكم هادىء مجرّد حين ثورة العواطف والشهوات . ولكنني وجدت اكثر المفكرين لا يثقون بفائدة العقل الاّ في ايام السلم »

وكذلك انقلب العالم الرياضيُّ داعية للسلام فخرج من كمبردج ثمّ التحوّل من الفلسفة الرياضية العالية الى الفلسفة الاجتماعية العالية . فنفع الفيلسوفُ الاجتماعي العالمَ بطائفة من الكتب الممتازة في « التعليم » و«الزواج » و«مبادىء التنظيم الاجتماعي » و «غزو السعادة» و «طرق الحرية » و« الفكر الحرّ والدعاية الرسمية »

الاّ ان البذرة الصغيرة الحية التي تبينها في بعض كتاباته السابقة وهي « ان اساس الفوضى الدولية هو ميل الناس الى الخوف والبغض وهـــذا هو اساس النزاعات الاقتصادية لان حب الاستئثار بالقوة والسلطة—وهو اساس كل نزاع اقتصادي— ليس الاّ صورة جديدة لفطرة الخوف . فالناس يريدون ان يتسلطوا لانهم يخشون ان يتسلط سلطان الغير لهدم مصلحتهم »— هذه البذرة نراها وقد تحوّلت في كتابه الجديد الذي عنوانهُ «السلطان» [illegible] شجرة عنيّة كثيرة الاغصان والورق

والغالب انّ حسّ رسل الاجتماعي هداهُ الى بحث هذا الموضوع الخطير في عصرٍ هو اشدُّ ما يكون حاجةً الى فهمه . وقد توصل في بحثه الى قاعدة جديدة توضح كثيراً من الغامض على الفهم وهو ان «السلطان» فكرة اساسية في علم الاجتماع على نحو ما نجد «الطاقة» فكرة اساسية في علم الطبيعة . والسلطان كالطاقة يبدو في اشكال متباينة ، كالثروة والسلاح والمعتقدات والسلطة الحكومية والتأثير في آراء الغير ، وليس في الوسع ان تقول ان احد هذه الاشكال مقدم على الآخر ، او ان احدها اصل والآخر فرع ، فمعالجة الشكل الواحد بمعزل عن الاشكال الأخرى لا يفضي الى الفهم المستقيم ، على نحو ما يتعذر بحث شكل من اشكال الطاقة بحثاً كاملاً من جميع نواحيه الاّ اذا اقترن ببحث اشكال الطاقة الأخرى

قد تنشأ الثروة من السلطان العسكري او من السلطان على الرأي العام ، كما ان السلطان العسكري والسلطان على الرأي العام قد ينشآن من الثروة . ان نواميس التركيب الاجتماعي لا يمكن ان تفرغ الاّ في قالبٍ اساسهُ فهم فكرة السلطان . ففي العصور الماضية كان السلطان العسكري يعزل عن غيره من الاشكال الاخرى ، فكان يبدو ان النصر او الخذلان رهن بصفة القائد . ولكننا في هذا العصر نميل الى حسبان السلطان الاقتصادي اصلاً تنبع منهُ صور السلطان

الاخرى . وهذا في رأي برتراند رسل خطأ يأتي من خطأ المفكرين الذين يحسبون الدعاية والسيطرة على العقول وتنوس منع السلطان . لاريب في انهُ اذا استطاعت الدعاية ان تنشىء اجماعاً عامًّا ولدت قوة لاترد . ولكن الذي في ايديهم زمام السلطان العسكري او السلطان الاقتصادي يستطيعون ان يستعملوا سلطانهم للدعاية . ولذلك يرتدّ الفيلسوف الى التمثيل بين السلطان والطاقة فيقول ان الفهم الصحيح لطبيعة السلطان يقتضي منا ان نحسبهُ كالطاقة دائم التحوُّل من شكل الى آخر ، وان مهمّ العلم الاجتماعي يجب ان يتجه الى كشف نواميس هذا التحوُّل وفهمها

هنا يصحّح الفيلسوف الانكليزي ما يذهب اليهِ متطرفو الماركسيين من تفسير التاريخ وتفسير الاجتماع تفسيراً ماديًّا محضاً . فهو يقول : انهم يخطئون في حسبان المصلحة الاقتصادية باعثاً اساسيًّا في علم الاجتماع . ان الرغبة في اقتناء العروض رغبة لها حدٌّ اذا فصلت عن السلطان او المجد اللذين يقترنان بها . وفي الوسع اشباعها بيسر . فالرغبة في الترف لايعليها حب الرفاهة المادية . والرجل الذي يرغب في جمع طائفة من صور اعلام المصورين القدماء انما يرغب فيها لما يوليهِ اقتناؤها من مجد اوسلطان لا رغبة منهُ في جعل البهو الذي يضعها فيهِ بهواً للراحة . فاذا استوثق الفرد — او الجماعة — من قدر معتدل من الرفاهة ، سعى الى السلطان بدلاً من الثروة . فيطلب الثروة كوسيلة للسلطان ، او قد يتخلى عن قدر من الثروة ليزيد نصيبه من السلطان . ولكن الباعث في الحالين ليس باعثاً اقتصاديًّا

ولعله من الخير ان نضرب للقارىء مثلاً في هذا الموضوع ساقهُ المستر رسل في كتابهِ في الصفحة ١٢٨ قال : — ان السلطان الاقتصادي في الدولة مع ارتداده الى القانون والرأي العام يسهل عليهِ الفوز باستقلال خاص . فهو يستطيع ان يؤثر في القانون بالإفساد والارتكاب وفي الرأي العام بالدعاية . وفي وسعه ان يجعل رجال السياسة مدينين لهُ فيحدُّ من حريتهم . ويستطيع ان يهدد باحداث ازمة مالية . ولكنَّ هناك حدوداً لتأثيره . فقد رفع قيصر الى مقام السلطان بعون دائنيه الذين ادركوا ان لا امل لهم في استيفاء ما لهم عليهِ إلاَّ بنجاحه . فلما اصاب النجاح احسَّ بقوة مكنتهُ من تحديهم . وشارل الخامس اقترض من « آل فوجرز » المال الذي احتاج اليهِ ليناع منصب الامبراطور . فلما اصبح امبراطوراً تكر لهم فخسروا المال الذي اقرضوه اياه . وقد حل بالسي (حي الاعمال المالية بلندن) شيء من هذا القبيل في عصرنا عند ما ساهمت في انعاش المانيا ، وكذلك حلَّ بتيسن الالماني عندما اشترك في رفع هتلر الى مقام السلطان

الاَّ اننا نخطىء الغرض من حديثنا عن هذا الكتاب ، اذا حملنا القارىء على الظن ان الكتاب بحث فقهيٌّ في موضوع « السلطان » وبسط لمذهب خاص فيهِ . لانهُ في الواقع وعلى الغالب بحث واقعي في صور « السلطان » المختلفة . كيف تنشأ وترعرع ثم تضعف وتدول .

والامثلة عليها مستمدة من تاريخ الكنيسة وتاريخ الدول القديمة والحديثة . وعلى ذلك عقد الفيلسوف رسل فصولاً متتالية في سلطان الكهان والملوك والقضاة والزعماء الثوريين والطبقات الاقتصادية ثم فيها فصول في السلطان على الرأي وفي المعتقدات بوصف كونها ينابيع للسلطان ثمّ الاساس البيولوجي للتنظيم الاجتماعي والعلاقة بين الفرد والجماعة وصلة السلطان بنظم آداب النفس وأخيراً «رويض السلطان»

فغرض الكتاب ، ان يحلّل صاحبهُ التحول الاجتماعي ، تحليلاً أوفى مما تنطوي عليه تعاليم الاقتصاديين . وهذا التحليل قائم على ان شهوة السلطان هي الباعث الرئيسي على التحوُّلات التي يتجه علم الاجتماع الى دراستها . والسلطان الاقتصادي هو نوع السلطان الرفيع المكانة في هذا العصر ، واسباب ذلك كثيرة . منها ان الجماعة الثرية الماضية في سبيل زيادة ثروتها ، تتيح للشبان منفذاً لإشباع شهوة السلطان فيهم . اما الجماعة الفقيرة الماضية الى الارتفاع فتحدُّ من هذه الشهوة في النشيط القوي من الشبان ، فتضطرب اعصابهم وعقولهم فيحقدون في العنف بدلاً من الاكتفاء الاقتصادي عن منفذ لنزعاتهم الاصيلة . وفي اوربا كثير من هذه الجماعات الآن

ولا يذهب بك الظن الى ان شهوة السلطان ضارّة حتماً . فهي طبع في كل قويّ النفس والجسد ويتدريبها في الصغر يمكن توجيهها في مسالك نافعة . ويرتراند رسل يعتقد ان القاسي الظالم بين الناس نادرٌ اذا احكم تدريبه في صغره ولم يلق مشقة كبيرة في الفوز بعمل يستنفد جانباً من نشاطه . ولذلك يرى ان استعمال السلطان استعمالاً نافعاً يقتضي توافر ثلاثة شروط . يجب على السلطان ان يقترن بهدف معيَّن اي ان لا يطلب السلطان لذاته . ثانياً يجب على هذه الاهداف ان تكون مما يشبع رغبات الغير كهدف الفنان او المخترع او البحّاثة العلمي . ثالثاً حتى اذا صلحت اهداف السلطان فيجب ألاّ تكون وسائله بحيث يتغلّب فيها الضارُّ على المفيد او الطالح على الصالح . هنا موطن الخطر في استعمال السلطان ، واشهر مظاهره في نذوب الحروب . فالحروب التي تبدأ لاغراض سامية بوساطة رجال من الصُلاح مقتنعين اشدَّ الاقتناع بانهم على صواب ، يختمها رجال اخذ منهم الغضب والحقد كلَّ مأخذ فلا همَّ لهم الاّ الثأر او اذلال الخصوم

وعند الفيلسوف رسل ، ان اهم صور السلطان ثلاث هي التقاليد والسلطان العاري والسلطان الثوري . فسلطان التقاليد قائم على العادة والمعتقدات العامة والتسليم بالآراء السائدة ، اما السلطان العاري فتعريفهُ ان الآخذين به يحترمونهُ لانهُ سلطان لا لأي سبب آخر ، والفترات التي يسودها السلطان العاري هي الفترات التي يميل فيها سلطان التقاليد الى الانحلال بتطرُّق الضعف الى المعتقدات والعادات في شؤون الدين وأدب النفس . ولذلك نجد في فترات الفكر الحرّ والنقد المطلق تمهيداً لقيام السلطان العاري . لقد حدث هذا في اثينا في القرن الخامس . وفي ايطاليا في عهد

الاحياء . وهو حادث — على ما يلوح لرسل — في عهدنا هذا

ويتبين الفيلسوف رسل ان القيم الادبية مستقرة في الافراد لا في الجماعات وان سلطان الدولة الحديثة اكبر مهدد لسعادة الفرد . ولذلك تراه يبني فصله الاخير في «ترويض السلطان» على تربية الفرد وتدريبه . واننا لنبني على ما يقول المستر جود ان السياسيين فقط يفوقون العلماء في شهوتهم للسلطان والتحكم . والمستر رسل كاتب بليغ على ما تبين من الفقرات السابقة، ولكنه يبلغ اوج بلاغته عند ما يتحدث عن الشروط النفسية لترويض السلطان . قال : الخوف والغضب وجميع ضروب الهيج في الجماعات ، تميل بالناس الى ان يسيروا سيراً اعمى وراء الزعيم الذي يغتنم الفرصة في معظم الاحيان ليقيم نفسهُ طاغية . . . اذكر احد البلاشفة لقيته في باكين سنة ١٩٢٠ واتذكره يسير في غرفته ذهاباً واياباً وهو يقول صادقاً « اذا لم نقتلهم قتلونا » . ان هذه الحالة النفسية في الفريق الواحد تولد حالة مثلها في الفريق المقابل . والطائفة تقاتل الى النهاية ، يخضع كل شيء فيه للنصر . في خلال القتال ، تتقلد الحكومة سلطاناً استبدادياً لاسباب حربية . فاذا جاء النصر استعملت سلطانها الاستبدادي لسحق ما تبقى من العدو اولاً ، ثم لتأكيد استمرار تحكمها بتوبيدها . فمن الحق ان تسحب هيبة الجماعة واندفاعها لان ثمراتها القسوة والحرب والموت والاستعباد

ويقول ايضاً وفي قوله سمة السخرية اللاذعة التي تبدو في غير يسير من كتاباته : « ان الرجال الذين يسمحون لشهوة السلطان ان تشوّه نظرهم الى العالم تجدهم في كل مستنقع عقلي . فبعض احدهم انهُ مدير بنك الكترا وآخر انهُ الملك وثالث انهُ الله عزَّ وجلَّ . فاذا افرغت هذه الاوهام في كلام غامض اقتضت بقائله الى مناصب اساتذة الفلسفة في الجامعات . واذا افرغها في قالب فصيح رجال تحركهم الانفعالات الشديدة أدَّت الى الدكتاتوريات . ان المجانين الرسميين توصد الابواب عليهم ليلهم الى العنف عندما يشكُّ احدٌ في ما يزعمون . اما الذين لم تصدر بجنونهم شهادات رسمية فيمنحون السيطرة على جيوش عظيمة . وفي وسعهم ان ينزلوا الموت والخراب بجميع العقلاء الذين في مثارلهم . ان نجاح المجنون في الادب والفلسفة والسياسة من خواص هذا العصر ، والجنون في شكله الناجح ينبع كلُّهُ تقريباً من شهوة السلطان

ويقول كذلك : كان الناس في العصور الغابرة يبيعون انفسهم للشيطان ليفوزوا بقوى السحر . ولكنهم يفوزون بهذه القوى الآن عن طريق العلم فيلفون انفسهم مضطرين ان يغدوا شياطين، وليس للعالم امل الا بترويض السلطان ، ووقفه على الخدمة — لا خدمة هذه الجماعة من الطغاة المتعصبين او تلك — بل على خدمة البشر بياضاً وسوداً وصفراً ، فاشيين وشيوعيين وديمقراطيين ؛ لان العلم اوقعنا في مأزق فاما ان نحيا جميعاً واما ان نموت . .

٢ — دراسة بعض المنسوجات الاسلامية الفريدة في متحف الفنون الجميلة في بُسْطن

صناعة النسيج من أقدم الصناعات التي نشأت مع الانسان وكانت وليدة حاجته في وقاية نفسه من العوامل الجوية . وقد تدرّج فيها في سلم التطوّر كما تدرّج في غيرها من الصناعات ، فاتخذ ملابسه من ورق الشجر ، ومن جلود الحيوان ثم ألهمتهُ الطبيعة نسجها من الحشائش والاعصان ثم اهتدى الى عمل الخيوط من الكتان والصوف والحرير والقطن بل ومن الذهب والفضة والورق ولب الاخشاب . ومن هذه الخيوط نسج جميع ما يحتاج اليه من المنسوجات

ولم يقف بمنسوجاته عند حد نفعها المادي فحسب ، بل عمل على أن تكون الى جانب ذلك أثراً فنيًّا يشعر بالجمال ، ترتاح اليه عيناه ، ويبعث الاعجاب في نفوس اخوانه وعشيرته ، فزينها بوسائل مختلفة : تارة بأن رقم عليها بالاصباغ (painting) زخارف شتى ، وتارة ينسجها من خيوط متباينة الالوان (woven pattern) ، وطوراً بتطريز (embroidery) اشكال هندسية او نباتية او حيوانية فوق اديمها وطوراً بتزيينها بشرائط ينسجها في صميمها (tapestry) ويسمها رسوماً وصوراً مختلفة

ولاتصال المنسوجات بحياة الانسان ، وملازمتها له في كل أدوار حياته ، كانت عناية علماء الآثار بدراستها عظيمة ، لانها تبين بطريقة نسجها مدى رقي الصناعة ، وتعكس بزخرفها مقدار ما بلغتهُ الامة من الذوق الفني . وكثيراً ما كانت هذه الدراسة نبراساً اهتدى الباحثون بنوره الى الوقوف على درجة رقي الامم وحضارتها ، ومدى تأثرها بغيرها من الامم او تأثيرها فيها من الناحية الفنية ، وعرفوا ما كان قائماً من العلاقات التجارية بين البلاد المختلفة في شتى العصور

وكما اثرت مصر الباحث في آثار فجر التاريخ بما أمدته به من التراث الفني الخالد الذي احتفظت به على سطحها واختزنتهُ في جوفها فاستطاع ان يقف على اعرق مدنية عرفها الانسان ، فانها لم تبخل على علماء آثار ضُحى التاريخ بما أماط لهم اللثام عن حضارة تلك العصور ، وعرّفهم مدى مابلغته هذه البلاد على الخصوص من الرقي في الصناعة ، والسمو في الفن ، في وقت كانت تسود فيه ظلمات الجهل معظم بقاع العالم ، والفضل كل الفضل في ذلك انما يرجع الى ذلك الجو الجاف الذي حبتا به الطبيعة والى الارض أمنا الرؤوم ، التي حافظت بطبيعتها على الآثار الفنية لابنائها الاولين فكانت حريصة اشد الحرص على العناية بها لتسلمها لنا ، لكي نرينا عظمة السلف الكريم ، وقد أدت هذه الامانة على احسن وجه اذ كان من اهم تلك الآثار بل لعلها اهمها

(1) A Study of Some Islamic Textiles in The Museum of Fine Arts (Boston). By Nancy Pence Britton.

جميعاً تلك المجموعة الثمينة من المنسوجات الأثرية التي كشف وما يزال يكشف عنها المشتغلون بالآثار منذ حملة الفرنسية حتى الآن ، والتي لا تعدو في الحقيقة ان تكون سجلاً كاملاً لتاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى العصر الاسلامي ، لا تنقصهُ سوى صفحات قليلة ، قد يكشف عنها البحث في مستقبل الأيام . على أن هذا النقص ليس بطاعن في قيمة هذا التاريخ الصادق المكتوب بيد الفن الذي لا ينطق عن الهوى وليس بقلم المؤرخ الذي قلما يبرأ من الغرض

***

واذا نحن استعرضنا هذا التاريخ الحي رأينا عظمة مصر الفرعونية متجلية في القطع التي عثر عليها في مقبرتي تحتمس الرابع وتوتنخ آمون والتي تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال تلوينها على انها نتاج مجهودات طويلة ، وتطورات متعددة ، تقلب فيها فن النسيج قبل سنة ١٤٤٧ ق . م . وتكاد تنطق بمقدار ما بلغتهُ مصر من الدرجة السامية من الرقي في ذلك العصر عند ما كانت من غير شك تقود غيرها من الامم في مدارج التقدم الفني

وتعترضنا بعد ذلك فترة انقطاع هي تلك التي نأمل ان ينكشف عنها الغطاء عن قريب . ثم تجيء تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات التي استخرجتها البعثات الأثرية من بقاع شتى من البلاد ، والتي تلمس في زخارفها دخول عوامل جديدة على الحياة المصرية كان لها البعد الأثر في كيانها السياسي والديني ؛ وفي حضارتها وفنونها ، ونقرأ في نقوشها مدى تغلغل النفوذ الاجنبي في البلاد ، وتحكمه في توجيه الفنون فيها ، وتأثيره في عناصرها الزخرفية ، فمنها ما تم زخرفته على التأثير اليوناني ، وفيها ما يتجلى فيه اثر المدنية الرومانية ، وبعضها يذكرنا بظهور الديانة المسيحية ، وبعضها ينطق بسيطرة الفن البيزنطي ، وبعضها يدل على انتشار الفن الساساني ، وطائفة كبيرة منها تبدو فيها زخارف الفن الاسلامي

وايضاح ذلك كله ولو في شيء من الايجاز لا يتسع لهُ فصل كهذا ، وتكفينا هذه الاشارة لندرك ما للدراسة المنسوجات الأثرية من مقام

ولئن كان الكثير من هذه المنسوجات تزدان به اليوم متاحف مصر ولا سيما دار الآثار العربية التي لا تزال حتى اليوم توالي حفرياتها في البقاع التي اتخذها المسلمون في العصور الوسطى مكاناً لدفن موتاهم ، وتستخرج من هنالك كميات وفيرة من المنسوجات الاسلامية ، حتى اصبحت اغنى متاحف العالم في هذه الناحية ، يستطيع ان يجد الباحث فيها سلسلة متصلة الحلقات من تلك التحف تمكنهُ من دراستها وتطلعهُ على مدى التطور التدريجي فيها ، فان طائفة كبيرة منها قد تسربت بطرق شتى من وطنها العزيز واتخذت طريقها الى عواصم اوربا واميركا واستقرت في متاحفها . ولئن كان يؤسفنا حقاً انها بعيدة عنا ، فان لنا عزاء في انها سفير دائم لنا ، يطلع علماء

الغرب على مجدنا ، وينبههم الى عظمة اجدادنا ، فضلاً عما تناله في مواطن غربتها من التقدير والاجلال ، اذ كانت ولا تزال موضع دراستهم وبحثهم ، فاظهروا لنا ما ننطوي فيها من آيات المهارة في الصنعة والسمو في الفن . ولاريب ان لذلك من الأثر البعيد في اذكاء الحنين في نفوسنا الى استعادة مجد السلف ما لا سبيل الى انكاره

والكتاب الذي نعرّف به القراء اليوم ليس في الواقع الاّ اثراً من آثار هذا التمجيد لتراثنا الفني القديم . تناولت بالدراسة فيه مؤلفته — السيدة تالي بنس بريتون — طائفة من المنسوجات الاثرية الاسلامية المحفوظة بمتحف بُسطن بأميركا الذي كانت تشتغل فيه

وقد قسمته الى خمسة اجزاء تحدثت في الاول منها عن نشأة الفن الاسلامي وعن الكتابة العربية ، وعن الطراز ونظامه ، وختمت هذا الجزء بكلمة موجزة عن الناحية الفنية لصناعة النسج ، وبينت ما لهذه الناحية من مكانة عند مؤرخي الفن ، اذ هي تساعدهم على تأريخ التحف المختلفة عند ما يتعذر عليهم ذلك من الكتابة التي عليها ، او من طراز حروفها ، او زخرفها

ولقد وفقت الكاتبة في تلخيص هذه الموضوعات تلخيصاً لا يشفع فيه الاّ كون الكتاب — على حدّ قولها — دليلاً موجزاً للأنواع المختلفة للمنسوجات الاسلامية التي اختارتها من مجموعة متحف الفنون الجميلة في مدينة بُسطن ، ولكن كلمتها عن الطراز ونظامه ، لا يصح المرور بها دون التنبيه الى انها في حاجة الى شيء كثير من التدقيق ، اذ تسرعت في الحكم على ان «طراز العامة كان يملكه التجار الذين يبيعون بضائعهم للجمهور او يصدرونها للبلاد الأخرى» (ص ١٩) واعتمدت في قولها هذا — كما اشارت في هامش هذه الصفحة — على نص ورد في كتاب الخطط للمقريزي ، ولكن هذا النص لا يحتمل التأويل الذي ذهبت اليه بأي حال ، وموضوع دور الطراز ونشأتها ونظمها لم تزل الى اليوم من الامور الغامضة في الفن الاسلامي

وتكلمت في القسم الثاني على المنسوجات العراقية ، بادئة بموجز تاريخي يصور المطلع بالظروف المختلفة التي نسجت فيها تلك المنسوجات ، ثم عقبت على ذلك بدراسة اثنتي عشرة قطعة دراسة تدل على اتساع أفق اطلاعها ، وقدرتها على مناقشة الآراء بصدد تاريخ بعضها

وتناولت في القسم الثالث المنسوجات المصرية . والواقع ان هذا القسم يعتبر درّة في تاج كتابها ، اذ اجادت كل الاجادة في عرض سلسلة تطور هذه المنسوجات عرضاً تاريخياً فنياً جديراً بكل اعجاب وتقدير ، وتنقلت مع القارىء من فترة الانتقال من العصر القبطي الى عصر صدر الاسلام ، ثم الى العصر العباسي فالعصر الفاطمي . بينت في وضوح لا لبس فيه مميزات كل عصر ، في شكل الكتابة والزخرفة ، واشارت الى ما في المتاحف الاخرى من القطع التي قد تمتّ اليها بسبب ، واوضحت ما أثير من آراء علماء الآثار حول بعض القطع وأيدت

منها ما استحق التأييد — في نظرها — وردت على ما استوجب الرد . ثم درست مجموعة الفيوم والقطع المنسوبة الى طراز الصعيد ، وكانت في دراستها واضحة مفهومة بعيدة عن التعقيد ، مما يدل على حسن فهمها للموضوع الذي قصدت لبحثه . وقد ختمت هذا القسم بدراسة ثلاث قطع لم تتوفر الاسباب ولا القرائن للاستيثاق من أصلها ، أو تاريخها ، فاحسنت عرضها وتحليلها

اما القسم الرابع فقد اختصت به منسوجات بلاد اليمن فأوضحت في جلاء طريقة نسج العصب اليمنية Izar ثم عقبت على ذلك بدراسة ثلاثة قطع من هذا النوع . وتكلمت في الفصل الأخير على قطعة من الحرير الايرانية الاصل عليها زخارف بعضها مطبوع وبعضها منقوش ، وقد قدمت لهذا الفصل بكلمة موجزة بينت فيها طريقة عمل ذا الكا النوعين من الزخرفة

اعدت السيدة نالسي بريتون كتابها هذا على الصورة التي بسطناها هنا ، ثم حضرت الى دار الآثار العربية ، التي لا غنى عنها لباحث في المنسوجات الاسلامية ، وقضت فترة ليست بالقصيرة ، درست فيها مجموعتها النفيسة مسترشدة بآراء العالم الكبير الميوجانستون فيت مدير الدار ، والاستاذ الدكتور زكي محمد حسن اميها . ثم نظرت في كتابها بعد هذا الدرس ، وعدلت فيه ما رأت الحاجة ماسة الى تعديله ، وعهدت به بعد ذلك الى الدكتور زكي حسن فقرأه ، واضاف اليه ، وحذف منه ، حتى خرج الكتاب على الصورة التي هي بين ايدينا . وما جهدت الكاتبة هذا الفضل بل سجلته

وبعد فالكتاب في الحقيقة دراسة أثرية قيمة لطائفة من المنسوجات الاسلامية ، امتاز فوق ذلك بأناقة طباعته ، وحسن ترتيب فهارسه ، ولئن كنا نختلف مع المؤلفة في بعض آرائها ، فليس ذلك بمانعنا من الاعتراف بأنها قد دلت ببحثها على سعة اطلاعها ، واعتمادها على المراجع الموثوق بها ، وتملكها من مادتها ، واجادتها تحليل ما يعترضها من الآراء المختلفة

دار الآثار العربية — محمد عبد العزيز
الملحق الفني لدار الآثار العربية

٣ — التقدم الاقتصادي في مصر الحديثة[1]

اما ومصر تجتاز مرحلة خطيرة من مراحل تقدمها الاقتصادي فليس ثمة ريب في ان كتاباً يعالج موضوع تقدمها هذا من ايام محمد علي الكبير الى يومنا هذا يغدو مرجعاً ذا شأن في دراسة الاتجاهات الاقتصادية العامة فلا يستغني عنه الصحافي او الناشئ او الاستاذ او الطالب . فاقدام المستر كروتشلي الاستاذ بكلية التجارة في جامعة فؤاد الاول على وضع هذا الكتاب عمل يستحق كل ثناء ويلوح لنا من مطالعة هذا الكتاب ودراسة بعض فصوله ان الاستاذ كروتشلي اعد المدات

(١) The Economic Development of Modern Egypt. By A. E. Crouchley. Longmans Green & Co. London

الوافية للاضطلاع بهذه المهمة . ولا نعلم مدى خدمته في مصر ولكن اسلوبه في معالجة الموضوع من الناحية التاريخية وبحثه في الاتجاهات الحديثة يدلان على سعة علم ودقة بحث متروتين بذهن منظم فأخرج كتاباً جامعاً لأهم الحقائق والاتجاهات الاقتصادية حسن التبويب والترتيب

قال في توطئته « هذا البحث سعي الى تتبع السمات الغالبة على تقدم مصر الحديثة من الناحية الاقتصادية تتبعاً موجزاً وطالما شعر الطلاب وغيرهم من المهتمين بحياة مصر واحوالها بحاجتهم الى هذا الكتاب وقد مضت سنوات منذ بين المستر كريج ... الحاجة الى بحث من هذا القبيل فكان بحثي في الاموال الاجنبية المثمرة في هذه البلاد — وهو بحث نشرته وزارة المالية — سعياً الى تمهيد الطريق واستجلاء بعض النواحي الغامضة في هذا التقدم . فلما انشئت دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادي في الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الاول الآن) اصبح من الضروري وضع كتاب يحتوي على تاريخ مصر الاقتصادي في العهد الحديث وقد وضع هذا الكتاب تحقيقاً هذا الغرض والأمل ان يكون مفيداً لجميع المهتمين بتقدم مصر في العهد الحديث »

والكتاب على ما يقول مؤلفه وعلى ما يقينه القارىء بالمطالعة مستند الى الوثائق الاصلية سواء أكانت رسمية أم شبيهة بالرسمية فكان عليه أن يغربل شتى الحقائق المودعة في تقارير اللجان والوزارات ومحفوظات قصر عابدين ومحفوظات وزارة الخارجية بلندن وتنسيقها ولذلك يعتذر المؤلف عما يبدو في كتابه من وجوه النقص بتنوع الحقائق وتعارض بعضها والحدود التي رسمها لكتابه مما اقتضى منه الاختصار في غير تسم منه

الكتاب ستة فصول تملأ مع الذيول وثبت المراجع ٢٨٦ صفحة من القطع الوسط فالفصل الاول يحتوي على ملخص لتاريخ مصر الاقتصادي من الفتح الاسلامي الى اواخر القرن الثامن عشر والفصل قسمه مبوب تبويباً حسناً شأنه في ذلك شأن سائر الفصول. فبعد ان اوجز المؤلف تاريخ مصر (وقد اورد خطأ تاريخ الفتح الاسلامي لجملة ٦٣٩ م وهو ٦٤٠ م وتاريخ فتح السلطان سليم لمصر لجملة ١٤١٥م وهو ١٥١٧م) عالج حالة الزراعة في العقد الاخير من القرن الثامن عشر والمحصولات المختلفة كالقمح والذرة والشعير والرز والبصل والنيلة والتبغ وغيرها . اما القطن فقد قال فيه انه كان يزرع حينئذ في الوجهين القبلي والبحري زراعة واسعة النطاق وان القطن في الوجه القبلي كان يجنى من شجرة تعمر من ثماني سنوات الى عشر سنوات وانها في السنوات الثلاث الاولى من حياتها كانت تنتج ثلاثة قناطير في الفدان . ثم يقل محصولها وتهبط جودة قطنها . ثم عالج الصناعة في الحقبة نفسها من حيث تنظيمها من ناحية ومن حيث تنوعها وانتشارها من ناحية اخرى. وكانت صناعة النسيج اهم هذه الصناعات ففي صناعة نسج الصوف مثلاً كان اجود الصوف ينسج في الفيوم وكان القطن ينسج في اسنا وقوص وقنا وبني سويف والكتان في الدلتا

والفيوم وكان نسيجه يباع في الاسواق الاسبوعية في طنطا وتنوده وكان الحرير المستورد من سوريا ينسج في الدلتا ولاسيما المحلة الكبرى

على هذا النمط الطيب في التحقيق والتبويب عالج المؤلف موضوع التجارة والمواصلات في ذلك العهد ثم اتبع به ما كان لحملة الفرنسية من تأثير الاقتصادي في مصر . قال : ان الحملة الفرنسية وجهت ضربة قاضية الى النظام الاقتصادي والسياسي القديم وفتحت البلاد لتيار المؤثرات الخارجية بعد ان قضت البلاد اربعة قرون وهي في عزلة عن نمو الحضارة والثقافة في العالم الغربي

وعد المؤلف ان البواعث على الحملة الفرنسية اقتصادية وسياسية معاً ولكنهُ اهمل الاهمال من حسابه العامل الشخصي ايضاً وهو مطامح بونابرت القائد الذي أحرز الانتصارات العظيمة في شمال ايطاليا في اواخر القرن الثاني عشر وعاد الى باريس وهو يأبى ان يغمد فيها سيفاً منيًّا

الفصل الخاص بحالة البلاد الاقتصادية وتقدمها في عهد محمد علي اطول فصول الكتاب اذ يشمل ستين صفحة منهُ عالج فيها المؤلف احوال الزراعة والصناعة ونظم التجارة وملكية الاراضي في عهد مؤسس الاسرة العلوية . ومن الخير ان نقول هنا — وقد نقلت الصحف من اسابيع نبأ عقد النية على بناء سفن الاسطول البحري المصري في مصر — ان ساكن الجنان محمد علي باشا بنى الاسطول المصري الثاني — بعد ما دمر معظم أسطوله الاول في معركة نافارين ١٨٢٧ — في الاسكندرية وان من السفن التي بناها سفناً كانت في الصف الاول بين سفن الأساطيل العالمية قطر مدافع واتقان صنعة . بدأ بناء هذا الأسطول في يونيو من سنة ١٨٢٩ فما جاءت سنة ١٨٤٠ حتى كان الأسطول المصري أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط . أنشأ محمد علي الجيوش وبنى الأساطيل وحارب الحروب بغير ان يستدين مالاً من الخارج ولكن الذي خلفوه في الأربكة المصرية كانوا أقل حرصاً منهُ من هذه الناحية فامتدت يد المرابين الدوليين الى مصر مما جلب عليها الكوارث . والحديث في الفصل الثالث وهو الفصل الذي يتناول عهد عباس الاول وسعيد واسماعيل يجلو لك هذا الموضوع ولكنهُ لا يقتصر عليه . فالحديث عن شبكة الحديد الأولى في مصر في بدء النصف الثاني من القرن الماضي وقصة امتياز قناة السويس وشقها والاحتفال بافتتاحها وأعمال الري المختلفة وزيادة الاراضي الصالحة للزراعة وارتفاع قيمة الصادر من البلاد واتساع شبكة المواصلات الحديدية وانشاء خطوط التلغراف (أنشيء الخط التلغرافي الاول سنة ١٨٥٤ بين القاهرة والاسكندرية)

ثم كانت ثورة عرابي وعهد الاحتلال . واذا صرفنا النظر عن نواحي الحياة السياسية في عهد الاحتلال الى مستهل الحرب العامة ، وحصرناه في الحياة الاقتصادية رأينا تقدماً مطرداً وقف عليه المؤلف فصله الرابع وجعل عنوانه « السدود والقناطر » وهو عنوان موافق لأن

حديث التقدم في حياة مصر الاقتصادية فيما بين ١٨٨٠ — ١٩١٤ انما هو حديث توسيع مرافق البلاد الزراعية من الري الصيفي او ري الاحواض الى الري المستديم. وكذلك زادت محصولات البلاد الزراعية ولا سيما محصول القصب . وارتفع مقدار الصادر من البلاد ارتفاعاً كبير الشأن. هنا حديث تقوية القناطر الخيرية وجعلها صالحة للسيطرة على ري الوجه البحري وبناء خزان اسوان وخزان أسيوط وقناطر اسنا فزادت مساحة الاراضي الصالحة للزراعة من ٦٧٨ر٧٦٢ر٤ فدان في سنة ١٧٨٩ الى ٤١٢ر٧١٢ر٧ في سنة ١٩١٣

ثم عالج المؤلف موضوع الصرف والسكان (زاد السكان من نحو ٧ ملايين سنة ١٨٨٠ الى أكثر من ١٢ مليوناً سنة ١٩١٤) وتوزيع زراعة المحصولات وارتقاء التجارة الخارجية (زادت قيمة الصادر من نحو ١٣ مليوناً سنة ١٨٨٠ الى نحو ٣٢ مليوناً في سنة ١٩١٤) والأموال الأجنبية المستثمرة في البلاد ، معالجة سداها التحقيق والاحصاء ولحمتها البيان الواضح وحسن التبويب

وعقب على هذه الفصول بفصلين في حالة مصر الاقتصادية في خلال الحرب الكبرى ثم في العشرين سنة التي انقضت على انتهائها وختم كتابه بفصل موجز في الاتجاهات العامة الخاصة بالسكان وانتشار الصناعة ومشروعات الري الكبيرة وألحق به ذيولاً فيها جداول احصائية عظيمة الفائدة

٤ — ضباط اميركيون في الجيش المصري (١)

كانت اهم اقسام هيئة اركان حرب الجيش المصري — القسم الجغرافي — وكان اول ما اضطلع به استكشاف الصحارى المصرية. ففي عام ١٨٧٠ قام الكولونيل بوردي على رأس نخبة من الضباط المصريين لاستكشاف المنطقة الصحراوية بين النيل والبحر الاحمر . وقد استغرقت اعمال هذه البعثة عاماً عادت بعده بحقائق وافية . ورسمت الطرق الصالحة لمرور القوات . وفي عام ١٨٧٣ قام الكولونيل المذكور ببعثته الثانية الى ميناء برنيقة عن طريق البحر الاحمر . والتقى مع بعثة الكولونيل كولستون الى الميناء المذكور عن طريق قنا . ثم اشتركت البعثتان في كشف البقاع التي بين برنيقة وبربر . وفي عام ١٨٧٤ قامت ثلاث بعثات هامة باشراف هيئة اركان الحرب . الاولى — بعثة الكولونيل بوردي في دارفور . وقد تكلم عن اعمالها ، القاضي كرابيتس في الفصل الخامس من الكتاب . الثانية — بعثة الكولونيل كولستون في كوردفان . وقد وصف أعمالها في الفصلين السابع والثامن . الثالثة — بعثة المهندس ميشيل لقيام بأعمال جيولوجية في المنطقة بين النيل والبحر الاحمر . وهنا نلاحظ ان القاضي العادل كرابيتس لم يذكر اسماً واحداً من الضباط المصريين الذين زاملوا رؤساء البعثات الثلاث السابقة مع ان أسماءهم تحتوي

(١) Americans in the Egyptian Army. By Pierre Crabites راجع القسم الاول من هذا البحث في مختلف يناير سنة ١٩٣٩

عليها المصدر التي استقى منها القاضي كل معلوماته . فهل أراد القاضي كرايتس ان يكون أميركيًّا فقط فلا يذكر اسمًا مصريًّا إلا بما ندر لكي يطابق بحثهُ اسم الكتاب ؟

لقد كان حريًّا بالقاضي كرايتس ان يذكر أسماء ضباط البعثة الأولى من المصريين الذين زاملوا الكولونيل بوردي هكذا : الملازمون الاوّل محمود صبري ومحمد سامي وسعيد نصر والملازم الثاني خليل حلمي والطبيب محمد أمين والاثنا عشر صف ضابط وجندي من قوة أركان الحرب . والكولونيل مبسون بحث لخص فيه أعمال هذه البعثة

واشترك في البعثة الثانية مع الكولونيل كولستون — وكان تدعين في المدرسة الحربية لتدريس الجيولوجيا — الملازمون الأول عمر رشدي ومحمد ماهر وأحمد حمدي ويوسف حامي وخليل قوزي وأربعة ضباط آخرون . ووصلت هذه البعثة الى مدينة الأبيض في ١٢ يونيو ١٨٧٥ . وفي هذه الرحلة أصيب الكولونيل كولستون بمرض شديد . فعهد بقيادة البعثة الى الميجور برونت (Major Erout) الذي قام بمهمته خير قيام . وكتب تقريرًا عن بعثته

أما البعثة الثالثة ففيها اصطحب المهندس ميشيل الضابط عبد الفتاح حلمي . وكان غرض البعثة كشف المعادن بين النيل والبحر الاحمر . وقد كشف مناجم الذهب في الحمامات شمالي قنا . ثم عرجت الى ثغور البحر الاحمر وخليج عدن كالقصير ومصوع تاجورة وزيلع . وأوغلت في الداخل ثم عادت الى مصوع . وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

وقد ذكر القاضي كرايتس (ص ٥١ من كتابه النفيس) ان الجنرال ستون رفع في ٢٥ سبتمبر عام ١٨٧٥ تقريرًا الى الخديو اشتمل على دراسة فنية عن كيفية استخدام ترع الري كجزء من مشروعات الدفاع الداخلية والانتفاع بالمواد الطينية التي تزال من الترع عند تطهيرها وذلك بعمل جسور يمكن الاستفادة بها في وقت الحاجة

وفي ١١ نوفمبر ١٨٧١ رفع الجنرال تقريرًا اتبعه بآخر في ٢٨ سبتمبر ١٨٧٣ أشار فيهما الى حرب الفواصات واقتراحه إنشاء سلاح للفواصات والاشتراع بالطوربيد . ولم يفت المؤلف ان يذكر لنا شيئًا عن الضيق المالي الذي وقع فيه الجنرال ستون وهو يجد في ابحاثه العسكرية في مصر . فقد تسلم الجنرال بواسطة قنصل أميركا بالقاهرة دعوة رفعها عليه الكولونيل أليسون طالبهُ فيها بما عليه من بعض المال . وقد أورد لنا فقرة من الخطاب الذي كتبهُ ستون باشا للقنصل يعد فيه بدفع المبلغ مع ضآلة مرتبه الذي لا يكاد يكفيه

وتضمن الفصل التاسع الحديث عن وصول غوردن الى مصر بعد استقالة السير « صمويل بكر » من خدمة الحكومة المصرية واختيار الليفتنت كولونيل شايه لوتج للخدمة معهُ في مديرية خط الاستواء لمحاربة تجارة الرقيق في أقاليم أعالي النيل وتعزيز سلطة الحكومة المصرية . ثم

وصف في الفصلين العاشر والحادي عشر كيف وطّد شايه لونج صلاته بالملك ثيثا ، وسفره فيما بعد الى اوغندة وقصته الطويلة في توطيد علاقة مصر في تلك البلاد واخلاء المديرية التي قادها لاخضاع الوطنيين والنتائج التي أفضى اليها تولي غوردن حكم تلك المناطق . وكان من أهمها رسم خارطة النيل الأبيض من الخرطوم الى الرجاف والاضرار بتجارة النخاسة وسيادة السلام حوالي غندكرو وتشييد مراكز للحكومة في تلك الانحاء مع تنظيم المواصلات بين النقط البعيدة وأهم من كل ذلك اكتشاف شايه لونج لبحيرة ابراهيم

وفي الفصول التالية يصف القاضي كرايتس ، بالتفصيل المقابلات والأحاديث التي كانت تدور بين شايه وغوردن وحذرهما المتبادل مما اقتبسهُ المؤلف من كتابات الضابط الاميركي وجريدة اركان الحرب الجيش المصري ونشرة الجمعية الجغرافية . وفيها كتبهُ الجغران متون في تقرير معروف لهُ قدّمه لأعضاء الجمعية الجغرافية في ٨ ديسمبر عام ١٨٨٢ . ونجد الآن من حسن الحظ تفصيلات هذه الحوادث في كتاب « تاريخ مديرية خط الاستواء » الذي أخرجهُ سمو الأمير الجليل عمر طوسون

وفي الفصلين الرابع عشر والخامس عشر يصف القاضي كرايتس المعارك الذي اشتبك فيها شايه لونج مع الاونيورين والنيارين . وتجريدة مكراكا بتمام تمام (٣٠ يناير — ١٤ مارس) ووصولها الى مدينة لادو في ١٤ مارس وكيف استقبلهُ استقبالا عسكريًا قائد المحطة الضابط المصري البكباشي علي لطفي . وكان شايه لونج في ذلك الحين قد تسلّم خطاباً ورد اليهِ من غوردن وفيهِ رضاء الخديو عنه ومنحه رتبة الاميرالاي . ونحن ننشر هذا الخطاب تسجيلاً للدور الكبير الذي لعبهُ هذا الضابط الاميركي في سبيل مصر

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية مكتب الناظر

يا حضرة الأميرالاي

لقد تعطف سمو الخديو وأراد ان يظهر للقائمقام لونج التفاته وحسن رضاه نظراً لما ابداه من حسن السلوك والاقدام والثبات في الموقعتين اللتين حدثتا عند مروي بالقرب من خط الاستواء فمنحهُ رتبة الاميرالاي مع النيشان المجيدي وتجدون مع هذا الفرمان الصادر بذلك فارجوكم أن تسلموه لأمير الآلاي لونج بك وتقدموا له في الوقت ذاته من قبلي التهاني

وتفضل يا حضرة الميرالاي بقبول تمنياتي الطيبة امضاء حسين كامل

ثم يصف لنا القاضي وصول شايه لونج الى محطة العاصمة وامتطائه حماراً الى الفندق « نيوجراند هوتيل » وكان أرقى فنادق القاهرة . وبلغ الخديو خبر قدومه غداة اليوم الذي وصل فيهِ .

فأرسل يقول انهُ مستعد لمقابلته في الحال بقصر عابدين . وعند ما أدخل عليه تقدم نحوه وصافحهُ وشكرله بعبارات مؤثرة الخدمات التي أداها في افريقية الوسطى[1]

وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاهُ مرة اخرى الى قصر النيل حيث كان الخديو يحيط به وزراؤه وكبار موظفي البلاط وضباط الجيش . فقابله بالايناس والبشر والمجاملة واتهز سانحة توزيع هذه النرصة لتقديم مجموعة الأسلاب والغنائم التي رجع بها من حملاته

وفي ٣٠ مايو ارسل الخديو يستدعيه مرة ثالثة الى قصر النيل حيث اجتمع عدد كبير من الموظفين ملكيين وعسكريين والجنديان السودانيان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوي اللذان أمر بمرافقته . وقد ألقى الخديو خطبة حافلة بعبارات فصيحة مؤثرة ردد فيها عبارات المدح والثناء على ما أبدوه من الاخلاص والبسالة في واقعة مرولي

وقد أورد القاضي في الفصل السابع عشر حوادث الحملة المصرية في بلاد الحبشة واشتراك الضباط الاميركيين فيها . ووصف أهم العوامل التي أدت الى الهزيمة المنكرة التي مني بها الجيش في تلك البلاد وكانت تلك الحملة بقيادة راتب باشا ورئيس هيئة اركان حربه الكولونيل داي ومعهُ الكولونيل شارلز فيلد وزملاؤهُ دريك ونوش ولاسون وغيرهم . ثم وصف كرايتس في الفصل الثاني الاعمال الطوبوغرافية التي قام بها الأميرالاي لوكيت والمهندس ميشيل ثم أتمها فيما بعد ضباط مصريون وكانت أهم أعمال هذا الضابط اشرافه على رسم خارطة افريقية مبين عليها جميع الاستكشافات المصرية . وهذه الخارطة القيمة ما زالت الى اليوم في مكتبة قصر عابدين العامر

وقد خصص المؤلف الفصلين التاسع عشر والعشرين لوصف اعمال الميفنت كولونيل اسكندر ماسون وأهمها كشفه لنهر السليكي عقب رحلته في ١٤ يونيو عام ١٨٧٧ على ظهر الباخرة نيازا وللمهمة التي عهد بها الخديو اسماعيل الى الكولونيل « جريفز » Col. Graves والقائمقام محمد مختار وهي ارتياد شواطىء الصومال لاختيار موقع يقام عليه فنار لارشاد السفن . فخطّط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردفوي

وفي الفصول الثلاثة الختامية للكتاب لخص الكاتب أهم اعمال الضباط الاميركيين الباقية وحوادث مصر في عهد اسماعيل وتوفيق الى انتهاء خدمة اعضاء البعثة وسفر رئيسها الجنرال ستون عقب الاحتلال البريطاني بعد ما أدوا خدمة سامية لمصر وجيشها .

لقد كنا ننتظر صدور مثل هذا الكتاب منذ زمان بعيد . الى ان أتيح للقاضي الاميركي بير كرايتس تحقيق امنية طالما سعينا الى تحقيقها . فنحن نهنئه ونشكره لأنهُ اتاح لنا مطالعة صفحات مجيدة من تاريخ مصر

عبد الرحمن زكي

(١) راجع تاريخ مديرية خط الاستواء لسمو الامير الجليل عمر طوسون ص ٢١٨ — ٢٢٠

حديقة المقتطف

الحركة الادبية

في سوريا ولبنان

لالياس ابي شبكة

—

الادب الفارسي

وخدمة الوطنيين له في الهند

للسيد ابو النصر احمد الحسيني

الحركة الأدبية

وسوزنة والسنانى

قال احد الكتّاب وأظنه لوسيان ديكاف ان الكتب ، والقصص منها بوجه خاص ، « تتقدم في السن » كؤلفيها . فمنها ما يموت في شبابه لا يتجاوز الحداثة الا قليلاً ، ومنها — وهو قليل — ما يبلغ الكهولة ، على ان صحته لا تلبث ان تسوء فتشيع القلق على حياته

وهذا صحيح ، واكثر ما ينطبق على أدب هذا العصر سواء في الشرق أو الغرب . فعظم ما ينتجهُ الأدب في هذا العصر مموّه بزخارف لا تواتم طبيعة الأدب وليس الجمال في التزيّد والاسراف بالزخرف بل هو في بساطة الأداء والصدق ، شعراً كان أم كان نثراً ، والبساطة هي أمّ الجمال وهي أظهر مزايا النبوغ ، فعظماء الفنّيين في العالم على تباين نزعاتهم لم يكتفوا يوماً ببساطة ما أتجوه فهم يريدون دائماً أن يكون عملهم اكثر بساطة مما هو ، ليتفق وعاطفة الحقيقة والشعور الطبيعي

وليست البساطة نقيض الذكاء بل هي نقيض التكلف ، والتكلف رهن الزوال السريع لأنهُ لا يصدر عن الطبيعة ، وكل ما يصدر عن الطبيعة بسيط لأن الطبيعة لا تتكلف ما ليس في طاقتها . وما دامت الطبيعة امّ الحياة فكل ما لا يصدر عن الطبيعة يموت

ومن مزايا الطبيعة أنها لا تقلد ، فهي صورة عن نفسها . فالشعر الجاهلي ما عاش الى يومنا هذا الا لانهُ صادق يعبّر عن روح العصر الجاهلي ببساطة ذلك العصر ، وليست قيمة هذا الشعر إلاّ في بساطته الرائعة ، في صدقه الصارخ . وما نقوله عن الشعر الجاهلي نقولهُ عن الشعر في صدر الاسلام وفي الاعصر العباسية الزاهرة . فعمر بن ابي ربيعه لم يخلد في شعره إلا لأن شعره صورة عن نفسه ولأنهُ هو صورة جريئة لعصره

ولا بدّ لي بهذه المناسبة أن أعرض لرأي أبداه الاستاذ احمد امين في جريدة الجمهور اليومية . فقد قال حضرته مفسّراً ظاهرة ضعف الشعر في العالم « ان العالم الآن طغت عليه المادية وكل ما يتعلق بها من علم وسياسة ونحو ذلك ، والمادية

عدو الخيال ولا شعر الا خيال ، ويتصل بذلك ان الشعر يكثر ويغزر قبل ان يكتمل عقل الامة كما كان الشأن عند العرب في الجاهلية وعند اليونان فاذا تقدمت الأمة في الرقي حلّ محل الاول عندها الفلسفة والادب النثري . فالعالم الآن لما تقدم لم يعد للشعر منزلته الاولى وحلّ محله شيئاً فشيئاً نثر العقل وفلسفة العقل »

ثم ان فلقد كان يجمل بالكاتب قبل ان يرسل هذا الرأي أن يعرض عصور التاريخ فلو انه فعل ذلك لوجد ان ازهرها كانت الاعصر التي ازدهر فيها الشعر على الخصوص . ففي عصر اغسطس الذي كان امجد عصور التاريخ الروماني وضع الشعر تلك الروائع التي تتم على عبقرية اللاتين وقد اقترنت باسماء هوراس وفرجيل واوفيد وغيرهم ، وما نقوله عن عصر اغسطس نقوله عن الاعصر العباسية وعصر لويس الرابع عشر في فرنسا وعصر فيكتوريا في انكلترا ، ولا يسمح لنا المقام بالاسهاب في هذا الموضوع الذي لا يقبل جدلاً ، وكل ما نقوله ان العصور التي سادها اغسطس وهرون العباسي ولويس الرابع عشر وفيكتوريا لم يكن عقل الامم فيها أقل اكتمالاً منهُ في عصر موسوليني وهتلر . وربما كان السبب الاصح في ضعف الشعر في العالم هذا القلق المستحوذ عليه ، فالشعر لا يزدهر الا في عصور الطمأنينة والرخاء ، والطمأنينة والرخاء لم يعرفهما العالم منذ خمس وعشرين سنة إلا في الفترة القصيرة التي عقبت الحرب الكبرى . هذا الى ان الشطر الاكبر من الجهد الانساني ينصرف في الازمنة القلقة الى حل مشاكل هذه الازمنة . وهذه المشاكل لا يحلها الشعر بل السياسة . لذلك تحول جهد الكتّاب في هذا الزمن الى معالجة شؤون العصر توصلاً الى الرخاء والطمأنينة المفقودين اللذين يساعدان الامم على تنمية عقلها . . . فكان أن طغت الأبحاث المادية العقلية على الشعر الذي يتصل مباشرةً بالروح . وأكبر الظن ان الأحداث السياسية التي خبطت مصر وسوريا في الحقبة الاخيرة حولت الاتجاه الادبي فيهما عن الشعر الى الشؤون العقلية البحتة فضعفت الناحية الشعرية في هذين البلدين اكثر مما ضعفت في لبنان الذي لم يصرفه حدث سياسي خطير عما فطر عليه ولا مشاحة في ان الشعر ينشأ مع الامة ويسايرها في رقيها ، وهو مرآة الامة وعنوان ازدهارها ، على انهُ قد يهادن في المعضلات الاجتماعية الخطيرة ليفسح السبيل الى الاصراف لحل هذه المعضلات

قلت في المقال السابق الذي جعلته توطئة لفصول تتلوه في الحركة الادبية بسوريا ولبنان ان هذين البلدين لا يملكان من الصحف الادبية الا عدداً قليلاً وأقول اليوم ان هذه الحركة لا تظهر في هذه الصحف وحدها بل في الصحف السياسية ايضاً ، فقد لا تخلو صحيفة يومية من صفحة ادبية في كل أسبوع ، وهذه الصفحة تخص بجانب كبير من العناية ، وقد لا اخطىء اذا قلت انها ارقى صفحة ادبية في الشرق العربي . واحصر كلامي هذا في الصحف اليومية . أما الجمعيات الأدبية فما زال محاولات لا تعيش عمراً أطول من عمر وردة « دوبريه » Dupérier أي مدى صباح واحد . وأول جمعية فكر رجال الأدب في تأليفها هي « الجامعة الأدبية » التي عاشت سنة ونصف سنة ولم تمر إلا مرة واحدة عندما منحت جائزتها وقدرها مائتا ليرة للشاعر سعيد عقل مكافأة له على إصداره مسرحيته الشعرية الرائعة « بنت يفتاح » ففي العام ١٩٣٣ ولدت هذه الجمعية في دار الشاعر شارل القرم وبقيت سنة ونصف سنة تعقد اجتماعات أسبوعية تمهيدية تارة في دار الاستاذ شارل القرم وطوراً في دار رئيستها السيدة الأديبة افلين بسترس حتى انحلت من تلقائها

وفي تلك الاثناء أنشأ بضعة من الادباء والناشئين جمعية باسم « ندوة الاثنى عشر » لا تزال الى يومنا هذا ماضية في النشاط ، وقد أصدر أعضاؤها عدة مؤلفات آخرها « يوميات ميشال سرور » للاستاذ ميشال الاسمر . ويقول الاستاذ فؤاد حداد ، أحد أعضاء هذه الندوة ، إن « يوميات ميشال سرور قصة مستحدثة الاسلوب في العربية ، لكل ما يستوحى من الآداب الاجنبية — هي مجموعة ذكريات وعواطف وأفكار وتصورات ، تعطيك أجزاء خطوط تمثل فيها شخصية فتى نزوع للادب وطموح لان يمتلىء من الحياة . يصطدم في قريته وبيته بمن لا يفهمه فيهجر محيطه الى حيث يضيع بين مجموع يدعه يعيش على هواه ، فينصرف الى تذوق أحاسيس الدنيا ، محصورة بعاطفة الحب حتى يعرف أخيراً اللذة الكبرى : بعد كبت طويل ، والحب الامثل ، بقرب فتاة التي فيها مجموعاً ما كان يمثله من كمال في المرأة . ولكن الفتاة مصدورة تموت وتموت معها جنين في احشائها ، بعد ان رجعت من الحبيب الذي أدركت مطامحه الادبية أن يستمد من حياتها القصيرة المشتركة مادة لقصة يخلدان بها ولم يسعدا بالخلود في الكائن الحي عصارة

روحيها ومزيج قليلها . » . وفي الشهر الفائت أسس رهط من الادباء « نادي القلم » وعقد حتى الآن عدة اجتماعات تمهيدية برآسة الشاعر الدكتور نقولا فياض

أما دمشق فليس فيها جمعيات أدبية سوى المجمع العلمي ، وجلسات الادب تعقد فيها تارة بمقهى السياسة وطوراً بمقهى الكمال ، ولكن هذه الجلسات سرعان ما يتحول البحث فيها الى السياسة ، والسياسة شاغلة الشام اليوم . ولم يكن في دمشق حتى الشهر الاسبق جريدة تعنى عناية خاصة بشؤون الادب الى أن نشط الاستاذان يوسف العيسى ، صاحب جريدة « الف باء » ، وابليا شاغوري الى اصدار جريدة اسبوعية باسم « الاحد » أخذت على عاتقها سدّ هذا الفراغ في العاصمة السورية . على ان الانتاج الادبي في المطابع عامة ضئيل في سوريا فالجهود مبذولة فيها للسياسة المعضلات السياسية . وقد لا أخطىء اذا قلت ان المطابع السورية لم تصدر في الاشهر الاخيرة كتاباً جديراً بالاهتمام ، خلافاً للامر في لبنان ، فقد أصدرت مطابع بيروت في شهر دسمبر خمسة كتب هي : « ديوان ابن الساعاتي » للاستاذ انيس المقدسي ، و« هل يخلق القمر » أو قصة عمر بن ابي ربيعة للاستاذ رئيف خوري و « نحن في افريقية » ، للاستاذ كامل مروة ، و « قوة الارادة » للامير يوسف أبي اللمع ، و « يوميات ميشال سرور » للاستاذ ميشال الاسمر . وقد شرع الاستاذ توفيق يوسف عواد يطبع قصته الطويلة « الرغيف » وستظهر في مطلع الشهر المقبل

قال الاستاذ رئيف خوري في المقدمة القصيرة التي وضعها لكتابه عن عمر بن أبي ربيعة : ينبغي للادب ان يعلمنا شيئين : الفرح بالحياة وبناء عالم مفرح . وهذا السفر لا يعلمنا بناء العالم المفرح ، وإنما هو يعيننا على استمراء شيء من الفرح . وأقصى أملي أن يكون نزهة مريحة الاعصاب ، ومجددة القابلية للكفاح في سبيل بناء العالم المفرح » . وقد استهل المؤلف قصته — ولنسمّ كتابه قصة ، فهو من نوع التاريخ المموّه أو ما يسميه الفرنجة (histoire romancée) بنبذة تاريخية عن العصر الذي ربي فيه عمر وشبّ وترعرع لجاءنا بصورة بارزة عن انغماس هذا العصر في حياة النعيم والتماسه العيش المرفه خلصت منها الى ايراد الاسباب التي وطّدت أركان الحضارة الارستوقراطية وافسحت السبيل الى ايثار بعض على بعض وانفتاح ذلك « الخليج العظيم » بين طبقات العرب ، هذا الخليج الذي كان يسير الشأن في

عهد الخليفة عمر بن الخطاب الحريص على «روح المساواة الفطرية التي متن بذورها الاسلام الخالص» فاتسع في عهد عثمان بن عفان ، الخليفة «ارخو الذمث الاخلاق» وبقي كذلك في زمن معاوية

والاستاذ رئيف خوري معروف بنزعته الديمقراطية الخالصة فهو لا يطرق موضوعاً إلاَّ تكون المبادىء الديمقراطية الانسانية سداه ولحمته

ومن الأدلة على نشاط الحركة الادبية في لبنان مساهمة الدوائر الرسمية والمؤسسات العلمية فيها ، فقد ارصدت وزارة المعارف في ميزانيتها خمسمائة ليرة لتنشيط الادب توزعها كل سنة على المؤلفين ، ووضع المجلس البلدي في بيروت جائزة قدرها مائتا ليرة للغاية نفسها . وفي السنة الفائتة قررت مدرسة الحكمة في العاصمة اللبنانية منح جائزة سنوية قدرها مائتا ليرة لافضل كتاب نثري او شعري يصدر خلال السنة . كما أن جريدة «المكشوف» توزع كل سنة عدة جوائز مالية لتنشيط القصة والشعر ، وقد أعطت هذه البادرة ثمرتها الطيبة . اما محطة الاذاعة فلا تزال ميزانيتها ضيقة ، ولكنها لا تتورع عن تأدية قسطها للحركة الفكرية في سوريا ولبنان ، ففي كل اسبوع تدعو خطيباً لاذاعة محاضرة أو قصة ، وقد خصصت للمحاضرة خمس عشرة ليرة وللقصة عشر ليرات

والحركة الأدبية ميدانها المجدي في المعاهد العلمية الكبرى كالجامعة الاميركية ومعهد الحكمة ومدرسة المقاصد الخيرية ومدرسة القديس يوسف اليسوعية وغيرها فلا يندر أديب إلاَّ تعرَّف اليه منابر هذه المعاهد ، ولا يزور أديب لبنان الا لسمع صوته من أحد هذه المنابر . وفي كل سنة تنظم الجامعة الاميركية سلسلة محاضرات في الادب والاجتماع تعهد بها الى صفوة رجال الفكر في البلاد

اما الحركة الشعرية فقد خفتت في الشهرين الفائتين فلم تنشر الصحف ولو قصيدة غزلية . وهذا «حدث» لا عهد للبنان بمثله ... ومما يدعو الى الدهشة ان جريدة «الجمهور» الاسبوعية أرادت اصدار جزء شعري من الدفة الى الدفة فجمعت طائفة من القصائد للاثنين شاعراً لم تقع فيها على قصيدة جديدة . ولكنها غمة عارضة باذن الله ... ومهما يكن فقد جاء جزء «الجمهور» ديواناً او معرضاً للالوان الشعرية في لبنان وفي سوريا ايضاً

بيروت ١٠ فبراير الياس أبو شبكة

الادب الفارسي

وخدمة الوثنيين لهُ في الهند

—٢—

والامير الهندي الوثني الآخر الذي برع في بلاط الملك جلال الدين اكبر في فنون الشعر بالفارسية هو « راجا بهوبت رائي سوائي » واسمهُ الرمزي في الشعر « بيغم » (١) . فقد ذكرنا الأستاذ امير بيك المتوفى سنة ١٢١١ هجرية في كتابه « حدائق الشعراء » الذي نسختهُ الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الاسيوية بكلكته (الهند) بيتاً واحداً له يدل على حذقه الشعر الفارسي الغنائي . واليك ترجمته قال

في غيابك يا راحة قلبي ! ان في ليالي هجرك
يمُنُّ « بيغم » اينا ضائع القلب وشهر الدموع

على ان مرور الزمن قرر على هؤلاء الهنود أمره ، فدعا إلى الفارسية وادبها تنويهم ، وشغل بها خواطرهم وفكرهم ، فتصدّى لدراستها عددجم منهم في الحكومات التي تلت حكومة جلال الدين اكبر ، فأصبح حظهم منها اوفر ، حيث برزت شخصية « شندربهان » الشهير باسمهِ الرمزي الشعري « برهمن » في عالم العلم والادب ، فنالت محلاً جليلاً ومنزلةً عليا في قلوب معاصريها من علماء اللغة الفارسية وادبائها وشعرائها

كان والد « شندربهان » هذا خطاطاً عظيماً وموظفاً لدى الحكومة المغولية فتسنى لهُ ان يصرف عنايته ويبذل جهده في تربية ابنه وتعليمه . فاخذ « شندربهان » العلوم العربية والفارسية عن اكبر العلماء في عصره وأوحد زمانه بلا نزاع وهو العالم العلامة الفيلسوف عبد الحكيم السيالكوتي رحمة الله عليه ، فبرع فيها وتبحر

---

(١) من العادة في الادب الفارسي والادب الهندي ان الشاعر يختار لنفسه اسماً رمزياً غير اسمه الحقيقي ليستعمل هذا الاسم في شعره ويشتهر بهذا الاسم في عالم الشعر والادب

حتى استوقفت بسطتهُ في العلم وقدرته بالفارسية نظر سمو الأمير «دارا شكوه»[١] ابن الملك شهاب الدين شاه جهان[٢] وهو أكثر الأمراء نصرة للعلوم والفنون وأوفرهم تضلعاً منها وأوفاهم تقديراً لها في تاريخ الهند الاسلامي ، فبينهُ كتم سره الخاص . فتزعزعت كفاءة الشاب العالم الشاعر « شندربهان » ولمع نبوغه هكذا في حضن رعاية الامير وتقديره ، حيث صنف كتابه النفيس «جهارجمن» (أي الحدائق الاربع) في انشاء الادب الفارسي وأسلوبه . ومهما تكن قيمة « جهارجمن » هذا من وجهة النقد في العصر الحاضر ، فلا شك فيه انهُ أصبح فيما بعد الحقب من الزمن سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع من الكاتب والمنشىء في أحسن الأساليب الفارسية المألوفة حينئذٍ في الهند . فكان كتاب الطالب والمعلم في المكاتب والمدارس في جنب كتاب الانشاء للعالم الوزير الشهير الآصف الذكر « أبو الفضل » لأحياك كثيرة

كان «شندربهان» شاعراً مفلقاً بالفارسية بعد ديوانه مثالاً في الشعر المطبوع عند أوساط الادب والشعر . وله حكاية طريفة وهي ان الامير « دارا شكوه » حين قدمهُ أول مرة الى أبيه الملك شاه جهان ورجال حاشيته حوله طلب الملك ان يسمعهُ شيئاً من شعره فقرأ الشاعر بيتاً ترجمتهُ فيما يلي :

إن قلبي يحب الكفر (الى درجة) اني
حملتهُ مراراً الى الكعبة ولكنهُ رجع معي وهو برهمن[٣]

فاغتاظ الملك لما في معنى البيت من طعن خفي في الاسلام وهو دين الحكومة وبخاصة في ذلك العهد إذ كان للدين كل الشأن وكاد ان يذهب الشاعر ضحية سوء أدبه هذا ، لولم يتقدم « أفضل خان » أحد كبار رجال الحاشية وينحي الحكاية بقراءة بيت للشاعر الفارسي الشهير « سعدي » . وترجمة البيت كما يلي :

إن حمار سيدنا عيسى لو ذهب الى مكة ورجع
فلا يغدو حماراً .

---

(١) كان هذا الامير عالماً شاعراً صوفياً خطاطاً رساماً ولد في سنة ١٠٢٥ هجرية ومات قتيلا في سنة ١٠٦٩ هجرية بيد أخيه عالمكير

(٢) تولى الامر من سنة ١٠٣٧ الى سنة ١٠٦٩ هجرية (٣) أي كافر

وغزل « شندربهان » من فيض الخاطر شعر غنائي بليغ يتصف بعضه بشيء من سعة الافكار الصوفية ، شأن كل شاعر حاسر لثام ما في نفسه من الطموح الى المثل العالي في ذلك العهد. ونحن نزف اليك ترجمة بعض الأبيات منهُ فيما يلي. قال:

ما أشدَّ غفلتي إذ أسد سيل الدموع بالأهداب
ان الطوفان لا يمكن ان يُسَدَّ بجفنة من التبن
ان (الدم) يسيل من (جرح) كبدي فلا غرو
ان يصبح قميصي حديقة شقائق النعمان
ان عذارك في حركة دائمة
فكيف يطمئن قلبي ويسكن
إن طيفك زارني ليلة في الحلم فسليت به
ولم أفتح لذلك عيوني الباكية غدائها
أيها البرهمن (١) ! أنا أطلب منك الاتصال المباشر
فان الأدلة والبراهين لا يعتمد عليها

ان ما نال « شندربهان » من المنزلة العظيمة في بلاط الملوك ومجالس الامراء وانديةِ الأدب ومسامرة الشعراء لكفاءته وجدارته بالادب الفارسي وشعره حدا اكثرية الهنود الوثنيين على اتقان الفارسية والتضلع من فنونها . ولم يكن الاقبال عليها محصوراً بين اهالي المدن والمقاطعات القريبة من دهلي — حاضرة الامبراطورية الهندية حينئذٍ — بل مهر فيها غير واحد منهم مسجلين آثارهم على صفحات تاريخ الادب الفارسي حتى من اقصى المقاطعات الهندية مثل بنجال . ففي بنجال كما ذكره العالم المؤرخ شاه نوازخان في كتابه « ماثر الامراء » ترعرع الشاعر الخطاط « مزادماس » الذي خدم فن الخط والادب الفارسي خدمة لا يستهان بها في عهد الملك شاه جهان . ومن نكد هذا الشاعر انه سجن في اواخر حياته لسوء تفهم حدث بينهُ وبين حاكم مقاطعة بنجال « خان زمان » فكتب في السجن قصيدة هي

(١) برهمن اسم الشاعر الرمزي كما قلنا . ومعنى برهمن بالسنسكريتية كلمة « برهما » (أي الله) ثم أطلقت كلمة برهمن أحياناً فيما بعد على « برهما » أيضاً على طريق المجاز . وهنا يريد الشاعر بالبرهمن الله وهو ايضاً اسمه الرمزي

آية بالفارسية براعةً وغاية في الشعر بلاغةً استعطف بها الملك وأرسلها بواسطة حكيم ركنا كاشي الى دهلي فأطلق سراحه على أثره

كان في نفس الزمن في آباد شاعر مجيد بالفارسية ان اشتهر باسمه الاسلامي محمد علي ولكنه وثني الأصل ، تربى عند فارسي عالمٌ اللغة الفارسية ثم تبناه في الآخر . واسمه الرمزي الشعري «ماهر» . فهو استفاد في اوائل حياته من مجالس الشاعرين الكبيرين « قدسي » و « كليم » كان ثانيها شاعر بلاط الملك شاه جهان . واتصل هو ايضاً بالامير « داراشكوه » فحل به في ظل الجود المديد وآوى الى قصر التقدير المشيد ، فمنح لقب « مراد خان » . ولقد كان للشاعر « ماهر » هذا اليد الطولى في علوم الادب الفارسي وفنونه حيث نجد كبار علماء الفارسية في ذلك الحين مثل محمد افضل خان سركش صاحب الكتاب القيم في تراجم الشعراء الفارسيين من تلامذته

إن كانت غزوة الملك محي الدين طلكير اورنك زيب[1] للهند الجنوبية ، وهو الذي بشرها بنفسه زماناً طويلاً ثم فتحها ، حملت كثيراً من اهل العلم والأدب على الانتقال من دهلي — عاصمة الامبراطورية الهندية الى المعسكر الملكي في جنوب الهند ، غير انهُ لم يزل لدهلي جاذبية نزعت الى مؤانستها قلوب العلماء وحنت الى مساعيها نفوس الادباء فهاجروا من بلادهم اليها . ومن هؤلاء المهاجرين العالم الصوفي الشاعر ميرزا عبد القادر بيدل الذي هجر بلدته عظيم آباد وتوطن دهلي . فتلقى عنهُ كثير من الناس في دهلي وتخرج عليه عدد كبير من أدباء الهنود الوثنيين وشعرائهم بالفارسية . منهم الذين برزوا في العلم وتركوا أثراً في الأدب والشعر الفارسي ، الشاعر (سيورام)[2] « حياء » ، والشاعر (جوربخش) « حضوري » ، والشاعر (بندرابن داس) « خوشكو » ، والشاعر (سوخ راج) « سبقت » ، والشاعر (اندرام) « مخلص » . ومؤخر الذكر من الشوين في الأدب الفارسي وفنونه في عصره . فقد ترجمهُ غلام علي آزاد البلغرامي في كتابه « خزانة عامرة » وانتقد شعره . ومما يؤسف له أن عوادي الزمن حالت دون وصول دواوينه الى ايدينا غير ما ذكر في كتب التراجم . وقد نوه به ايضاً العالم المؤرخ الشاعر سراج

(١) تولى الامر من سنة ١٠٦٩ الى سنة ١١١٨ (٢) بين القوسين اسم الشاعر الحقيقي والذي يجنبه اسمه الرمزي الشعري

الدين خان آرزو في كتابه « مجمع النفائس » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكته (الهند) فقال ما هو خلاصته :

« ان وفاء تدرام هو الذي حملني على الاقامة في دهلي . ففي الثلاثين سنة الاخيرة لم يحرمني وفاؤه وحبه الكامل . وفي اوائل شبابه تلقى عن « بيدل » وأخذ الاصلاح منهُ في قصائده ، ومن ذلك الزمن ظل رفيقاً وفيًّا له . وخلاصة القول هو في هذا العصر ممن يشار اليهم بالبنان في العلم والأدب والشعر »

وقد نقل لنا سراج الدين خان آرزو بيتين له يدلان على حذقه الشعر الفارسي. واليك ترجمتها قال :

ايها الحب ! لا تؤذ مرة اخرى الضعيف مثلي
الغريبَ (في عالمك) المتألمَ وسائمَ الحياة
نحن لا نعرف حيوان العندليب المسكين
غير اننا رأينا حفنة العظام تحت الورد[1]

وما حاز (بندر ابن داس) خوشكو من تقدير العلماء والادباء لطول باعه في الادب الفارسي والشعر لم يكن اقل منزلة لما حازه غيره من علماء الفارسية من الهنود الوثنيين. فهو تربى مثل غير واحد من معاصريه في مدرستي الاديبين الشاعرين ميرزا عبد القادر بيدل وسراج الدين خان آرزو ، وبلغ في الشعر والأدب الفارسي مبلغاً قل ان بلغه غيره حيث يفضل بعضهم كتابه « تذكرة » في تراجم الشعراء من بعض الوجوه على « مجمع النفائس » لاستاذه سراج الدين خان آرزو . وقد نقل لنا العالم الشاعر الوثني (لكشمي نراين) شفيق في كتابه « تذكرة حيل رعنا » الذي نسخته الخطية محفوظة في مكتبة الجمعية الآسيوية بكلكته (الهند) شواهد كثيرة من شعره ، وروى لنا فيه ايضاً حكاية عن براعته في مجلس ادبي حين اعترض عليه في استعماله الاصطلاح الفارسي « داغ افتادن » (اي التبقع) كيف انهُ نال استحسان المجلس وتقديره على رده بسرعة الخاطر وغاية الظرف والبداهة المليحة بالاستشهاد من الشاعر الفارسي الكبير الذائع الصيت « صائب »

(لها تابع) السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

(١) من أساطير الادب الفارسي ان العندليب يعشق الورد . فمعنى البيت ان الورد أو عشقه أباد العندليب العاشق المسكين فلذلك لم نجد الا عظامه تحت الورد

سير الزمان

المؤتمر الدولي

الثامن للعلوم التاريخية

ملخص طائفة من الرسائل الفنية التي تليت فيه

عن تقرير سعيد وضعه الاستاذ محمد قدري بك
عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر

السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية ومكانته التاريخية

الثورة الفرنسية واستقلال اليونان

أساس القومية الحديثة

المسألة الشرقية

الفلسفة النفسية وعلاقتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا

الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة

العوامل الثابتة في التاريخ

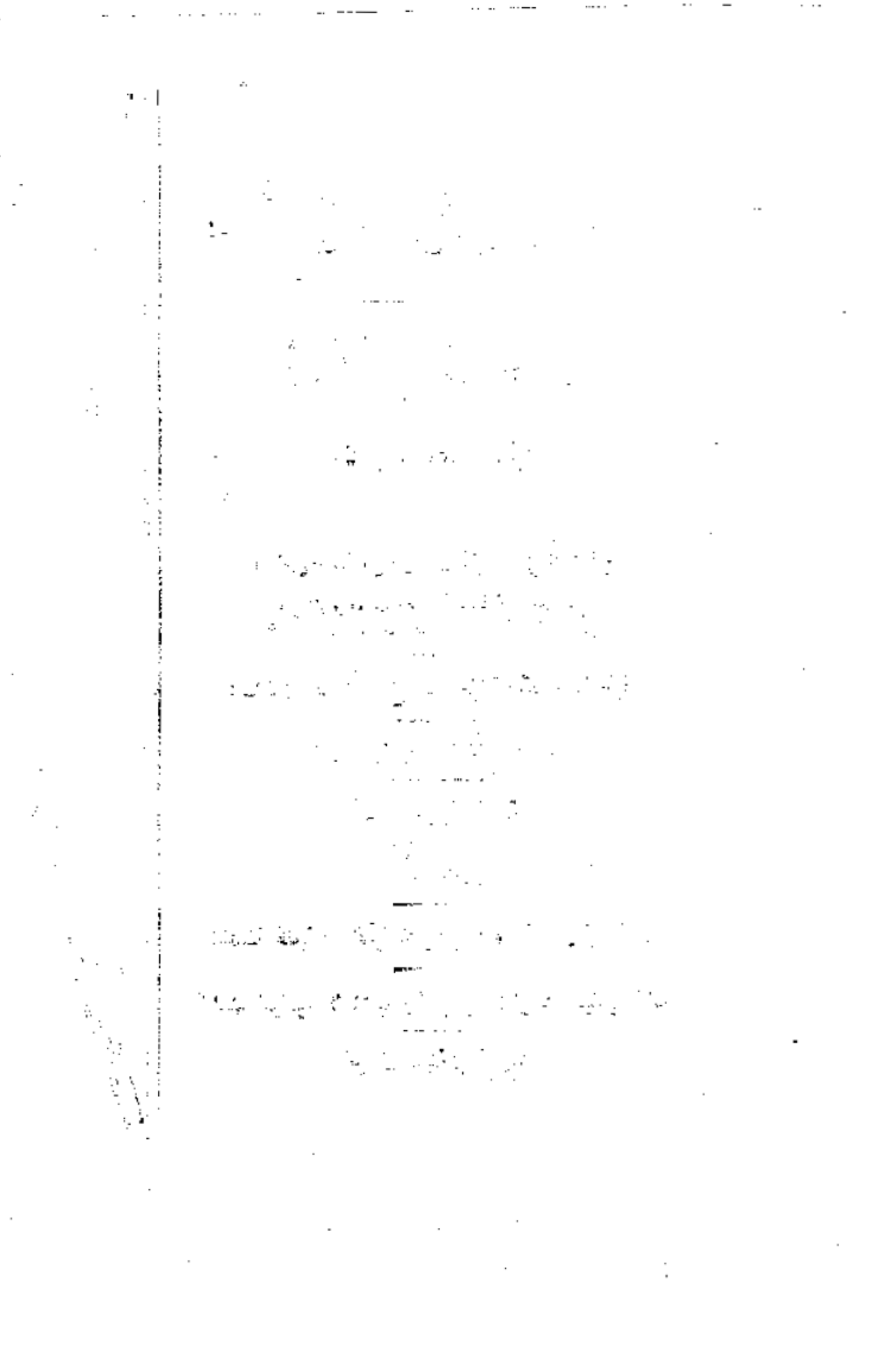

المؤتمر الدولي

الثامن للعلوم التاريخية[1]

ملخص طائفة من الرسائل النفيسة التي قليت فيه

عقد المؤتمر الدولي الثامن لعلوم التاريخية في سويسرا في الأسبوع الواقع بين ٢٨ أغسطس و٤ سبتمبر سنة ١٩٣٨ لأسباب متعددة أهمها :

أولاً — الصراع السياسي القائم بين الدول الكبرى والرغبة الملحة في أن يعقد المؤتمر في جو تسوده الطمأنينة والهدوء. ثانياً — ما تتمتع به سويسرا من مظاهر الطبيعة التي تتجلى في صور منقطعة النظير. ثالثاً — حياتها الفكرية والسياسية التي ترتفع فوق عواصف الاضطراب الأوربي

٢ — (تنظيم المؤتمر) في وسط هذه البلاد التي تمتاز بحياتها الطبيعية والسياسية والفكرية عقد المؤتمر الدولي الثامن لعلوم التاريخية وقد امتاز بالبساطة التامة في اعماله وحفلاته مما يصور الحياة السويسرية أكمل تصوير واشترك فيه ٤٨ دولة يمثلها ١٣٠٠ مندوب وكان أوفر الدول تمثيلاً المانيا ويمثلها ١٨٠ مندوباً وفرنسا ويمثلها ١١٠ مندوبين ، وايطاليا ويمثلها ٩٥ مندوباً ، وبريطانيا ويمثلها ٩٠ مندوباً بحيث كانت الصفة العامة للمؤتمر المانية ايطالية تمثل التعاون الوثيق بينهما في عالم الفكر كما هو ظاهر في عالم السياسة . وقد قسم المؤتمر خمسة عشر قسماً تتناول كافة نواحي الدراسة التاريخية على ماهو مبين بعد

(١) قسم ما قبل التاريخ (٢) قسم التاريخ القديم والآثار الكلاسيكية (٣) قسم المحفوظات التاريخية (٤) قسم العملة وتاريخها (٥) قسم العصور الوسطى وبيزانطه (٦) قسم التاريخ الحديث الى سنة ١٩١٤ (٧) قسم تاريخ الامم غير الاوربية (٨) قسم تاريخ الاديان (٩) قسم تاريخ القانون (١٠) قسم التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (١١) قسم التاريخ الحربي (١٢) قسم تاريخ الفكر (الفلسفة والفنون والآداب) (١٣) قسم تاريخ العلوم (١٤) قسم طرق الدراسة التاريخية ونظرية التاريخ وتعليمه (١٥) قسم الكتابة التاريخية

---

(١) عن تقرير مسهب وضعه الاستاذ محمد قدري بك عميد دار العلوم ومندوب الحكومة المصرية في المؤتمر

وقد عرض في هذا المؤتمر ١٥٠ رسالة بينها رسالتان للمندوبين مصريين وقد استعرضت هذه الرسائل اهم الافكار والآراء السائدة في الدراسات التاريخية في العالم في نواحيها المختلفة وتقسم العمل في جميع هذه الاقسام بالاشارات الكهربائية على لوحة تسمح للمؤتمر بأن يدرك بنظرة واحدة الرسائل التي تلقى في شتى اقسام المؤتمر في وقت معين. وسنلخص اهم هذه الرسائل فيما يلي

— ١ —

السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية ومكانته التاريخية[1]

ان ما يعزى عادة الى السلطان محمد الثاني من المقام التاريخي يحتاج الى إعادة البحث فيه فقد ارتفع هذا المقام عن الواقع في بعض النواحي كما انهُ انتقص في نواح أخرى. مثل هذا الفاتح مثل غيره من ابطال التاريخ، فقد عزي اليه انهُ بفتحه للقسطنطينية قضى على حكم الدولة الرومانية التي ظلت قائمة خمسة عشر قرناً وقضى على الكنيسة المسيحية التي سيطرت على العالم الشرقي اثني عشر قرناً، كما انهُ قضى على الثقافة اليونانية التي انتشرت في البحر المتوسط حوالى عشرين قرناً وبينما كان اتباع المسيح يطاردون المسلمين في شبه الجزيرة الاسبانية كان سلطان العثمانيين في الطرف الآخر من البحر المتوسط يبسط راية الاسلام في اوربا تلك الراية التي ظلت خافقة اربعة قرون وهو يعتبر بعد هذا اعظم مؤسس للامبراطورية العثمانية التي اخضعت مناطق واسعة في افريقيا وآوربا وهددت في القرنين السادس عشر والسابع عشر العالم المسيحي بأكمله. كذلك يعزى الى محمد الفاتح انهُ ارغم علماء الاغريق على الهجرة حاملين مخطوطاتهم الثمينة الى ايطاليا حيث انبثقت النهضة الاوربية بكل ما انطوت عليه من اتباع للمدنية من علم وفن واختراع. ويعزى اليه ايضاً انهُ اغلق طرق التجارة القديمة بين آسيا وآوربا فحمل خرستوفر كولمبوس وفاسكودي جاما على البحث عن طرق جديدة الى الشرق وبعبارة اخرى يعزى اليه انهُ الباعث المباشر على الاستكشاف الجغرافي والتوسع الاوربي. فاذا صح هذا كله فان المكانة التي وضع فيها محمد الثاني يجب ان ترق كثيراً بين ابطال التاريخ حتى توضع الى جانب الاسكندر الاكبر ونابليون. ولكن أكثر ما عزي اليه ليس في الواقع الا نتيجة تطورات تاريخية امتدت قروناً وأجيالاً عدة. مثال ذلك حركة احياء العلوم وحركة الكشف الجغرافي. أما عظمة محمد الفاتح فترجع في الحقيقة الى إنشائه الامبراطورية العثمانية نفسها فاستيلاؤه على القسطنطينية أضاف الى سلطانه منطقة ذات شأن عظيم قائمة في وسط الأملاك العثمانية وأزال عقبة من طريق التجارة والحرب براً وبحراً. ثم انهُ باتخاذه هذه المدينة عاصمة لملكه أنشأ مقراً مناسباً لحكومته التي كان يمد سلطانها على البلقان وآسيا الصغرى، وباحياء القسطنطينية وتجديدها أنشأ مركزاً جديداً للتجارة والثقافة

(١) الاستاذ البيرهوليير «أوبسل»

العلمية والفنية ، ووضع الى جانب ذلك أساس الدولة التي هددت العالم الأوربي قرنين من الزمان ولو ان نظم الحكم القائم على بناء عناصر الامبراطورية وحدات متفرقة ، أدى في النهاية الى انهيارها

— ٢ —

الثورة الفرنسية
واستقلال اليونان (١)

وجدت الثورة الفرنسية في بلاد اليونان أرضاً خصبة لنشر بذورها وبث دعوتها فبعد ان تخلت الروسيا عن عهودها التي قطعتها لليونانيين المرة بعد المرة كان طبيعياً ان يتجه هؤلاء الى فرنسا التي أذاعت مبدأ الحرية على لسان المؤتمر الأهلي في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦ وضمنت المعونة لكافة الشعوب التي ترغب في حريتها ، ثم لوّحت بهذه المعونة بعريضة فعلية حينما وجهت الحملة الفرنسية الى إيطاليا وأصبح لليونان شأن حربي في تنفيذ مشروعات فرنسا الجمهورية في البحر المتوسط ووفدت الرسل لتحريك الثورة في البلاد وإيقاظ الفتنة وأنشأت في بوخارست وأنكونا مراكز لدعاة الثورة المنتشرين في البلاد وتوزيع النشائر على المحاربين

وتقارير وكلاء فرنسا السريين وأنصارهم من اليونانيين تبين مبدى نشاطهم واتساع نطاق دعوتهم. وكان انتصار نابليون في ايطاليا يشير بتحقيق الآمال الجائشة في صدور اليونانيين وخاصة حينما احتلت جيوش فرنسا الجزائر الايونية وفضت على سيادة البندقيين في هذه الاراضي فتدفقت حماسة الشعب وظهر نابليون كمبعوث العناية الإلهية لتحرير اليونانيين . ومن ثم أوفدت الرسل الى باريس للمفاوضة في استخدام الجيوش الفرنسية لتحرير اليونان في مقابل استيلاء فرنسا على بعض جزر الأرخبيل واحتكار التجارة في شرق البحر المتوسط بل واحتلال بعض المواقع الحربية على الشواطىء غير ان هذه الأحلام جميعاً لم تلبث ان تبددت حينما تعقد الموقف الدولي وتعذر على نابليون ان يواصل عمله هناك

ومع هذا كانت الثورة الفرنسية والانقلاب الذي أحدثتهُ في العالم أجمع أحد عناصر النهضة الهلينية فالرجال الذين تزعموا الثورة فيما بعد تدربوا على أعمال الحرب في عهد الحكم النابليوني فمنهم من اشتغل بنقل المتاجر الى الموانىء الفرنسية مخترقين نطاق الحصار الانجليزي ومنهم من اشترك فعلاً في حروب الثورة ونابليون ودرسوا أساليبها ووقفوا على دقائقها حتى اذا انتهت حروب نابليون انتشروا في بلادهم ووضعوا خدماتهم ومجاربهم في خدمة الحرية الهلينية

على أن الثورة الفرنسية أثرت في اليونانيين تأثيراً مباشراً بمبادئها القائمة على الحرية والوطنية فعلى رغم التأثير المستمد من المدنية الكلاسيكية والبيزنطية بل وعلى رغم تأثير الكنيسة

(١) الاستاذ ابوستولس داسكلاكيس — أثينا

الارثوذكسية كان اكثر الرجال السياسيين والمفكرين الذين اشتركوا في هذا النضال. فقدس مشبعين بمبادىء الثورة الى حد أن اعلان الحقوق الفرنسي اتخذ نموذجاً للدستور اليوناني في كل ما يتعلق بحقوق المواطنين الهلينيين، ذلك الدستور الذي اقره المجلس الاهلي المنعقد في ايدور في نهاية سنة ١٨٢١ وأصبح يعتبر بداية بعث اليونان

— ٣ — أساس القومية الحديثة (١)

١ — يرجع عهد القومية الحديثة الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقد كانت القوميات موجودة دائماً ولكن باعتبارها مصطلحات جنسية. اما القومية باعتبارها وحدة فكرية وقضية فترجع الى عهد الثورة الفرنسية. فيكفي فقط والعبرة الاولى أصبح اقتران كل فرد من افراد الشعب بقومية معينة حقيقة ثابتة. وفي خلال القرن التاسع عشر أصبحت القوميات ترقى وأتم انواع التنظيم السياسي وغدا الوطن مصدر الثقافة والنفع المادي

٢ — وترجع القومية الحديثة في اصولها الى ذلك المصدر الذي يعتبر أساس المدنية الغربية بأكملها : «المصدر العبري والهليني». فهذان الشعبان كوّنا بعض المظاهر الجوهرية التي تميز القومية الحديثة لا في ناحيتها السياسية وانما في الناحية الثقافية، فكل فرد من أفراد (القوميات) اليهودية والاغريقية كان يشاطر بني قومه الشعور بميزات خاصة تفرقهُ عن كل الشعوب الأخرى. فكلاهما أنشأ فكرة الملكية والكهنوتية بما يخالف كافة الشعوب القديمة. وكذلك نشأت بين اليهود مبادىء التعاقد والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة، تلك المبادىء التي أصبحت فيما بعد عناصر القومية الحديثة كما ان الاغريق انشأوا مبادىء الوطنية المدنية وما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الهلينيين والبرابرة

٣ — على ان قومية اليهود والاغريق القدماء لم تلبث ان فقدت طابعها الثقافي والخلقي حين انشأ الاسكندر الاكبر امبراطوريته العالمية التي أوحت فلسفة (الرواقيين) ولما نشأت على أثرها الدولة الرومانية في وقت كان عناصر انتشار هذه الفلسفة في روما اضحت الدولة الرومانية الوارث الطبيعي للفكرة العالمية — فكرة التوحيد السياسي التي سيطرت على اوربا الى عصر النهضة

٤ — ولما كانت النهضة والاصلاح الديني يقومان على الرجوع الى المصادر الاصلية فقد اوحت الكتب الكلاسيكية والانجيل مبدأ القومية القديم غير ان اكتشاف فكرة القومية بقي محصوراً في دائرة معينة اي دائرة المتأدبين ولم تنتشر الى الجماهير الجاهلة بآداب النهضة ولذا كان من المتعذر ان تنشأ قومية ثقافية بالمعنى الحديث، قومية تقوم على اشتراك الشعب بأكمله في اليقظة

(١) للاستاذ هانس كوهن — نيويورك

القومية على ان اتجاه النهضة نحو احياء فكرة القومية لم يبدأ الا بعد ان جُرف امام حركة الاصلاح التي سيطرت على اوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر وهي حركة تقوم غالباً على أفكار عالمية

٥ — اما في انجلترا فقد انتشرت النهضة متأخرة عن اي قارة بحيث كانت معاصرة للاصلاح ولذا فمبادىء القومية جاءت بالانجيل في القرنين الخامس عشر والسادس عشر عن طريق المصادر الكلاسيكية ، وفي القرن السابع عشر عن طريق الانجيل . ويعتبر كرومويل وملتن اول من يمثل القومية الناشئة تحت ستار ديني مع ادراكهما بكل ما تنطوي عليه من المغزى السياسي . ولذا نرى الثورة الانكليزية تتضمن جميع مبادىء الانجيل ، مبادىء التعاقد والشعب المختار والمملكة ذات الرسالة ... الخ . ونجد اليقظة القومية في انكلترا لفكرة الشعب الاهلي المختار تضفي على الامة بأكملها لان الانجيل كان يقرأ في كل مكان بحيث اصبحت انكلترا اول امة بمناها القومي وقوميتها هذه لم تتصادم مطلقاً مع الدين بل نراها تغرس نفسها في الخلق الانكليزي حتى اصبحت طبيعة لا يتطرق اليها الشك

٧ — وفي تلك الاثناء نرى القارة الاوربية تتكوّن تحت زعامة فرنسا مبدأ الملكية المستنيرة وهو مظهر سياسي لفكرة القومية لانه يملأ هذه الفكرة بحياة ويقظة جديدة يشترك فيها الشعب بأكمله ولاريب ان اقتران المظهر بالفكرة ، فكرة تحويل الجماهير عن طريق العامل الثقافي والسياسي الى امة بالمعنى المعروف يبين بداية القومية الحديثة

٨ — ولما جاءت الثورة الفرنسية اتمت عمل المفوث في هذه الناحية بقوة وعنف ولذا فالقومية الفرنسية تجمل جميع مؤثرات القرن الثامن عشر كما فعلت القومية الاميركية . ولما انتشرت مبادىء القومية من فرنسا الى الدول الاوربية الاخرى بذلت جهود عظيمة لتحويل الشعب كله الى امة . وهذه الحقيقة وحدها تفسر مظهر القومية المختلف فيه نراها تتقدم في اوربا على ضياء الثورة وتمالبها من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨١٤ اذا بها تتحول بعد ذلك وخاصة في المانيا الى مظهر يخالف الصفة الفرنسية . فالقومية الفرنسية تقوم على مبادىء الحرية والانسانية والنزعة العقلية ولكنها في المانيا قومية محافظة ووجدانية

وكذلك نرى أن القومية تشمل اتجاهات مختلفة سياسيًا وفكريًا واجتماعيًا . وعلى الرغم من انها تشمل عناصر مشتركة فهناك تباين عظيم في اتجاهاتها وهو تباين ناشىء عن طبيعة البلاد ونزعاتها الخاصة . وحيث أن القومية ليست ظاهرة طبيعية ولكنها نتيجة تطورات تاريخية واجتماعية فليس هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بانها ظاهرة خالدة . وقد تحل محلها مرة أخرى اتجاهات عالمية مما يطابق التطور الصناعي والاقتصادي في عصرنا

— ٤ — المسألة الشرقية (١)

قلما نرى اجماعاً في مراجع التاريخ على تحديد قاطع للمسألة الشرقية نقراها تتسع احياناً حتى تشمل كافة المنازعات التي شجرت بين البزنطيين وبين الشعوب الاسلامية في اوروبا وآسيا وافريقيا حالة ان معناها المحدود يقصر نطاقها الجغرافي والسياسي على المسائل المتعلقة بالشعوب المسيحية القائمة في حوزة العثمانيين في البلقان والبنت وهذا البحث يتناول ثلاث مسائل رئيسية

اولاً — مبدأ القومية الذي نادى به اليونانيون معتمدين في ذلك على التساند الاوربي والارتباط الثقافي في اوربا . وثانياً — مراعاة التوازن الاوربي ازاء الامبراطورية الروسية الراغبة في التوسع باسم نصرة الدين وتعزيز التقاليد الموروثة في انتزاع املاك العثمانيين . وثالثاً — البحث في اصلاح الامبراطورية وتجديدها والابقاء عليها وحصر البحث في هذه الاوضاع الثلاثة تضمن بطبيعة الامر قصر المسألة على ظروف لا تتعدى العصر الذي نشأت فيه . اما الحلول التي عرضت لمعالجة هذه المسألة الى نهاية القرن التاسع عشر فهي . اولاً — تقسيم الاملاك العثمانية بين الدول الأوربية وثانياً — اصلاح وتجديد الامبراطورية بما يطابق مقتضيات الروح الأوربي وقد رفض الحل الاول ابتغاء الاحتفاظ بالتوازن بين الدول . أما الحل الثاني فقد جبط من تلقاء نفسه للتنافر العظيم القائم بين نظام الحكم في الامبراطورية وقواعد المدنية الأوربية . فقد كانت الامبراطورية تقوم على أساس الاحتفاظ بحكم طبقة ممتازة بدينها على حساب الرعايا المسيحيين وهو وضع يؤدي الى القضاء على كل مساواة مدنية اوسياسية او اجتماعية . أما الحل النهائي للمسألة فكان تنفيذ مبدأ القومية بما يلائم الرعايا المسيحيين والدول ذات المصلحة

ولتحديد عصور المسألة الشرقية يجب مراعاة التطورات التي وقعت في سير العلاقات السياسية بين أوربا والامبراطورية العثمانية وعلى هذا الأساس يمكن تمييز عصرين هامين من عصور الحكم العثماني في البلقان والبنت . فالعصر الاول هو عصر اتساع الامبراطورية العثمانية الى عهد الحصار الثاني لفينا سنة ١٦٨٣ والعصر الثاني هو عصر التراجع التدريجي الى وقت معاهدة لوزان وهو عصر المسألة الشرقية بمعناها الحقيقي . وفي العصر الاول يمكن تمييز عناصر متعددة هامة .

(١) انهيار مقاومة الولايات الصربية المستقلة في معركة كوسوفو سنة ١٣٨٩ . (٢) انتهاء مقاومة الدول البلقانية لقراءة العثمانيين سنة ١٥٠٣ (٣) بلوغ السلطة العثمانية قمتها في حصار فينا وابتداء التراجع بعد الهزيمة الكبرى أمام أسوارها سنة ١٦٨٣ . وفي العهد الثاني (١) انتقال النفوذ النمساوي الى الروسيا في معالجة الشؤون العثمانية سنة ١٧٧٤ (٢) بداية الثورات الأهلية

(١) للاستاذ فؤاد بوبوفك — بلغراد

في البلقان ونشوب الثورة المصرية سنة ١٨٠٤ . (٣) الانتقاض على حطة التقسيم الروسي والتجديد العثماني التي بدأها سليم الثالث سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٧ . (٤) إيقاف مطامع الروسيا الخاصة وتحويل الشئون العثمانية الى مصلحة أوربية عامة سنة ١٨٥٦ . (٥) تصدر مبدأ القومية للمسيحيين والمسلمين على السواء وهو الحل الحاسم الذي جعل المسألة الشرقية تحيى من الوجود (١٨٧٥ — ١٩٢٣)

— ٥ —

الفلسفة النفعية وعلاقتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا[1]

تحولت مبادىء الاحرار في انكلترا تحولاً خطيراً في النصف الاول من القرن التاسع عشر بتأثير مجموعة من الآراء المعروفة باسم آراء النفعيين في تعديل النظام الاقتصادي والاجتماعي. ومبادىء الاحرار لا تعني من الوجهة السياسية سوى نظام معين من انظمة الحكم وهي تنطوي على الاخذ بنظام سياسي يضمن الحرية الدينية والمدنية للافراد وانشاء حكومة مسئولة عن طريق مجالس منتخبة . وقد نشأت ارستقراطية من الاحرار بين ثورة سنة ١٦٨٨ وقانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ . وفي خلالها كان يسيطر على البرلمان طبقة الاحرار الملاك وكانت حريات الفرد محدودة من وجوه عديدة غير انه لم يلبث ان نشأت الى جانب الاحرار طبقة متوسطة كان تأثيرها ملحوظاً في سياسة انكلترا التجارية

ذلك ان الثورة الصناعية انشأت نظاماً اجتماعياً وسياسياً لا يتفق وسياسة الاحرار الارستقراطيين ولذا تحدت مصالح الصناعة مصلحة الملاك في الاشراف على الدولة ، وكانت مشكلة الاحرار حينئذٍ هي مشكلة التحول عن الاساس الارستقراطي الى اساس يتفق ومصالح الطبقة الوسطى . واولئك الذين واجهوا المشكلة وقدموا الحلول الناجحة هم جماعة النفعيين وعلى رأسهم بنتام وأتباعه الذين أثروا في سياسة الاحرار تأثيراً لا يقل في خطورته عن تأثير الفلاسفة في الثورة الفرنسية

فقد كان لهذه الجماعة سياسة وبرنامج وخطة للعمل تمثل آراء ومصالح الطبقة الوسطى من الشعب ومن ثم كان لهم على قلة عددهم شأن عظيم في توجيه سياسة الاحرار لان مبادئهم القائمة على توجيه العناية الى مصلحة الافراد المادية وتعزيز العمل الفردي في كافة الشئون الاقتصادية صادفت قبولاً من جانب الطبقة الوسطى للشعب

وقد كان الفلاسفة الراديكاليون الأداة السياسية لجماعة النفعيين فتراهم ينادون بالانتخاب

(١) للاستاذ سلون شابرو — نيويورك

العام واخضاع الواردات لسلطة النواب والانتخاب السري ... الخ مما يعاون على تحويل السلطة من الطبقة الارستقراطية الى الطبقة الوسطى. ولذا تولوا وحدهم دعوة الاصلاح في وجه الهوج Whigs والتوري Tory على السواء حتى صدر قانون الاصلاح سنة ١٨٣٢ ذلك القانون الذي يعتبر فاتحة حكم الشعب في انجلترا. وأما السلاح الاقتصادي للتفيين فقد شحذه جماعة الاقتصاديين الذين بثوا دعوة مناقضة لمصلحة الملاك ومشايعة لاصحاب رؤس الاموال حتى انتهى الامر باطلاق حرية التجارة التي كانت مقيدة لمصلحة اصحاب الأراضي وحدهم وقد كان اتصال التيارين السياسي والاقتصادي الصادرين من منبع واحد وهو مذهب التفيين هو الذي ادى الى نشوء حزب الاحرار

وفي النضال الذي شجر بعد سنة ١٨٣٢ بين العمال واصحاب رؤوس الاموال كان مذهب التفيين في جانب رؤوس الاموال لان طبيعة مبادئهم تقتضي الدفاع عن حقوق الملكية ولذا استطاع الاحرار الاحتفاظ بقوتهم من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٧٠. ولما نشأت مبادىء جديدة معارضة لمبادىء التفيين وهي مبادىء الاشتراكيين انتشرت المبادىء الديمقراطية وتحولت السلطة من الطبقة الوسطى الى الشعب باكمله حتى توفر السعادة لا لطبقة معينة ولكن لجميع الطبقات

— ٦ —
الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة (١)

لقد حان الوقت الذي يجب فيه ان تتخذ الفلسفة الاسلامية السياسية مكانها في الفلسفة السياسية العامة. فالى جانب نصوص القرآن التي تتضمن وجوهاً سياسية متعددة تتعلق بالنظام والقانون والاتحاد والتسلية وصيانة مصالح الدولة والمحافظة على المساواة بين الناس ظهر كتّاب متعددون بين القرنين التاسع والخامس عشر عالجوا كثيراً من النظريات السياسية التي تضمهم بحق بين نظرائهم من اقطاب العالم. واليك نموذج من هذه الكتابات مقسمة وفق الاقسام التي تقسم اليها النظريات السياسية عادةً

اولاً — نظرية الدولة

ا — الفارابي ٨٧٠ — ٩٥٠

تكلم عن البواعث التي ادت الى نشوء الدولة فقال ان الانسان يتحلى بملكتين مميزتين له عن غيره وهما ملكة التفكير وملكة النقاش وهما ملكتان تدفعان الانسان الى التجمع بغيره سواء اكان ذلك في مجتمع عادي او مجتمع دولي عام وأهم وحدة في هذه المجتمعات هي وحدة الدولة (السياسة ٣، ٤)

(١) الاستاذ شرواني بالجامعة العثمانية بالهند

ب — الماوردي ٩٧٤—١٠٥٨

قال ان الله تعالى قد وضع القوانين الطبيعية حتى تحسم الخلافات بالحسنى وتشيع مبادىء الحق والصدق بين الناس كما انه عهد برعاية بني البشر الى حكومات تتولى ادارة شؤون العالم بحكمة (الأحكام السلطانية)

ثانياً — نشوء الدولة

أ — وضع الفارابي عبارات صريحة نظرية التنازل الاجماعي للحقوق فقال حينما رأى الناس ان كيان المجتمع مهدد بالاعتداءات الفردية اجتمعوا وتنازل كل منهم عن جزء من حريته المطلقة فتكونت بذلك الدولة وهذه النظرية تسبق نظرية «العقد الاجتماعي»

اما الغزالي ١٠٥٨ — ١١١١ فوضع نظرية صريحة عن نشوء الدولة على اساس التطور التدريجي فبدأ بحيثة الانسان الخاصة وحاجتها الى التعاون والتبادل الاقتصادي والحماية وانتهى الى انشاء الدولة والحكومة . (الاحياء ٧٤٦)

ثالثاً — السيادة وصاحب السيادة (نظام الملك ١٠١٧—١٠٩٢)

يقول ان الامير مكلف رعاية مصالح الشعب وتوفير السعادة والطمأنينة له وعليه واجب حفظ الامن والسلم في البلاد ومن مميزاته خشية الله والتقوى والطهارة . والفارق الوحيد بين الملك والرعية هو ان اوامر الملك يجب ان تطاع

رابعاً — نظام الدولة

يستعرض الفارابي انواع الدول المختلفة الى حد يقترب كثيراً من النظريات الحديثة ويتكلم عن المبادىء التي تقوم عليها الدولة والمستعمرات ويقترب من مبدأ الحكم الذاتي في حكم المستعمرات بأن يخول لها حق وضع القوانين او تعديل القوانين التي أتى بها المستعمرون من بلادهم الاصلية طبقاً للحاجة (السياسة ٩٤)

ويتكلم ابن خلدون ١٣٢٢ — ١٤٠٦ باسهاب عن تأثير البيئة في نظام الدولة متقدماً بذلك نظريات منتسكيو في كتاب روح القوانين

خامساً — السياسة الدولية

تكلم الفارابي عن الحوائل الطبيعية والصناعية التي تفصل بني البشر فقال ان الاختلافات الطبيعية بين بلد وآخر ترجع الى الاحوال الجوية التي تؤثر في طبائع الشعب وعاداته . واما الحوائل الصناعية فناشئة عن اختلاف اللغة (السياسة ٤١) وتكلم نظام الملك عن مهمة المبعوثين

السياسيين فقال ان تعيينهم يرجع الى غرضين اولاً نقل آراء حكومتهم الى الحكومات الموفدين اليها وثانياً القيام ببعض الخدمات السرية واستقصاء الحالة السياسية في البلاد التي يوفدون اليها (سياسة ٢١)

وتكلم الفارابي في مواضع كثيرة عن الجمهورية والشيوعية والفردية فوصف الجمهورية بانها نظام يقوم على المساواة امام القانون فضلاً عن المساواة السياسية والاجتماعية رغماً عن ان الدولة تتكوّن من عناصر شتى من الميول والآراء. ووصف الشيوعية بانها نظام يشرك الشعب في مقومات الحياة الاساسية على ان يبقى للفرد حرية العمل وحرية التعليم ووصف النظام الفردي بانه نظام يحرر الفرد من كل قيود العمل والصناعة على ان يبقى مع هذا خاضعاً للقواعد والانظمة السياسية

—٧— العوامل الثابتة في التاريخ(١)

كل شيء له قيمته في التاريخ حتى التفاصيل الصغرى وكل اثر من آثار الحياة الانسانية يستحق العناية به لذاته ولغرض الاعلى الذي يستخدم فيه ولكن اذا كانت العناصر الانسانية كلها تستحق العناية فهنالك عناصر ثابتة تسيطر على تاريخ العالم على رغم المفارقات التي تسترعي النظر لاول وهلة. فهذه العناصر هي بمنزلة هيكل ثابت لكل ما يدور حولها من وجوه التغير والتقلب

فما هي هذه العناصر الثابتة وسط التغيرات الوقتية؟ اولاً — البيئة الطبيعية التي تفرض ارادتها على كافة المؤسسات الانسانية القائمة في وسطها بحيث تنشىء ارتباطاً وثيقاً بينها على مر العصور. وهنالك عامل ثان هو عامل الجنسية فعلى الرغم من ظهور جنسية ما باسماء مختلفة فان لها في اتجاهاتها ميولاً واغراضاً متماثلة. وهذا كله واضح في حالة اوربا الشرقية وفي جمهورية السوفيت. وثالثاً تظهر بين الحوادث التاريخية المتراكمة عناصر بارزة لها قيمة ثابتة. مثال ذلك المدينة الحالية التي نراها تظهر في العهد الروماني في شكل مقاطعة وتبقى في العصر الوسيط دائرة الاسقفية وفي العصر الحديث تتحول الى مقاطعة من المقاطعات الفرنسية مما يشير صراحة الى ميزة ظاهرة في موقع هذه المدينة. فليوجه البحث دائماً في عناصر التاريخ التي تزاحم بعضها بعضاً الى العوامل الثابتة فهذه العوامل هي الركن الأساسي لفهم التاريخ بأكمله فهماً صحيحاً

(١) الاستاذ فولا بيورجا — جامعة بوخارست

الكولونيل براوث

الكولونيل كولستون

الكولونيل شايه لوخ بك

الجنرال ستون

محمد رءوف باشا

بردي باشا

صور فريق من الضباط الأمريكيين
في الجيش المصري في عهد فرعون بنتا
وهي مهداة من الأمة المصرية للمكتبة

باب المراسلة والمناظرة

نشوء اللغة العربية

اذا نقد المقتطف تأليفاً ، تعرّض لموضوعه وجهاً لوجه ، دون القصد الى ما فيه من التعرّض استطراداً . فلقد وقفنا على نقد بعض المجلات السورية ، فاذا فيها ذمّ للغة العربية أشنع ذمّ وتقبيح لاصحاب معاجمها ، وتسديد سهام سامّة الى هذه اللسان وحيها . وما ذلك إلاّ لاننا أثنينا عليها ثناء طيباً في تضاعيف كلامنا ، فأظهر الكاتب بسوأته هذه انهُ من اقحاح الشعوبية ومع ذلك لم يذكر كلمة واحدة للموضوع الذي وقفنا كتابنا عليه اي نشوء اللغة العربية ونموّها واكتمالها . ولذا ارتدّ سهمهُ الى صدره فصرعهُ شرّ صرعة

نما المقتطف فقد جرى في الميدان جرياً حثيثاً سديداً مقتحماً اياه بأحسن أسلوب، على مألوف عادته وألطفه وأبدعه ، ولهذا نجيب على كلمته بما يدو لنا

قال حضرة الناقد الثاقب في المجلد ٩٤ : ١٢٥ : « ونحن نرى ان مذهب العلامة الجليل على غرابته وبنائه على الافتراض لا على التحقيق العلمي لا يخلو من فائدة ومتعة »

قلنا : ان في ما ذهبنا اليه قواعد وضوابط تجري في اضّتها جرياً مطرداً ، وليس هناك غرابة ولا افتراض بل كلهُ تحقيق علمي ونظر دقيق ، اذ لكل حرف من حروف اليونانية واللاتينية مقابل لا يحيد عن منحاه قيد شعرة . فاذا كان مثل هذا ، يسمى غرابة وافتراضاً لا علماً ، فلا ندري كيف يكون العلم ، ولاعلى اي قوائم يقوم او ينهض؟ ولا ما يراد بالعلم في نظر الكاتب الجليل

واما سبب حياة بعض الكلم الدخيلة وتخليدها ، وموت بعضها الآخر وزوالها من عالم اللغة فهو لأن في تلك المفردات مادة وصيغة ووزناً ورشاقة وخفة مقتبسة كلها من مزايا الضادية وخواصها الخالدة ، على حدّ ما تُرى في العرب انفسهم ، إذ قاوموا جميع الامم وقارعوا الشعوب القديمة ، فنحوا وانقرضوا ، وناهضت لغتهم سائر الالسنة ، فكتب لها الفوز على ضرائرها . فكانت النتيجة انهم بقوا الى عهدنا هذا مستأسدين بلغتهم ، فكأنهم قُدّوا من الجلمود ، بل قل الحق من صخرة الخلود !

فني (البنك) مثلاً اصل عربي وان لم يكن المعنى واحداً . فكفاها حياةً انها اقتبست صبغة وقوة من المادة العربية (ب ن ك) الضادية . وقل مثل ذلك على (التلفون) ففيه مادة (ت ل ف) والواو والنون من الكواسع المألوفة في منطق بني مُضَر ، بخلاف (التلغزة) فاذا سلمنا ان فيها مادة (ت ل ف) العربية ، فالزاي والهاء ليستا من الكواسع ، ولا مما تذيّل به المفردات

العدنانية . زد على ذلك ان السلف منّا لم يقابلوا الحرف الافرنجي "ڤ" بالفاء

اما (المباصرة) ومشتقاتها فقد تدخل في جميع مباحي بمعاني فتقول مثلاً : « هل المشهد بـ (المباصير) ، فيرى المشهد في (المباصرات) المستقبلة في دائرة واسعة » فقد قرأها الحربي لاول مرة ، عرف معناها او يكاد يعرفهُ ، وان لم يسمع باللفظ ، اما (التلفزة) فلا يفهم منها شيئاً . وربما رأى فيها شيئاً من الجرزة ، والجرمزة ، والجلهزة والحرمزة ، والدلزة ، او ما يشمّ منها رائحة الخرفشة والحنبشة ! ! !

وإما (الفيزياء) فخالف لما جاء منقولاً عن العرب وأنها (علم الطبيعيات) فما فعل بها ؟ فضلاً عن أنها مخالفة لما صرح به اللغويون إذ قالوا : « وردت خمسة ألفاظ على وزن فعلياء وهي : كبرياء ولمياء وهيمياء وسيماء وزمياء . (راجع روضات الجنات ص ١٥٦) . ومع قلة هذه المفردات الخمس ، لا نرى لها ذكراً ، اللهمَّ إلاَّ كبرياء وسيماء ولا نزيد عليها . فهل نضيف الى لغتنا رطانة على رطانة . وعندنا ما نستغني عنها ؟

وأما قول الناقد الجليل : « إن التعريب جرى عليه العرب في القرون الاولى ، فقالوا : قاطوريس وماينخوليا وإيساغوجي وأرثماطيقا والأسطرلاب (كذا . أي عطف معرفة على نكرة) ، وأقرابادين (كذا) وغيرها » فنحن لا ننكره ولن ننكره . لكن أيجهل أستاذي العلامة ان جميع المعربات ليست من قبيل واحد ، فبينها الرشيق والمأنوس ، وبينها الوحشي والحوشي ، فالعرب أخذت بناصية الأليف ، وردّت المريب المسيخ . فماش من الدخيل انقليل ومات الكثير فلا رحمة عليه . أو يجهل صاحبي الامام المنتقد ان معرّبي تلك الحروف كانوا أناساً واقفين على الإريّة واليونانية أكثر من وقوفهم على المدينة ، إذ كانوا احداثاً فيها . والدليل ان العرب الخلص وضعوا في مكانها حروفاً أخر ونبذوا في العراء تلك الرطانات التي تفزع الشياطين أنفسهم ، ولذا قتلوها قتلاً وحيًّا فقالوا في مكانها : مقولات وسوداء ومدخلا (إنَّهم ينظر في ايساغوجي علم كتاب في المنطق) وعلم الحساب

بقي الاسطرلاب ، فان ابناء عدنان رأوا فيها روحاً عربية أي (اسطرلاب) على ما يقول صاحب القاموس[1] ، فتركوها بدّمها تقاسي الأمرين ، والاّ لو تفسّحت تلك الأعجمية تنفّس

(١) يحسن بنا ان نذكر هنا ما يقوله الخوارزمي في من يؤول بعض الالفاظ الاعجمية تأويلا يناسب الاشتقاق العربي ولا يفكر في أن لا مناسبة بين هذا الاصل وذاك . وان ذلك التأويل من قبيل كلام الرجل بالحرف . قال في كلامه على الاسطرلاب وتأويله تأويلا عربياً : « الاسطرلاب معناه » « مقياس النجوم » وهو باليونانية (اسطرلابون) . (واسطر) هو النجم و (لابون) هو المرآة . ومن ذلك قيل لعلم النجوم (اصطرنوميا وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا الاسم بما لا معنى له . وهو أنه يزعمون ان (لاب) اسم رجل . و (أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف » الخ

الاعاجم (نوجاز لنا هذا التعبير) لأجهزوا عليها واوردوها حياض الموارد التي لا يصادر لها

واما (الاقراباذين) فانت أبصر مني فيها وفي اضطلاعها ، فانها لا توجد في معجم ثقة لان العرب الصميم لم تدخلها في جنة كلامهم ، فهي موجودة فقط في تصانيف بعض الاقدمين في العهد الذي كانوا يأتون بكل كلام اعجمي ، يوهموا الناس ان إغرابهم هذا يرفعهم الى اعلى مراقي العلم ، ويظهرهم للعوام انهم واقفون على أسرار العلم لوقوفهم على رطانة الاجانب !!!

واما الآن فانا لا نسمع في معناها إلا (تركيب الادوية) او « علم الصيدلة او الصيدنة »

واما « علم مظاهر الحياة » فهو كقولك « علم وظائف الاعضاء » ، لأنهُ لا مظاهر الم يكن ثمَّ وظائف فهما امران متلازمان . زد على ذلك ان بصراء العلماء وحُذاقهم رأوا في (الوظائف) — وهي جمع وظيفة — خروجاً عن معناها الفصيح الصحيح ، الى معنى مولَّد — وقد ولَّدتهُ قابلةٌ غير كيحة بمهنتها ، فهي « غير قابلة » لان تمتهن مهنتها ، فاصبحت الوليدة « غير قابلة » لتأدية معناها . ولهذا استحسن فريق أن يقولوا (علم مظاهر الحياة)

واما (اللاقطة) فانها — وان كانت تصلح لمعنى آخر عام — تصلح لأن يقيد معناها من باب تخصيص العام . وهذه خاصَّة من خواصّ اللغات الحية . وهو كثير في كلامهم ولا جرم ان حضرة الناقد يدري هذا الامر أحسن دراية ، بل أحسن مني بكثير ، لكنهُ يتجاهل وهذه اللاقطة التي تكلم عليها ، مأخوذة من المثل العربي الذي اشار اليه . فيكون كقولنا : كل كلام ينطق به الاسلكي قد يلتقطهُ هذا وذاك لسقوطهِ في نصيب الجميع . وفي ذلك من الاشارة الدقيقة اللطيفة ما يقيم العربية في اعلى عرش ينصب لسائر الالسنة

وادخال (اللام) على جواب (لو) المنفي و (ما) : هو من باب الزيادة اللفظية لأمر شيء آخر . وهو — وان كان ضعيفاً حسن الوقع في السمع

ومجيء (عدة) بمعنى عدد كثير ، وارد في كلام البلغاء الفصحاء قال اللغويون في تفسير اساغ : « اساغ فلان بفلان ، اذا تمَّ امره به ، وبه كان قضاء حاجته . وذلك انهُ يريد «عدة» رجال او « عدة » دراهم ، فيتم واجد ، به يتمّ الامر ، فاذا اصابهُ قيل اساغ به » — وفي المخصص في اجناس البُرّ والشعير : « ولبنيه (اي السنبل الجُعْرة) جروف « عدة » — وقال ابن السيكّيت في تهذيب الالفاظ : « يقال أتانا دَهْمٌ من الناس ، اي « عدة من الناس كثيرة » . وهناك غير هذه الشواهد وهي لا تحصى

وقولنا : « ان قس الكلمة اليونانية » فهو كقول سيبويه في مَذْحج : « الميم من نفس الكلمة » (وراجع اللسان في ذحج) — وقال ابن المبارك وهو من أئمة اللغة والنحو في معنى قفير الطحّان : « هو ان يقول : أطحن بكذا وكذا ، وزيادة قفير من « قس » الدقيق » —

وقال ابن الأثير في النهاية في مادة (ثرد) : بل الشدة والقوة ، اذا كان اللحم نضيجاً ، في الغرق اكثر ما يكون في « نفس » اللحم — وفي اللسان في باب التوكيد (٣ : ٧١) « ويُثرّد عليه نحو جاءني « نفس زيد » « وعين » عمرو » اي ذاتهما . وفي التنزيل : كتب ربكم على « نفسه » الرحمة اي ذاته انتهى . — وقال ابن شُمَيْل : « السهم نفس » الفصل » (راجع اللسان والتاج في سهم) ولو اردنا الامعان في ذكر مثل هذه الشواهد لملأنا جزءاً من اجزاء المقتطف

و (التلغراف) مات حين ظهور (المُبْرق) للآلة . (والبرقية) لتبأ البرقي ، فهي حيَّة فقط على لسان غير العربي الصليب

وقد ذكرنا سبب الرفض لادراج مقالاتنا اللغوية في مجلة مجمع فؤاد الأول ، فلا حاجة في صدرنا الى العود اليه ، اذ لا عظيم جدوى فيه . وسلامٌ على المخلصين في مباحثهم كناقد المقتطف العلامة وكمنشئه الكاتب الشهير ومنهُ تعالى التيسير

والآن ليسمح لنا حضرة الناقد الجليل الاون ان نسأله كيف جاز لهُ ان يقول في ص ١٢٤ س ٢٣ : في التاسع عشرة بمعنى التاسعة عشرة

ثم أليس في قوله بعد سطر : في الرومية اليونانية خطأ طبع والصواب في الرومية واليونانية وهل ورد في كلام « فصحاء » العرب مثل قوله : تكلم « عنهُ » (ص ١٢٥) وهو يريد « تكلم « عليه » ! نعم يقال : تكلم « عنهُ » اذا تكلم نائباً عن رجل اما في موضوع من الموضوعات فيقال تكلم « عليه »

وقال في تلك ص ٢ س ١٧ : « ولا ادري لماذا يُحلّ الأب شيئاً ويحرّم آخر مثله » — وانا لم أحل شيئاً ولم احرم آخر . انما « استحسنت » استعمال بعض الكلم « وعجبت » طائفة اخرى لاغية والفرق ظاهر بين ما قلت وبين ما يعزوه اليَّ حضرتهُ

وقال في تلك ص ٢ س ١٩ : « وما دامت الكلمة عن العربية ... » والذي رأيتهُ مستعملاً في كلام بلغاء الفصحاء : « الكلمة على ... » وان لقوله وجه تخريج وتأويل ، لكن الصراط المستقيم اولى من اتباع الصراط المُلْتوي

وفي تلك ص ٢ س ٢٦ : « تثير المناقشة حول هذا الكتاب » . وانا لم اسمع بمثل هذا التعبير الذي يحتاج الى تخريج عميق وغوص بعيد في بحار التوجيه والتأويل ، ذلك التأويل الذي لا يخلو من تعسف انما المسموع ناقشهُ الحساب او في الحساب وناقشهُ الكتاب او في الكتاب والقائل صاحب اساس البلاغة ، وليس لي في هذا الانكار نافة ولا جمل . والله أعلم

مصر القاهرة الأب انستاس ماري الكرملي
من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

باب الأخبار العلمية

غرائب الكهربائية البشرية والحيوانية

نعوض جندي

الكهربائية البشرية في نخال مصري

دعاني أحد زملائي في عمل الحكومي بادارة خزانة السكة الحديدية بالقاهرة في ١٠ يناير سنة ١٩٣٩ الى زيارة متجر حضرة محمد افندي السيد بحي تاجر الدقيق بحارة السيدة زينب بالقاهرة ، وذلك لمشاهدة رجل مُكَهْرَب بكهربائية بشريَّة جلية فاستقبلني صاحب المتجر بكل ارتياح . وبعد التحية والتعارف استوضحته كيف اكتشف الكهربائية البشرية في ذلك الرجل فأجابني قائلا : — « تبينتها فيه مصادفة » . فقلتُ حسناً ، فان كثيراً من المكتشفات القديمة والمخترعات الحديثة قد تمت عفواً . وسألتهُ : — بقي اهتديت الى هذه الظاهرة الطريفة مع أنك لم تقرأ ما كتبتهُ عليها في غير مقالٍ ، في المقتطف . فروى ما معناه :

« منذ عشرين يوماً كان هذا الشاب مكبًّا على عمله العاديّ ، وهو نخل الدقيق كما تشاهده الآن ، فاذا بغلام يدنو منهُ محدثاً اياه في شأن خاص فلمس الغلام عفواً أحد ساعديه وهو ينخل فانتابت اللامس رعدةٌ كهربائية فتقهقر مذعوراً ثم سألنا السبب فلم نستطع تبيانه فلمسنا النخال في مواضع متعددة من جسمهِ فأصابنا ما أصاب الغلام وحينئذٍ جعلنا نفكر في كنه تلك الرعدة الغريبة حتى قيض الله لنا أحد معارفنا فأرشدنا اليكم كي تعللوا لنا تلك الظاهرة « الكهربائية » .

وإزاء ذلك لم يسعني الاَّ أن لمست غير مرة ساعد (عبد العزيز محمد امين النخال) المقصود وظهره وعنقهُ ، وهو قائم بعمله فاعترتني كل مرة الهزة الكهربائية وسمعت صوت الشرارة المتولدة من جسمه ، فأيقنت أنها كهربائية بشرية فسألتهُ هل تقرأ وتكتب فأجاب إيجاباً وأشعر بألم عند ما يلمسك امرؤٌ فقال نعم ، اشعر بألم طفيف فنصحتهُ بألا يسمح لأمرىء بلمس عينيه أو أذنيه اجتناباً للضرر الذي يلحقهُ من الشرارة . والفيتهُ شابًّا قوي البنية ، يبلغ من العمر زهاء ٢٩ سنة فالقيت عليه الاسئلة الآتية : —

(١) هل تظهر هذه الكهربائية حيما تقف النخل ؟ فقال : كلاَّ

(٢) هل تحتذي حذاء من الصمغ المرن وجوارب من الصوف ؟ فقال نعم

(٣) وبماذا تتغذّى — قال، بالفول المدمّس والعدسية والحمّص والخضراوات والفاكهة ولا آكل اللحم الا مرة واحدة في الاسبوع ولا اتناول مسكراً ولا مخدّراً بل اشرب قليلاً من الشاي: شأن غيري من العمّال الاصاغر الفقراء

ثم طلبت اليه أن يخلع حذاءه، ففعل مستأنفاً عمله في الدخل، فانقطع حالاً ظهور الشرارة الكهربائية، فاوضحت للحاضرين أن ذلك الحذاء مصدر ظهور الشرارة. فقالوا وكيف ذلك؟ فأجبتهم بما كان يحضرني وقتئذٍ وهو لا يخرج عن معنى النصّ المثبت فيما يلي بغير مدخر لمعرفة، وانما انا باحث ينشد العلم في مصادره ومن أربابه اينما وجدوا. وربما عرفت شيئاً وغابت عني أشياء فرجوت أن يرشدني اليها خبراء الهندسة الكهربائية من قرائنا الافاضل ولهم الشكر سلفاً. واليك التعليل المشار اليه: وفقاً لمعلوماتي الضعيفة: —

تحوّل الطاقة

« ينبغي للعامل أن يكون ذا طاقة معينة ليُتاح له أداء عمله. وان تدّخر تلك الطاقة في عضلاته، متولدة من الغذاء الذي يتغذّى به، والهواء الذي يستنشقه. والطاقة التي تدخر في عضلاته هي طاقة حرارية تتولد من العمليات الكيميائية المختلفة التي تحدث في باطن الجسد. فاذا تعب المرء، فذلك لان عضلاته ولّدت مقادير كبيرة من المادة الكيميائية المسماة الحامض اللبنيك وحينئذٍ يحتاج الى الأوكسيجين ليخلصه من ذلك الحامض. وهذا سبب انقطاع العامل عن شغله وبه يتعلل الصداء، لان مجرى الدم ينقل الأوكسيجين من الرئتين، جهد استطاعته، الى العضلات لكي تتمكن من إحراق تلك الفضلات جميعها. وحتى يتم ذلك، يشعر الانسان بالراحة، ويحس أنهُ قد استعاد طاقته فيستأنف عمله

« إذن عرفنا كيف تستحيل طاقة الجسم الحرارية، طاقة ميكانيكية عادية. وعدنا في عملية الاحتكاك، مثال آخر على تحويل الطاقة من حالة الى أخرى. فالاحتكاك يحيل الطاقة الميكانيكية تستحيل طاقة حرارية. وفي الهندسة الكهربائية تحوّل الطاقة الحرارية، بالذات أو بالواسطة، الى طاقة كهربائية. فاذا أحرقت الفحم الحجري في أتون مرجل وتلقينا البخار الذي يتولد منهُ الى آلة بخارية، استطعنا جعل هذه الآلة تدير جهازاً يولد لنا الكهربائية، فيتيسر لنا بتلك الذريعة، تحويل الطاقة الحرارية أولاً الى طاقة ميكانيكية ثم الى طاقة كهربائية. واذا تناولنا فلزين مختلفي النوع ولحمنا أحدهما بالآخر عند طرفيهما، ثم حمينا طرفاً منهما، وتركنا الآخر بارداً، حصلنا على تيار كهربائي يسري في السلك الذي يوصل طرفي المعدنين أحدهما بالآخر. وتعرف تلك العملية باسم « التوصيل الحراري » وحينئذٍ نستطيع تحويل الطاقة الحرارية بالذات الى طاقة كهربائية. وحيما يسري التيار الكهربائي في سلك فانهُ يحميه. وهذا مثل لتحويل الطاقة

الكهربائية الى طاقة حرارية . اذن أدركنا أيضاً كيفية تحويل نوع من الطاقة الى نوع آخر . وأعظم مصادر الطاقة الشمس . وطاقة الفحم الحجري انما هي طاقة مدخرة أصلها من الشمس . وطاقة الانسان والحيوان تحصل من الشمس أيضاً ، لان الشمس تمد النبات بالطاقة فتجعله ينمو ، فيأكل الحيوان النبات ، ثم يأكل الانسان الحيوان والنبات كليهما . والغذاء الذي تتغذى به يمدنا بالطاقة الحرارية التي تجعل عضلاتنا تضطلع بما يفرض علينا من الاشغال . وتسمى سرعة التي تؤدى بها الاشغال ، قوة . »

مشاهدة أخرى للشرارة

وقد شاهدت ذلك التخلل مرة أخرى في مساء اليوم التالي اي ١١ يناير سنة ١٩٣٩ إذ كان الجو ممطراً فعلمت ان الشرارة الكهربائية تظهر في جسم حينئذ والمعروف ان الجسم البشري موصل للتيار الكهربائي فيسري منه الى الارض وبان الكاوتشوك غير موصل وبذلك انقطعت الشرارة المتولدة من الشمس حينما أشرنا على النخال في المقابلة الأولى ، بخلع حذائه في أثناء النخل . وان الهواء الرطب موصل للكهربائية كذلك . وهذا سبب انقطاع ظهور الشرارة الكهربائية في اليوم التالي

وقد رأينا الفلاحين في بعض قرى مديرية المنوفية وغيرها حينما يحتاج أحدهم الى إضرام النيران بالاقتاب يجيء بعود حطب قطن تخين متين ، فيثقبه ثم يأتي بقطعة من عود رفيع آخر مبري محدد على شكل قلم الجرافيت (الرصاص) ويعكف على برم هذا القلم المحدد بكفيه في ذلك التجويف برماً حثيثاً فتتولد الشرارة الكهربائية في هنيهة من الفرك فتشعل النار . وهذه هي الطريقة عينها التي ما زالت القبائل المتوحشة تتبعها في أوستراليا ونيوزيلندة وغيرهما من البلاد النائية غير المتحضرة

كهربائية العين ترشد الطيور المهاجرة

وبعد كتابة ما تقدم قرأنا في مجلة العلم العام الاميركية مقالاً بعنوان « العين بوصلة كهربائية للجسم » جاء فيه ما يأتي : — كشفت بضع أقراص دقيقة من صفائح المعدن الرقيقة عن حقيقة لغز قديم أعيى العلماء حله منذ قرون اذ وصلت تلك الاقراص بأسلاك دقيقة في مختبر علمي من مختبرات جامعة يايل Yale في الولايات المتحدة الاميركية . وذلك أن الدكتور والتر . و . ميلز Walter R. Miles أحد علماء النفس بتلك الجامعة ، قد أبلغ منذ بضعة أسابيع ، مجمع العلوم الاهلي الاميركي ، نبأ اكتشافه العجيب وهو أن العيون حقيقة (بطاريات كهربائية حية) مشحونة بالكهربائية السلبية والايجابية

ويرى العليمون أنهم سيتوسلون بمباحث الدكتور ميلز هذه الى بلوغ الحل النهائي

لمعضلة هجرة الطيور . وهي المعضلة التي استعصى تفسيرها منذ القدم . ونعني بها كيفية اهتداء أسراب الطيور الى عين طرف تميناً مضبوطاً في الدجى والضباب والمناطق البحرية الشاسعة

الكهربائية في العيون

وقد جرَّب الدكتور تيلز تجاربهُ العلمية المشار اليها ، في مختبره العلمي في نيوهاڤن حاضرة ولاية كونيكتيكوت ومقر جامعة ييل حيث جاء بالاشخاص المزمع احداث التجربة في عيونهم ، وألصق الاقراص المعدنية الدقيقة على جفونهم بشُرط مصمغة في أعلى عيونهم وأسفلها ثم ربط الاسلاك المتصلة بالأقراص التصديرية بأجهزة قوية مختصة لتيار وبمقاييس دقيقة لقياسه فأثبتت تلك الاجهزة ان العين السوية تكون مشحونة بشحنة كهربائية تبلغ زهاء جزء من القسم من الفولط . وان هذه الطاقة تبقى ثابتة حقيقة لا تؤثر فيها الظلمة ولا الضياء . وعدسية العين قطب بطاريتها الموجب ، وشبكيتها أي الجزء الخلفي من مقلتها ، قطب بطاريتها السالب

واستيقن العلماء منذ سنين أن وظائف البدن ، ومنها التنفس واللمز بالعين والمضغ ، تقترن بتدفق طفيف من التيار الكهربائي

وكان اكتشاف الكهربائية الحية التي تولد في المادة السنجابية في الدماغ منشأ لمجال واسع جديد من مجالات البحث حول ذلك الاكتشاف . (وقد فصلناه في مقالنا في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٦) كما سبق القول . فقد قيَّض للدكتور ميلز باكتشافه كهربائية العين الثابتة ذلك الاكتشاف الذي قدَّم العلم خطوة جديدة في سبيل حل معضلة اهتداء الطيور المهاجرة الى المسالك المألوفة عند هجرتها من أوطانها وعودتها اليها في فصول معيَّنة من السنة ، وذلك في الجو دون الاستعانة بخرط مرسومة لتلك السبل) تأييد وجود الكهربائية الحية

***

هجرة الطيور

وكان ذلك الفوز الدائم على مدار السنة في علم دراسة طبائع الطيور وحياتها قد شغل افكار علماء التاريخ الطبيعي منذ عهد ارسطوطاليس الفيلسوف اليوناني المشهور ، ففسره فريق من العلماء تفسيرات متباينة . اذ علل بعضهم اهتداء الطيور الى مسالكها عند هجرتها ، بحاسة سادسة خفية في أبدانها ، لا يستطاع ادراكها . وزعم آخرون ان الطيور تطير من جهة الى اخرى مسترشدة بأبصارها دون غيرها

ومع ذلك ظن فريق آخر ان ارياح التوجيه المرتعة في الجو ، تؤلف معالم جوية للطريق ، ترشد الطيور المهاجرة الى الصراط المستقيم في رحلاتها الطويلة في الجو الى البلدان البعيدة

وكان يعترض كل فرض من هاتيك الفروض ، تساؤلات مختلفة وهي : —

اذا كانت الطيور المهاجرة تسول على معالم الطرق الارضية وهي على الارض ، فكيف

يتمكن الطائر الدفان [1] الصغير ، الذي لا يكبر الابهام جرماً، من تعيين سمته، على امتداد ٥٠٠ ميل فوق المياه المتلاطمة في رحلة طيران واحدة على الخليج المكسيكي ؟ وكيف يحدد الزقزاق [2] سمته يقطع ٤٠٠٢ ميل من نوفاسكوشيا الى الارجنتين طائراً المسافة كلها فوق سطح البحر بعيداً عن رؤية البر ؟ ؟ وان كانت الطيور ترشد نفسها بنفسها بوساطة تيارات الهواء المرتفعة في الجو ، فكيف يتاح لنا تعليل الحيرة الغريبة الموهوبة لتلك الطيور الصغيرة المهاجرة التي تجعلها تطير طيراناً منخفضاً ثم تعود سنة فأخرى الى الحدائق والبساتين التي بنت فيها أوكارها وألفتها من قبل ؟؟

فقام منذ عشر سنوات ثلة من علماء التاريخ الطبيعي ومنهم جون . ت . نيكولس John T. Nichols الاستاذ في متحف التاريخ الطبيعي بمدينة نيويورك ، بتعليل استرشاد الطيور عند طيرانها بما سموه البوصلة او (ابرة الملاحة) اللاسلكية . فأحدث ذلك المذهب دهشة في الدوائر العلمية . اذ بين ان الخليقة حبت تلك الخلائق بعضو حساس دقيق مجهول يمكنها من توجيه طيرانها الى الجهة المقصودة وذلك بخطوط القوة المغنطيسية المنتشرة حول الارض

(١) الطائر الدباية او الطائر الدبابي — طائر أميركي وهو اصغر الطيور المعروفة وانواعه كثيرة والطائر انطان من اوضاع المرحوم الدكتور صروف واقترح الاب انستاس الطائر الدبابة كما يسمه الفرنسيون (معجم الحيوان لمطرف باشا)

(٢) الزقزاق أو القطاط الذهبي او الدشق الذهبي (معجم مطرف باشا) لعلم الحيوان

أسوة بالطيار الذي يطير في طريقه متبعاً الموجة اللاسلكية

وهذا المذهب قد يفسر لنا كيف يطوف حمام الزاجل عدة مرات عند ازمعته قطع مرحلة طويلة، هائماً كأنه يتحسس خطوط المغنطيس الارضي ليهتدي بها في طريقه

ومن الوسائل الكثيرة التي فسر بها العلماء اهتداء الطيور المهاجرة الى السبل المستقيمة، الخطوط الخاصة بالقوة المغنطيسية الثابتة الممتدة شمالاً وجنوباً بين القطبين المغنطيسيين الدائمين للأرض

التكهن بالبيض وصحائم الزاجل

وقد تأيد هذا الحدس منذ عهد قريب بالتجارب المفيدة التي جربت في انحاء مختلفة من العالم . ففي مدينة بنجستون Binghamton بولاية أوهيو أطلق حمام الزاجل على مقربة من عمود من الأعمدة الباذخة الحاملة موصلات جوية لاسلكية ، في محطة قوية من محطات الراديو ، فحدث عند وقف أمواج الراديو في تلك المحطة، أن هام الحمام باحثاً عن السبل القويمة بضع ثوان ثم اهتدى اليها فطار متبعاً اياها الى موطنه. ولما أن استؤنف العمل في محطة الراديو وأطلقت موجاتها في الجو ارتبك حمام الزاجل ، وجعل يصفق بأجنحته ويحوم حول ذلك المكان زهاء نصف ساعة ثم تفرق شذر مذر باحثاً عن الطريق المستقيم فأخفق ، وقد ظهرت هذه النتائج نفسها في فرنسا لمجربين آخرين

ولعلك تسألنا قائلاً : ماذا حدث لتلك

الطيور فتلب قدرتها الخفية ، عجزاً واضحاً عن معرفة طريقها في الجو ؟؟ فتكون « ان التفسير الذي يكون انطلاق الامواج اللاسلكية في الجو وتولّد شحنات كهربائية على ابدان الحمام، تضت على الطاقة الكهربائية الطفيفة التي في عضو الحس الذي تتألف منهُ بوصلة ذلك الطائر

فاذا سألتنا : اين مقر ذلك العضو الحساس وما كنهه ؟ وما وظائفه ؟؟ أجبناك أن تلك الامور كانت من المجهولات في دائرة معارفنا البشرية حتى اماط عنها اللثام حديثاً الدكتور ميلز باكتشافه المتقدم وصفه إذ قال ان العيون هي دليل ذلك السر

نور الكهربائية في الجسم

وجاء في كتاب المخترعات الكهربائية لمؤلفه الاستاذ (ا . م . لو) العالم الانكليزي في فصل عقده على الكهربائية الطبيعية ما يأتي :

وفضلاً عن الكهربائية الجوية فان الكهربائية الطبيعية تولد بوسائل شتى. فحركات عضلاتنا مثلاً توقف على الكهربائية ومن المرجح ان المخ يرسل رسائله الى العضلات بوساطة تيارات كهربائية ضئيلة جداً تنتقل مصحوبة بتأثيراتها ، بسرعة ٢٥٠ ميلاً في الساعة . وقد جرّب المجربون ادخال ابرة صغيرة في عضلاتهم على ان يوصلوا تلك الابرة بسلك عازل الى جهاز مضخم للتيار ، ومنهُ الى سمعة راديو « بوق لاسلكي » فتبين لهم أنهُ عند تحريك العضلات يخرج الصوت من بوق اللاسلكي « مجهار الصوت »

ثم ان العلامة ماتيوس Matteone الذي درس الكهربائية البدنية دراسة فائقة وقد توغل في هذا البحث حتى على افتراض الحيوانات الضخمة مثل الدببة المنحجرة بروتوسورس brontosaurs البائدة التي كانت تطوف في أنحاء المعمورة ، يكون النبضات الكهربائية كانت تستغرق هنيهة حتى تصل من طرف جسم ذلك الحيوان الى طرفه الآخر فاذا عضه حيوان آخر مثلاً في ذنبه كان تأثير تلك العضة لا يصل الى دماغه في أقل من ثانية . وحينئذ كان الحيوان المعضوض يشعر بأن العضة فينبري للدفاع عن نفسه ، وعند ذلك يكون الحيوان المعتدي وهو بلا شك أصغر من المعضوض حجماً، قد اختفى من أمامه

والمحقق ان الجسم البشري يحس بالتيارات الكهربائية الضئيلة التي تؤثر تأثيراً عظيماً في صحته . ومن الميسور أن يُعزى النجاح الذي يحرزه أحياناً بعض المنقبين عن المناجم والآبار بالمبار divining-rod الى تفوق احساسهم ببعض أنواع الموجات الكهربائية . وقد استفاد الاطباء من معرفة كون عضلاتنا تتأثر بالكهربائية . فمتى اصاب عضلاتنا اي حادث او استهدفت لعاهة ، عولجت احياناً بالعلاج الكهربائي اي ان العضلات تقلص وتمدد بالكهربائية بالتعاقب بحيث يتم ذلك الفعلان دون ان يضطر المرء فعلاً الى تحريك أي عضو من اعضائه . وأثبت العلامة ميخائيل فراداي

بالاختبارات التي قام بها أن الكهربائية التي تولد من السمك الكهربائي ، شبيهة بالكهربائية التي تولد من البطاريات والدينامو وان اختلفت عنها في المقدار والتيار والضغط . وعلى هذه التفصيلات جميعها يتوقف العلاج الكهربائي الذي يعالج به الناس في هذا العصر

الحركات العضلية تولد الكهربائية

أيدت التجارب العلمية الخطيرة التي جربت حديثاً في المانيا ، العلاقة الوثيقة بين الحياة والكهربائية ، حيث استعان المجربون بالمضخمات الكهربائية ، وغيرها من الاجهزة الحساسة جداً ، على تسجيل الكهربائية التي تولد على الجلد البشري او تحت سطحه مباشرة . فوضع الشخص الذي اجريت فيه التجارب ، في قفص معدني كبير وروقب اشد الرقابة لكي يوقنوا ان الكهربائية صادرة من حركات عضلاته لا من مصدر آخر . فحصلوا على نتائج مدهشة اذ تبين أن ذبذبات الطاقة الكهربائية تبلغ أوجها تدريجاً بدرجات سريعة . وعند مواصلة مجهود المرء تنخفض الطاقة الكهربائية قليلاً وذلك قبل ان يتاب العامل الاعياء . فمزا الباحثون تلك النتيجة الى تبلل جلده بالعرق . وأسفر ذلك الامتحان عن وجود علاقة بين الكهربائية والعمل العضلي وهذا ما يبين لنا مصدر الشرارة في جسم النحال المصري عند اجهاده بالنحل

استمرار التيار الكهربائي من العيون البشرية

وجاء في أحدث المصادر العلمية الانكليزية ما يأتي : — أعلن الدكتور وارد س . هالستد Ward C. Halstead الطبيب في مستوصفات جامعة شيكاغو الطبية أن التيارات الكهربائية الضئيلة التي تقترن بها حركات العين البشرية ، يمكن نقلها بالأسلاك الكهربائية الدقيقة وتضخيمها والاستفادة منها في دراسة بعض أحوال الدماغ الشاذة ، وذلك بطريقة جديدة للدكتور هالستد . ويتوقع ذلك الطبيب الباحث ان الاستدلال على موضع الآفات التي تعتري المخ ، أو الخلل الذي يصيب نسيجه ، ذلك الاستدلال الذي أصبح ميسوراً للاطباء من قبل ، باستمداد التيارات الكهربائية من الصادر نفسه ، يمكن تأييده بدراسة التيارات الدماغية من العينين . والطريقة الجديدة المشار اليها تلائم على الخصوص دراسة احوال الاشخاص المصابين بالامراض العقلية . وذلك كما وصفها الدكتور هالستد في تقرير نشره في جريدة علم النفس الانكليزية ، اذ يتاح بها الحصول على حقائق يمكن تسجيلها والوثوق بها ، وذلك في اثناء جولان الشخص الذي يقع عليه الفحص ، كما انه يستطاع تسجيل تلك الحقائق حينما يغمض المصاب عينيه

وفي نية المكتشف ان يقوم بتجربة أخرى فيما بعد ، ليتمكن بها من قياس حركات العين ، بذلك الاسلوب في حالة نوم المصاب «راجع ما كتبناه في هذا الموضوع في الاخبار العلمية في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٦»

عمر قرن الانتاج الزراعي

بتغذية الشعب

(تابع المنشور على الصفحة ٤٢٥)

وعلى أساس هذه الاملاح قسم علماء التغذية الأغذية قسمين

١ — أغذية قلوية أو موجبة ٢ — أغذية حمضية أو سالبة

فالأغذية القلوية هي التي بها مقدار زائد من الاملاح القلوية وهي تشمل الفاكهة بشتى أشكالها كالزيتون والتين والزبيب البناتي واليوسفي والليمون الأضاليا والبرتقال والزبيب الدرياق والعنب والبرقوق والبلح والخوخ والمشمش والموز والاناناس والكمثرى والشمام وما الى ذلك وأغلب الخضر، وهذه اما شديدة القلوية كالفجل الاسود والخيار الاخضر والسانخ أو متوسطة القلوية كالهندبة والخس المكب والطماطم والبنجر الأحمر وجذور الكرفس وأوراق الكرات أي شوشه والقلقاس والجزر الاصفر ورءوس الكرات أي شوشة والخس الطويل والفجل الاحمر والبطاطس أو قليلها أقل من المتوسط كالفول الاخضر والشوكروت والكرنب الابيض والقنبيط الابيض والقنبيط والبصل وورق الكرفس أو تقرب من المتعادلة كالقرع الاسطبولي — ومن الأغذية الموجبة عسل النحل والسكر الجلاب (الغير بني) وسكر النبات ومن الحبوب القطانية الجافة فول الصويا — ومن الاطعمة الموجبة اللبن بأنواعه كلبن البقر والماعز واللبن الفرز والشرش والقشده ولسان الحمار oysters هو الوحيد الموجب بين اللحوم

اما الأغذية السالبة أو الحمضية فتشمل جميع الفلان كالشعير والقمح والذرتين الشامية والرفيعة والأرز والدخن وكافة اصناف الدقيق والخبز — واكثرها حموضة الارز الابيض تبييضاً غير كامل ودقيق الشعير وأقلها حموضة الذرة الرفيعة المقشورة — ومن الاغذية الحمضية الحبوب القطانية كالعدس والفول السوداني والفاصوليا الناشفة واللحوم بكافة اشكالها والاسماك والبيض والجبن بشتى أنواعه والزبد والمرجرين — ومن الخضر السالبة كرنب بروكسل والخرشوف والبسلة الخضراء والقنبيط والكرنب الاحمر وبعض اصناف البصل ومن الفواكه السالبة بعض اصناف من التفاح ومن النقل الجوز واللوز

وكلا الأغذية القلوية والحمضية ضروري جداً للتغذية ولكن يجب ان يكون للأغذية الموجبة أي القلوية القدح الأعلى في أطعمتنا

ونجد درجة القلوية والحمضية لكل من الاغذية السالفة مفصلاً في الجداول الآتية التي تبين أيضاً نسبة البروتينات والدهن والكربوهيدرات الذائبة والوحدات الحرارية وما يحويه كل منها من الفيتامينات

[للبحث تتمة]

مكتبة المقتطف

التأليف العلمي والمؤلفات العلمية

باللغة العربية (١)

على الرغم من قلة الاقبال على المؤلفات العلمية ، في البلدان العربية اللسان ، في وسعي ان اقول ان التأليف العلمي باللغة العربية قد بلغ مستوى جديراً بالاحترام والاعجاب . والفضل في ذلك اولاً وآخراً للمؤلفين انفسهم . ولولا ما يلهب في نفوسهم من شعلة مقدسة تدفعهم الى التصب في التأليف ، ثم الى تحمّل الارهاق في الاشراف على الطبع والتصحيح وتكبد النفقات ؛ لندرت التواليف العلمية التي تتوالى على ادارة المقتطف من جميع انحاء البلدان العربية اللسان

واذا صرفنا النظر عن الكتب العلمية المدرسية — والباعث على العناية بوضعها وطبعها مفهوم — وجدنا المكتبة العربية غير مدقعة الفقر بشتى المؤلفات في علوم الاحياء والطبيعة والكيمياء والنفس والطب على اختلافها. يحضرني منها الآن — وأرجو ان اعذر اذا اكتفيت بالتمثيل دون الحصر — المعجمات العلمية التي وضعها الدكتور محمد شرف بك والدكتور احمد عيسى بك والفريق الدكتور امين باشا المعلوف، والمطول في علم البصريات للدكتور مصطفى نظيف والمطول الآخر في الجيولوجيا للدكتور حسن صادق بك الثالث في علم الوراثة للدكتور الخشن وترجمة « أصل الأنواع » لاسماعيل مظهر والمؤلفات الطبية الفخمة التي وضعها طائفة من اساتذة كلية الطب بدمشق والكتب الزراعية التي انشأها الامير مصطفى الشهابي ورجال كلية الزراعة والجمعية الزراعية بمصر والمجلدات الضخمة المحتوية على محاضرات المجمع المصري للثقافة العلمية وبعض الكتب التي اخرجتها ادارة المقتطف واهدتها الى قرائها وعشرات غيرها ، تدل دلالة قاطعة على ان التأليف العلمي باللغة العربية ، بلغ مستوى عالياً ، لا اقول انهُ يصحُّ الوقوف عندهُ والاكتفاء بهِ ، فنحن لا نزال في مستهلّ المرحلة لاننا نترجم ونقتبس على الغالب وانما اقول انهُ بشير طيّب بما تنطوي عليهِ النهضة الفكرية الحديثة في بلدان الشرق العربي من بذور القوة الذاتية التي يجب ان تنال من اولي الأمر ومن جمهور المثقفين كل تعهد وتشجيع

والاسلوب في هذه الكتب عالٍ بوجهٍ عام ، ومعظم اصحابها جاهدوا جهاد الابطال في مصارعة الالفاظ الاجنبية ، فصرّبوها او ترجموها ، فخلّفوا بذلك لمن يجيء بعدهم ، ولمجمع فؤاد الاول للغة العربية ، تراثاً ضخماً يجب المتح من معينهِ

---

(١) وهو ملخص رد لرئيس تحرير المقتطف على سؤال وجه اليه عن التأليف في العلوم الطبيعية وعلوم الاحياء باللغة العربية

ليس التأليف العلمي باللغة العربية جديداً في هذه البلاد ، فأقطاب المصريين الذين نبغوا في شتى العلوم في واسط القرن الماضي بعد ان تلقوا اصولها في اوربا وضعوا التواليف النفيسة في العلوم المختلفة ولا سيما علوم الطب. وكذلك فعل فريق من المرسلين الاميركيين في لبنان . ولكن التأليف العربي في العلوم اتسع الآن نطاقاً وتنوع فنوناً وألواناً . مما يدل على ان عدد العلماء والمشتغلين بالعلوم ازداد ازدياداً يفوق من ناحية والهمة المبذولة في نشر العلوم وتخصص المتفوقين، ويساوق من ناحية أخرى حاجة البلاد . والغالب عندي ان ناحية التبسيط في العلوم المختلفة لم توفَ حظها من العناية حتى الآن ، فالمؤلفات العلمية في آخر الامر تعتمد في رواجها على الجمهور ، والجمهور لا يقبل الا على ما كان في متناوله ، ومن هنا ترى كيف بلغت كتب بعض المؤلفين من الفرنجة في العلوم المبسَّطة ، ككتب السر جيمز جينز في علم الفلك ، مبلغ الروايات في رواجها

وناحية تبسيط العلم تحتاج الى مرانة خاصة في التخيُّل والكتابة ، علاوة على تعمقها في العلم . ومن هنا أرى وجوب اجتماع طائفة من المشتغلين بالعلوم العصرية ، ووضع برنامج خاص لكتب متعدِّدة كلٌّ منها خاصٌّ بعلم من العلوم ، على ان يكون العلم فيه مبسطاً تبسيطاً يرضي الخاصة بصحته ويفيد غير المتوفرين بحسن أدائه . ولعلَّ كتاب « قصة الكيمياء » الذي صنفهُ الدكتور احمد زكي بك معتداً على كتاب بون دي كروف وكتاب « اساطين العلم الحديث » الذي وضعهُ كاتب هذه السطور معتمداً على عدة مراجع انكليزية ، وكتاب « نظرية التطور » للاستاذ سلامه موسى ، وكتاب « النجوم في مسالكها » الذي نقله الاستاذ الكردي بك عن جينز « وكتاب هذا الكوكب » للدكتور محمد عوض محمد من خير الامثلة التي تُضرب على هذا النوع من التأليف ، وجدا الحال لو كثر امثالها في المكتبة العربية

وبعدُ فاني مقتنع اتمَّ الاقتناع ، بان ما طالعتهُ من الكتب العلمية باللغة العربية ، دليلٌ على قدرة كتَّاب العلوم من اصحاب القلم العربي ، على إخراج او اقتباس دائرة معارف حديثة متوسطة الحجم ، نحن في اشدّ الحاجة اليها الآن ، ولا استبعد بل اني لمتيقّن ان انجازها يكون مرحلة عظيمة الشأن في حياتنا الفكرية ، على نحو ما كانت الكلوبيديا ديدرو في القرن الثامن عشر

ثم إني أرجو بعد هذا كله ان ينال المؤلفون العلماء والمشتغلون بالعلم تشجيعاً وعناية من أولي الأمر بشراء نسخ من كتبهم لمكتبات المدارس في مختلف البلدان العربية ، ومن الجمهور بالاقبال عليها — ولو كان في مطالعتها بعض العناء فالذة الفكرية العالية لا تؤخذ غير مشفقة — ومن الصحف على اختلافها بذكر هذه الكتب وعرضها على انظار الجمهور . فالمؤلف عندنا لا يزال مؤلفاً وناشراً وطابعاً ومصحح تجارب وموزِّع نسخ ، فحسبهُ جزاء على عمله وجهده ، ان ينال شيئاً من الاعتراف والتقدير !

التقدير الانتقادي (١)

فلسفة الجمال فرع من فروع الفلسفة وهو الناحية كثير الشعاب ولكنه يستهوي بعض الباحثين لصعوبته ولاتصاله الشديد بالحياة والنقد، وليست الفلسفة البريطانية غنية في هذا الفن من ألوان البحوث الفكرية مثل ضريبتها الفلسفة الالمانية، ولكبار فلاسفة الالمان جولات بعيدة في هذا المضمار، وفلسفة الجمال تشغل حيزاً ملحوظاً في فلسفة كانت وهجل وشوبنهور وغيرهم من ممثلي الفكر الالماني، ورغم ان ادمند بيرك في رسالته عن « الجليل والجميل » يعد من واضعي أسس تلك الفلسفة فان المدرسة الفلسفية في بريطانيا لم تبادر الى اتمام ما بدأه ولم تقبل على بحث ابحاث المفكرين الالمان، ولقد كان ستيورت مل وسبنسر اكبر ممثلي الفلسفة البريطانية في عصرهما وليس بينهما مع ذلك أثر مذكور في بحوث فلسفة الجمال

على ان الحال قد تغير منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولمع في سماء الفكر البريطاني مفكرون كبار وجهوا شطراً من عنايتهم الى فلسفة الجمال والفن وفي طليعتهم الفيلسوف المعروف بوزانكيت، وتبعه في هذا السبيل فريق من الفلاسفة الناشئين أمثال كولنجوود وكارريت وغيرهما، ومن ناحية أخرى ظهر بعض النقاد الفنيين وتناولوا الموضوع من نواح أخرى ومن بينهم روجر فراي وكلايف بل وهربرت ريد

والرسالة التي نحن بصددها ترمي الى ايجاد سبيل يستطيع به الانسان ان يفسر لغيره ما يعنيه عندما يقول عن شيء من الاشياء انه جميل ولا يترك تقديره لنوبات الحماسة وبوادر الاطراء ولا يكتفي بالاعجاب الصامت والتقدير الأبكم. ومؤلف الرسالة يرى ان ذلك ميسور بالتربية وانماء ملكة التمييز وقوة الحكم على الاشياء، وذلك رغم ان كل انسان مقيد بذوقه الخاص ومزاجه المحدود وان كنا في الغالب نأبى بأنفسنا عن ان يتخذ ذوقنا الخاص حكماً وفيصلاً لان ذلك لا يحل المعضل ولا يرسل في نواحيه ضوءاً، والتقدير الخالص ضرب من الشعور الفني يستلزم الشرح والتفسير والتعليل والتحليل، وبمجرد اعجابنا بالاشياء لا يرينا خصائصها ولا يكشف لنا عن جمالها، والرسالة تبحث أول الأمر ما هي التقديرات التي يصح ان تصبح مفسرة معبرة وكيف تستعمل كلمة الجمال في الوصف، والمسألتان في نظر المؤلف متصلتان لان الانسان لا يستطيع ان يسمي الشيء جميلاً إلا اذا كانت عنده فكرة عن الجمال

والباحثون عن معنى الجمال يؤكدون ان الجمال هو اسم عام للجمال في الموسيقى والشعر والتصوير والنحت والبناء ولكن ما هو ذلك الشيء العام المسمى « الجمال » وما معنى ان الجمال هو صفة مشتركة بين هذه المظاهر التي تصفها بالجمال ؟

(١) Critical Appreciation. By R. W. Church. George Allen & Unwin. London

وفي أحد فصول الرسالة تفريق بين الاعمال الفنية الجيدة والاعمال المقيدة فالاعمال الفنية الجيدة تتضاءل رضينا بنفسها وبنفسها ليس غيره وأما الاعمال المفيدة فهي ترضينا لانها وسائل صالحة لغرض آخر

والرسالة مكتوبة بلغة فلسفية صعبة تجعل متابعتها من الامور الشاقة في حين ان مثل هذا الموضوع في حاجة ماسة الى التبسيط والتقرير ونكل مؤلف الرسالة على ما يظهر متأثر بجفاف الاسلوب العلمي وصرامة الطريقة الجامعية . ولا غرابة في ذلك فهو أحد أساتذة الفلسفة في احدى جامعات اميركا

علي ادهم

الجيش المصري

العددان — الاول والثاني — تصدر كل شهرين — تقوم بنشرها وزارة الحربية والبحرية ويطبعها المطبعة الاميرية ببولاق

تعنى وزارة الحربية اليوم بنشر الثقافة ورفع مستواها بين ضباط الجيش المصري بشتى الوسائل أهمها إلقاء المحاضرات بنادي الضباط ، وتشجيع تعلم اللغات الأجنبية وكتابة المقالات العسكرية والفنية والتاريخية بمجلة الجيش

أمامنا الآن العددان الأول والثاني من مجلة الجيش المصري . وهما عنوان طيب لصحافتنا الحربية الناشئة في هذا العام فقد كانت لنا في أيام الخديو اسماعيل جريدة اركان حرب الجيش المصري والجريدة العسكرية قام بتحرير صفحاتها نخبة من ضباطنا الممتازين خلال القرن الماضي وها نحن اليوم نطالع منهم ثمرات قرائح جنودنا الثابرين

يحتوي العدد الأول على مجموعة طيبة من المقالات المتنوعة في فنون الحرب والتاريخ العسكري والإدارة الحربية وغيرها . اشترك في تحريرها لفيف من كبار الضباط وصغارهم سواء أفي الخدمة العسكرية كانوا أم في القاعد . وسنلقي نظرة سريعة على محتويات العدد الأول لنبين لقراء المقتطف ما حظي عليهم معرفتهُ من أنواع المعرفة العسكرية

افتتح العدد بكلمة صاحب السعادة اللواء ابراهيم خيري باشا وكيل وزارة الحربية أمام حضرة صاحب الجلالة الملك يوم افتتح نادي ضباط الجيش بالزمالك في يناير ١٩٣٨ ومقال « العصر الذهبي » للأمير الاي حافظ صدقي بك ومقال في الأسلحة الصغيرة للأمير لاي مصطفى بك صادق. ثم هناك مقالات متعددة فنية تاريخية لليوزباشي أحمد حوده تناول فيها التحدث عن النظريات العسكرية والجند والجندية والحرب وفن الحرب والدبابات ومنشأها وبحث في الأسلحة وقطارات المكك الحديدية المدرعة « والشرابل » والاستعلامات العسكرية وصفوف الجندية الحديثة والمدفعية والتحذير بالأشارات وهاتيال القرطاجي

وهناك مقالات مفيدة للصاغ محمد نجيب في تعميم التدريب العسكري للشبيبة ومقارنتهُ

النظم الأوربية واختيار الضباط للجيش الألماني وخلاصة التجارب التي أجراها الجيش البريطاني عن استعمال الوسائل الآلية وعن إعادة التنظيم والتسليح الجديدين منذ سنة ١٩٣٥ . وتدريب طلبة الطيران وتسميه في فرنسا . وكلية الدفاع الوطني في فرنسا

وبحث في كتبة الصاغ المهندس ابراهيم سعد المسيري في الفرق بين الهندسة المدنية والهندسة العسكرية من محاضرة كان سبق له أن ألقاها أمام جمعية المهندسين الملكية

ومقال في الخطوات الأولى التي يجب اتباعها في تعليم الضابط الحديث لليوزباشي عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي ومقال عن مدفع برتا الالماني للاستاذ توفيق وهبي

وعرض سريع للحرب الأيطالية الحبشية والدروس المستفادة منها للملازم الاول محمد عبد الفتاح ابراهيم

اما محتويات العدد الثاني فنلاحظ فيها التنوع واضحاً ونذكر رؤوس المقالات وكتابها. صدر العدد بمقال نفيس عن « مصر » بقلم الصاغ المهندس ابراهيم سعد المسيري . الحياة العسكرية الاجتماعية الانكليزية للامير الاي مصطفى صادق بك . مذكرات في تقدير الموقف للتمرين والتطبيق لقائمقام محمود فهمي عبد الرؤوف بك. جيش تشيكوسلوفاكيا للبكباشي موسى لطفي . اعادة تنظيم كلية اركان الحرب بانكلترا ونصب تمثال تذكاري للصاغ محمد بخيت . التعليم والتعلم في الجيش — ونواح عسكرية وجغرافية في عهد اسماعيل لليوزباشي عبد الرحمن زكي. الحرب النقلية لليوزباشي محمد مجدي الزراع . مشاهدات في الصحراء الغربية لليوزباشي رفعت الجوهري . ماذا كان الحلفاء يعرفون عن خطة ألمانيا . ماذا تحتاج مصر اذا خاضت غمار الحرب . التحصينات والدور الذي تمثله الحصون . ثلاث مقالات نفيسة للملازم الاول محمد عبد الفتاح ابراهيم . تقسيم المدفعية — للملازم الاول محمود حسين فراج . حصون ماجينو — للملازم الاول محمد صفوت . الهجوم الاول بالغاز — للملازم الاول محمد فريد سلامه

وقد قام محرر المجلة الاول بتناول موضوعات متعددة أهمها الاستعلامات العسكرية والهندسة العسكرية والمدفعية الثقيلة والازمة التشيكوسلوفاكية

وفي كل عدد من اعداد المجلة مجموعة نفيسة من الصور المختلفة . وقد صدر العدد الأول بصورة لحضرة صاحب الجلالة الملك . كما صدر العدد الثاني بصورة ملونة لجندي مصري من المشاة بملابسه العسكرية في عصر المغفور له محمد علي باشا وهي من مجموعة الرسوم التي أهداها الى المتحف الحربي حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

والمقتطف يهنئ الزميلة الجديدة والزملاء الجنود . . . ويشكر لوزارة الحربية هديتها النفيسة الينا . . .

الصحافة العربية في البرازيل

١ — مجلة الشرق

يحمل الأستاذ موسى كريّم بين جنبيه قلباً فيّاضاً بحب الشرق حياشاً بأجل الافكار، وهو من خيرة الصحفيين الذين انجبتهم العربية، ومن أخلص خدّامها وطنية، انشأ منذ أحد عشر عاماً مجلة «الشرق» للدعاوة عن الشؤون البرازيلية وما لأبناء الشرقيين في البرازيل فما لبث أن أحيا بها الحركة الادبية التي كانت تحتضر في العالم الاميركي واجتذب بين خمائل صحيفته أطيار العربية الصادحين في ذلك المهجر النائي فكانت الشرق وما زالت مجمعاً أدبيّاً حافلاً باعذب انغام تلك الفيثارة الذهبية التي يتردد صداها في العالم العربي. وما من كاتب أو شاعر هناك إلاّ وله أثر فيها وصحيفته برهان ناصع على مقدار الجهد والتضحية اللذين ينفقهما دون ظنّ فيهي ولا شك تضارع ارقى المجلات الغربية فنّاً في الطباعة والتصوير وهي الى جانب ذلك افصح لسان عن رقيّ الخالة العربية في البرازيل

ولقد قدرت الحكومة السورية في الاستاذ موسى كريم هذا الجهد في خدمة الشرق فمنحتهُ وسام الاستحقاق السوري. واني أقتطف هنا كلمة من خطاب الاستاذ داود بك الحوري ممثل الحكومة السورية الذي تولى تعليق الوسام على صدر صاحب تلك المجلة في الحفلة الرائعة التي أقيمت في سان باولو لهذا الغرض: «الاستاذ موسى كريم قد خدم أمته من هذه الناحية خدمة جلى مع أنهُ طرق في سبيل هذه الخدمة اصعب الطرق وتصدّى لعمل كان الفوز فيه يعدّ من قبيل المستحيلات ولكنهُ بفضل جهاده الكثير وتضحياته الجمّة توصل الى جعل ما كان في عداد المستحيلات حقيقة واقعة إذ أبرز الى عالم الصحافة العربي مجلة تضاهي في جمالها وحسن تنسيقها وأهمية مبحوثاتها أفضل المجلات الاجنبية وقد جعلها معرضاً للأدب والعلم والصناعة. وساعيه الأخير في سبيل جمع الاعانات الى منكوبي الطوفان في سورية أقرب شاهد على صحة وطنيته وصدق عزيمته». ونحن إذ نهنئهُ بهذا التقدير انساني نغتنم الفرصة لنهنئه بالخطوات الواسعة التي خطتها مجلتهُ الغراء في الاحد عشر عاماً الماضية التي توّجت بعدد الميلاد الأخير الذي جمع الى روعة الاخراج فنّاً ادبية بديعة

٢ — مجلة العصبة

أصدرت مجلة العصبة عددها الممتاز الذي ختمت به العام الرابع من حياتها، وهو في الواقع من الآثار الادبية الرائعة التي غنمتها المكتبة العربية فقد ضم خير ما تفيض به قرائح أدباء العرب في البرازيل والاقطار الشقيقة

ولهذه المجلة خطة فريدة في خدمة الأدب العربي أخذت على عاتقها ان لا تحيد عنها وهي لا تفرد صحائفها الا لكل ظريف رائع لا تألو في سبيل هذه الخطة بالتضحيات التي تبذلها ولا تحجب فصاحة ورئيس تحريرها الاستاذ حبيب مسعود في طليعة أدباء العربية بحسن اسلوبه وروعة بيانه واتساع أفقه

ولقد استطاعت هذه المجلة على حداثة عهدها أن تجتذب اليها أنظار الأدباء في ربوع العربية فقدروا فيها تلك الخطة السامية ، فحفلت صحائفها بأروع آيات البيان العربي الى جانب الزهرات اليانعة التي تقتطفها من حدائق الغرب . آملين ان تستقبل عامها الخامس بالحفاوة التي هي خليقة بها

الصيرفي

مجلة المسرة

اصدرت مجلة المسرة الزاهرة عدداً ممتازاً بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تأسيسها وقد تصفحناه فوجدناه حافلا بالمقالات المختلفة في موضوعات طريفة متنوعة ما بين دينية واجتماعية ولغوية وصحية . وفي هذا العدد مقالان ذيلان لحضرة الأب كامل مدور البرلسي عن « الفن والذوق في كنائسنا » و« حالة التشريع في مختلف البلاد المكاتبة الشيوعية » ومقالات أخرى بقلم فريق من افاضل الكتاب والباحثين والمصلحين

فنهنىء « المسرة » بعيدها الفضي ونرجو لها المضي في خدمة الدين والعلم بقدم ثابتة حتى تشهد عيدها الذهبي والماسي بهمة حضرات القائمين على تحريرها

مصور الجيش العراقي

١٣٢ صفحة من القطع الكبير — مطبعة المعارف ببغداد

أهدى الينا مكتب الأخبار العراقي بصحافة واذاعة والاستعلامات ببغداد مديره السابع العراقي الاستاذ يونس بحري نسخة من هذا الكتاب الذي صدر أخيراً وهو يحتوي على مجموعة رسوم متقنة مصورة برسم شعار الدولة العراقية فالعلم العراقي فخريطة العراق فرسم المغفور له الملك فيصل الاول منشىء الجيش العراقي فجلالة الملك غازي الاول القائد العام للجيش العراقي فرسم سمو الامير فيصل ولي عهد المملكة العراقية فرسوم كبار الجيش وغير ذلك من الرسوم المبينة عرض الجيش البري والجوي ومختلف أنواع التمارين وجميع هذه الرسوم تدل على مناحي تقدم الجيش والمراحل التي قطعها في سيره على غرار الجيوش الراقية الحديثة في التدريب والتهذيب وتجهيزه بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية على اختلاف أنواعها

وقد طبع هذا السفر النفيس طبعاً متقناً في مطبعة المعارف ببغداد على ورق أبيض وقد بذلت لاصداره عناية كبيرة

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الرابع والثلاثين

٢٦١ الاستهداف لحالات مرضية غريبة

٢٦٨ علاقة الانتاج الزراعي بتغذية الشعب : لحسين عثمان بك وكيل وزارة الزراعة

٢٧٩ قيد الماضي (قصيدة) : لعبد الرحمن شكري

٢٧٨ كيف نستيقظ وكيف تنام

٢٨٣ تحديد النسل ومشكلة السكان : للدكتور شريف عسيران

٢٩٠ فلسفة الغاشية : لعلي ادهم

٢٩٥ خليل مطران شاعر العربية الابداعي : للدكتور اسماعيل احمد ادهم

٣٠٨ الحرية (قصيدة) : للشاعر الانكليزي اللورد تنيسون

٣٠٩ نبات بلا آباء: تطور جديد عجيب في علوم الزراعة

٣١٣ التصوير الفني في القرآن الكريم : لسيد قطب

٣١٩ توالد الامراض والدفاع ضدها والمناعة : للدكتور نجيب فرح

٣٢٣ دراسات في آثار الافدمين الروحية : لناشد سيفين

٣٣٠ ابن الساعاتي : لانيس المقدسي

٣٣٤ مجالي الفكر الحديث في الاجتماع والفن والاقتصاد والتاريخ

١ — السلطان في العالم الحديث

٢ — المنسوجات الاسلامية القديمة

٣ — التقدم الاقتصادي في مصر الحديثة

٤ — ضباط اميركيون في الجيش المصري

٣٤٩ حديقة المقتطف * الحركة الادبية في سوريا ولبنان : لانيس ابو شكة. الادب الفارسي وخدمة الوثنيين له في الهند : للسيد ابو النصر احمد الحسيني الهندي

٣٥٩ سير الزمان * المؤتمر الدولي الثامن للعلوم التاريخية : ١ — السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية ومكانته التاريخية . ٢ — الثورة الفرنسية واستقلال اليونان . ٣ — اساس القومية الحديثة . ٤ المسألة الشرقية . ٥ — الفلسفة التقية وعلاقتها بنشوء مبادىء الاحرار في انكلترا . ٦ — الفلسفة السياسية الاسلامية ومكانها بين النظريات السياسية العامة . ٧ — العوامل الثابتة في التاريخ

٣٦٩ باب المراسلة والمناظرة * نشوء اللغة العربية: للأب انستاس ماري الكرملي

٣٧٤ باب الاخبار العلمية * غرائب الكهربائية البحرية والحيوانية : لفوض خ. ف

٣٨٤ مكتبة المقتطف * تآليف العلمي والمؤلفات العلمية باللغة العربية . التقدير الاقتصادي . مجلة الجيش المصري . مجلة الشرق . مجلة الصحة . مجلة المرأة . مصور الجيش العراقي

تبارك محطيا ذرية
ان الحصان في المرتبة الثانية بعد
حصان الدرجة الممتازة من نسبة الحرير
وتفوق على جميع أنواع المرتبة
الأخرى لاحتوائه على أقل الأوساط
طبعا حرير مصنع الطبعات من
شركة مصر للمصنوعات الحريرية
ومن حقائق الخلود الأخرى

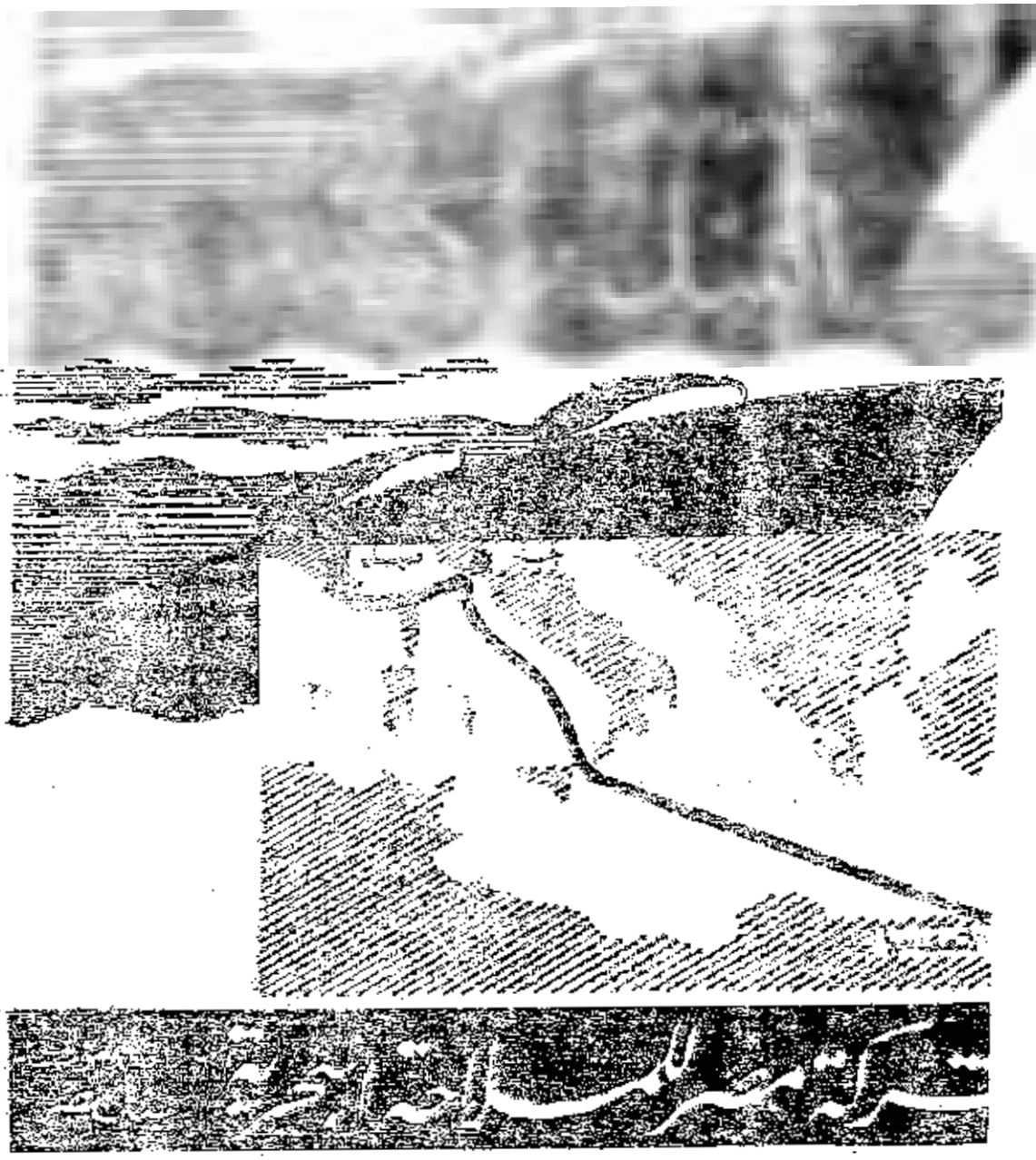

هديتا المقتطف سنة ١٩٣٨

صقر قريش

تأليف علي أدهم

دراسة لحياة الامير عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل وقد نهج المؤلف في كتابة هذا الموضوع منهجاً موفقاً عصريًّا فذكر حياة وتاريخ وسيرة الامير عبد الرحمن ورحلتهُ الى افريقية ويأسهُ من تأسيس ملك بافريقية ثم دخوله الى الاندلس وأعمالهُ المجيدة فيها وبثاً من أشعاره وقدرته الخطابية وقوة عزيمته

١٣٠ صفحة كبيرة — ثمنه ١٠ قروش مصرية يضاف اليها اجرة البريد

نوادر كبيرة من

الثقافة الاسلامية

١ — التصوير واعلام المصورين في الاسلام للدكتور زكي محمد حسن

٢ — تأثر العربية بالثقافة اليونانية للاستاذ اسماعيل مظهر

٣ — الاثر العلمي للحضارة الاسلامية واعظم علمائها للاستاذ قدري حافظ طوقان

٤ — الصلات بين العرب والفرس وآدابها في الجاهلية والاسلام

للدكتور عبد الوهاب عزام — ١٦٧ صفحة كبيرة و١٦ صفحة بالروتوغرافور

ثمنهُ ١٥ قرشاً مصريًّا يضاف اليها أجرة البريد

ملحوظة : ارسلنا هاتين الهديتين الى جميع مشتركي المقتطف الذين سددوا اشتراكاتهم لآخر ١٩٣٨

بادر الى تسديد اشتراكك تصلك الهديتان مع شكر

شركة التمدن الصناعية

٤٦ شارع محمد علي — تليفون ٤٤٨٨٧

حروف المقتطف من مصنوعات مسبك التمدن الذي يقوم بتوريد جميع الحروف للجرائد المصرية والشرقية

وكيل الشركة

احمد فهمي

خطاط الملوك

الاستاذ نجيب قراوردي

يتولى فحص الاوراق المطعون فيها بالتزوير بمصر وغيرها من البلاد ويطلب منه كتابه « التزوير الخطي » لمعرفة الخطوط والاختام المزورة والصحيحة عربية وافرنجية ثمنه ٥٠ قرشا صاغا . وتطلب منه كراريسه « السلاسل الذهبية » التي تعلم الخطوط الجميلة بوقت قصير واسلوب مبتكر ومقررة في جميع المدارس ، وكتاب « المجلة » وهو مجلة الاحكام العدلية الصحيحة الوحيدة المصدق على صحتها من باب المشيخة الاسلامية مشروحة ومشكلة بقلمه

وهو يتولى عمل كليشهات وأختام وغيرها . ويكفي كتابة كلمة «مصر» عند مخابرته ، أو مخاطبته بتليفون ٥٠٣٣٠

يظهر في أوائل ابريل

«مباحث عربية»

للدكتور بشر فارسي

كتاب مجرى على الأسلوب الحديث في التأليف العلمي: المراجع وافية، والحواشي مستفيضة. وفيه جدول للاصطلاحات العلمية المستعملة وآخر للمخطوطات المذكورة وثالث للألفاظ الأفرنجية. وفي الكتاب ابتكار الرموز وعلامات خاصة بالتأليف العلمي

بعض مباحث الكتاب: مسلمون في قبلندة — مكارم الاخلاق الاسلامية — تاريخ لفظة الشرف — اصطلاحات في الفلسفة والموسيقى — التفرد والتماسك عند العرب

(مطبعة المعارف ومكتبتها)

مؤلفات الامير شكيب ارسلان

يسألنا القراء عن مؤلفات عطوفة العلامة الامير شكيب أرسلان أبن تباع. وها نحن نسردها فيما يلي ونذكر أثمانها: —

	ص
٨٠ حاضر العالم الاسلامي بمجلدين ضخمين	١٥ آخر بني سراج في تاريخ الاندلس
٣٠ الحلل السندسية في تاريخ واخبار الاندلس	٨ الامام الاوزاعي
١٥ السيد رشيد رضا او أخاء اربعين سنة	١٢ اناطول فرانس في مباذله
١٠ أحمد شوقي بك او اخاء اربعين سنة	٢٥ تاريخ غزوات العرب وفتوحاتهم في اوربا
١٠ ديوان الامير شكيب ارسلان	١٥ تعليقات وحواشي الامير شكيب على تاريخ ابن خلدون

وهذه الاسعار غير أجرة البريد. وتطلب مؤلفات الامير الجليل من المكاتب الكبيرة في القطر المصري

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في الاسكندرية والقطر المصري	ادارة المقتطف بشارع النائب — باب اللوق
في بيروت — سوريا	جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام	الاستاذ عبدالله الياس حصني
في دمشق — المهاجرين	الاستاذ عمر افندي الطيبي
في شرقي الاردن — عمان	الاستاذ يعقوب عودات
في القدس الشريف ويافا وحيفا	الخواجات يونس سعيد ووديع سعيد واصحاب مكتبة فلسطين العلمية
في حمص — سوريا	الخوري عيسى اسعد
في الناصرة وفلسطين	القس فريد عوده
في حلب شارع السويقة	السيد عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية
في صيدا	نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه	السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين

Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا

Mr. Naguib Shehadi
3012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة	عن سنتين
١٠٠ في القطر المصري والسودان	١٨٠
١٢٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»	٢٠٠
١٤٠ العراق «بريد السيارة»	٢٣٠
١٤٠ أي ٧ دولارات لاميركا الشمالية	٢٤٠
١٢٠ أي ٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين	٢٠٠

ملاحظة: يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم

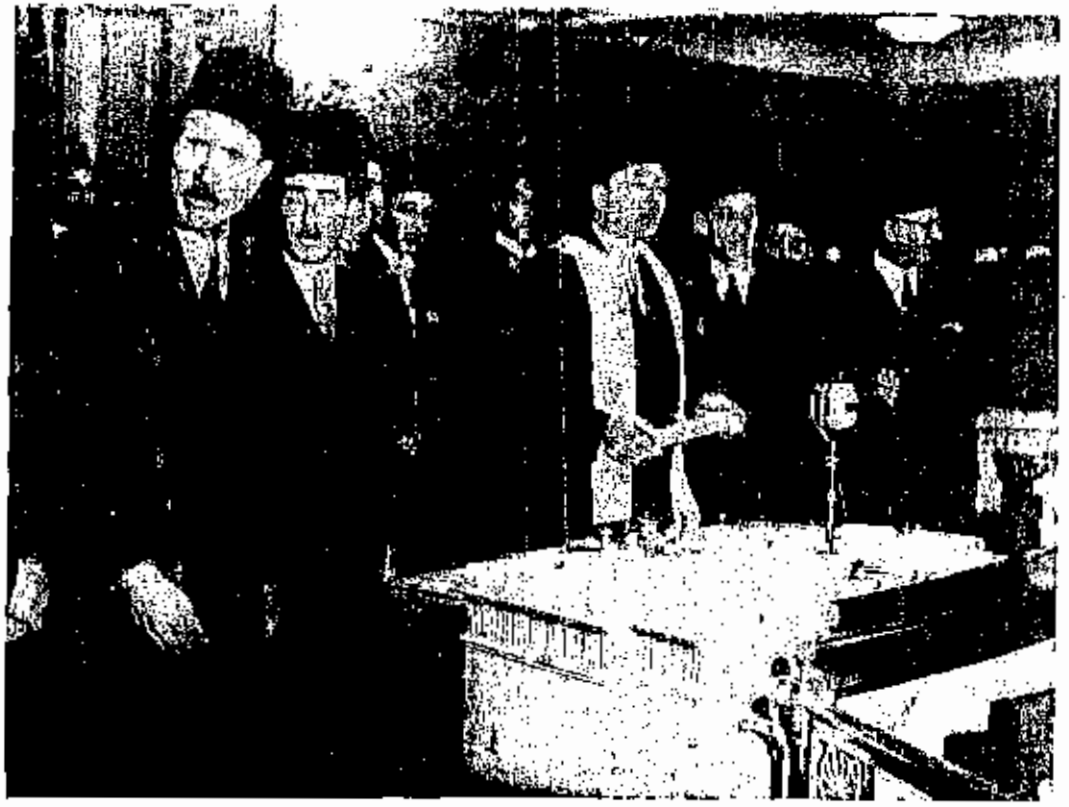

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول في جامعة فؤاد الاول والى يمين جلالته في يسار الصورة
كما تواجهها صاحب المعالي وزير المعارف فدير الجامعة